ظلال العقل العربي

مسقط رأسي بين الدين والتاريخ وعلم النفس

الجزء الخامس



تأليف

محمد مبروك أبو زيد

مستشار قانوني

باحث دكتوراه في التحكيم الدولي

ظلال العقل العربي

مسقط رأسي؛ بين العقل والدين والتاريخ وعلم النفس

الجزء الخامس

تأليف / محمد مبروك أبو زيد

سبتمبر ٢٠١٩

First Version 2019 Egypt

Mr, Mohamed Mabrouk Abozaid

المحتويات

مقدمة

كنت في بداية الأمر أعد هذا الكتاب ليس لغرض تأليف كتاب وإنما لوضع الرؤية والتصور الذي يجب أن نبدأ به لبناء نهضة حديثة، بعد ثورة ٢٥ يناير، ووضعت المحاور التي يبدأ بها بناء دولة أسبق من العصر الحالي، ووضعت تصورا مبدئيا لنظام الحكم وشكل الديمقراطية في المستقبل على أن يقتصر حق التصويت فقط على من يشاركون في صناعة الرأي العام، أو على الأقل بما يمكن معه استطلاع رأي من يفهم في الأمر الذي يجري بشأنه الاستطلاع وليس استطلاع رأي شخص في أمر يجهله، لأن استطلاع الرأي والانتخاب والاستفتاء ليس حق لصيق بشخصية كل مواطن بقدر ما هو مشروط بفهم وإدراك هذا المواطن للأمر الذي يتم الاستفتاء فيه، فالشخص يتزوج ليس لأن من حقه الزواج فقط ولكن ذلك مشروط بقدرته المادية والجسدية على الزواج. ووضعت تصورا لنظام الحكم يدمج بين النظام الرئاسي والبرلماني لتدعيم فكرة أن تدار الدول بنظام شركات المساهمة، أي يكون لها رئيس مجلس إدارة يتحكم في كل شيء، وفي المقابل عضو منتدب يراقبه نيابة عن الشعب، لأن الرئيس بمجرد انتخابه يصبح ممثلا عن السلطة ولاعبا بها ويسعى لتنفيذ رؤيته الشخصية وينسى طلبات الشعب الذي انتخبه من أجلها.

بينما لو كان للشعب عضو منتدب وظيفته فقط الرقابة على أداء أجهزة الدولة لاختلف الأمر كثيرا جدا ولن يكون هناك أي تنازع في السلطات لأن العضو المنتدب سيحمل حقيبة السلطة الرقابية فقط (القضاء والنيابة العامة وهيئة الرقابة الإدارية والنيابة الإدارية والجهاز المركزي للمحاسبات والبرلمان وأمن الدولة والمخابرات العامة) أو أن يتولى رئيس البرلمان إدارة كافة الأجهزة والهيئات الرقابية في الدولة بمعزلٍ على رئيس الجمهورية، بحيث يتفرغ رئيس الجمهورية للعمل السياسي التنفيذي فقط.. ويستقل رئيس البرلمان بإدارة كل الأجهزة الرقابية، فيصبح رئيس البرلمان رئسا للشعب من نوع آخر، ورقيبا فعليا ومشرفا عاما يقوم بدور النيابة العامة السياسية، لأن البرلمان الحالي مهما كان وطنيا فيبقى دوره منحصرا في خانة المعارضة للحكومة وليس لديه أجهزة ومؤسسات رقابية تعمل بأمره، إنما هو مجرد مؤتمر للكلام النظري فقط. ولذلك يجب أن يتحمل البرلمان مسؤولية إدارة الأجهزة الرقابية كلها، فليست الرقابة تشريعية فقط وإنما رقابة سياسية وإدارية وأمنية ومالية من خلال أجهزة فعلية وليس فقط البيانات التي يلقيها كل عضو في البرلمان خلال ٥ دقائق محددة بالثانية، بذلك يصبح العضو المنتدب للشعب حكَم فعلي بين الشعب والسلطة،

لا مجرد موظف يتقاضى مكافآته من يد السلطة.. أو أننا نتساءل ما الفائدة وما المنطق في سلطة الرئيس والحكومة التي يختارها على الأجهزة الرقابية؟ فبطبيعة الحال كل موظف يخشى على منصبه أكثر مما يخشى على مصالح الشعب، وليس مطلوبا من الموظف ليكون وطنيا أن يكون انتحاريا يضحي بوظيفته ومصدر رزق أولاده في سبيل حماية مصالح الشعب، لأن أصحاب تشابكات المصالح السياسية والاقتصادية أصبحوا مثل المافيا.

وأتصور أنه من الضروري وضع نظام محدد للتعيينات في الوظائف الحكومية، بحيث يُسمح فقط بمشاركة شخص واحد من كل أسرة في الوظائف العامة سواء كان شركات القطاع العام أو الوظائف الإدارية في الدولة بوجهٍ عام، أي إذا كان الأب ضابطا بالشرطة أو قاضيا أو مديرا لإحدى الشركات أو الهيئات الحكومية، فلا يُسمح لأي من أبنائه بالتعيين في الوظائف الحكومية، حتى يمكن القضاء تماما ونهائيا على ظاهرة الوساطة والفساد السياسي والإداري، بمجرد تحجيم العلاقات الشخصية بين الموظفين إلى الحد الأدنى المعقول، وإن كان الأصل أن مؤسسات الدولة تسعى لتوظيف أكفأ العناصر في الأماكن الفارغة، وهذا ما يعني أن استبعاد أبناء الموظفين سيمثل استبعاد لبعض الكفاءات بالفعل، وظلم لأبناء الموظفين، لكن التضحية بهذا النصيب من الكفاءات كفيل بالقضاء على معدلات الفساد الرهيبة الناتجة عن الوساطة في التعيينات والوظائف للأهل والأقارب، والتضحية في حد ذاتها لا تعتبر ظلم عام كما في نظام الخدمة العسكرية، إذا كانت الأسرة لها ابن واحد ذكر فيتم إعفاءه من الخدمة العسكرية مهما كانت كفاءته، ومهما كان ذلك ظلما لأقرانه الذين ماتوا في الحروب. وهكذا يتم توزيع الوظائف العامة على الأسر دون اعتبار ذلك ظلم عام.

وإن كان استبعاد أقارب الدرجة الأولى فقط كفيل بالقضاء على كافة أشكال الوساطة، ولا يعتبر ظلم للأبناء لأنهم بالطبع استفادوا من كون والدهم موظف عام ومشارك في السلطة، ولأن الدولة في هذه الحال لا تتعامل مع أفراد وإنما مع الأسر، ويكفي من كل أسرة شخص واحد يشارك في السلطة والعمل العام حتى لا تفسد المنظومة كلها لأن العلاقات والروابط الشخصية بين الأقارب والآباء والأبناء أولى وأقوى بطبيعة الحال من مقتضيات الصالح العام في اعتبارات كل إنسان عادي.. غير أن الكفاءات الفعلية في العمل العام حتى الآن لم تثبت أي دليل على أن كفاءة الأبناء مستمدة من كفاءة الآباء بأي حال.. وهناك مزايا أخرى تتحقق من هذا النظام وهي المشاركة العامة لكل الأسر المصرية في السلطة والوظائف العامة، فهو نوع من توزيع السلطة العادل على أسر المجتمع المصري مع

اعتبار عنصر موحد للكفاءة، وهذا النظام يضمن عدالة في توزيع الثروة بالتوازي مع عدالة توزيع السلطة، وحتى لا تتحول الدولة إلى عصابات وتكتلات عائلية يسيطر فيها مجموعة من العائلات على الدبلوماسية ومجموعة من العائلات على الجيش ومجموعة من العائلات على القضاء ومجموعة من العائلات على الشرطة ومجموعة من العائلات على المال والاقتصاد فتنهار المنظومة كلها، ونصبح في نظام إقطاعي حديث ليس لأراضي الفلاحين وإنما لقطاعات الدولة، لأن عبد الناصر بالفعل قضى على نظام الإقطاع الزراعي وحل محله بنظام الإقطاع السياسي، وكوتة لأبناء الموظفين فعاد الإقطاع بصورة مختلفة.. حتى أن الشركات العالمية في عصرنا الحالي حريصة كل الحرص عند تعيين موظفين جدد ألا يكون لهم أقارب في الشركة تحسبا أن يكونوا قد سهلوا لهم طريق التعيين وبذلك تذوب عناصر الكفاءة والاستحقاق.

وقد حاولت الرجوع إلى التجربة السابقة في عهد محمد علي باشا لدراسة خطوات النهضة التي أقامها في مصر، فوجدتها عاجزة عن بناء نهضة، لأن محمد علي لم يفكر في إيقاظ وعي الشعب ليستمر في العمل والبناء والإنتاج، وإنما فكر الباشا في بناء مملكة خاصة له، وتركها لأولاده، بينما بقي الشعب المصري حفاة عراة من كل وعي.. حتى جيل التنوير الذي ظهر في عهد محمد علي ما كان إلا أدوات استخدمها الباشا ولم يكن وعي ذاتي جمعي نابض من التربة بتلقائية.. فرأيت أن بناء الوعي هو أولى الخطوات التي يبدأ بها بناء الحضارة، وبالبحث في هذا الوعي وجدت أننا لا زلنا نعيش حالة من الاحتلال، فالاحتلال ليس سياسيا فقط أو عسكريا فقط، وإنما هناك احتلال للوعي الجمعي للشعوب، وكذا الاستقلال يأتي على درجات، فالشعب المصري قد حصل على استقلاله العسكري عام ١٩٥٦ بجلاء آخر جندي إنجليزي، ثم حصل على استقلاله السياسي في ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، وما بقي إلا استقلال الوعي من الاحتلال العربي، لكن مرحلة استقلال الوعي هذه تحتاج لأكثر من مائتي عام حتى يفيق الشعب تدريجيا، ونحن نتفهم ذلك. ويتمثل هذا الاحتلال في طغيان الثقافة والمعرفة والعقلية العربية على الشعب المصري، وهي عقلية أدبية فاشلة في العلم والعمل والبناء والإنتاج، وطالما تقمص الشعب المصري هذه العقلية فسيبقى تابعا، ولا يمكن له أن يبني نهضة وحضارة إلا إذا تحرر من هذه التبعية المقيتة، وليس مبررا أن الإسلام نزل في شبه جزيرة العرب أن تظل مصر تابعة فكريا وثقافيا لهؤلاء العرب بأي حال.. أن تظل القومية العربية تلعب دور الراعي بينما القومية المصرية تعيش في دور الرعية...

وبعدما وضعت مقدمة للكتاب وعنوان سياسي بحت، كان الكتاب عبارة عن تقرير سياسي يتضمن رؤية مستقبلية وخطة لبناء دولة حديثة ونظام جمهوري ونظام رقابي، وقسمته لعدة فصول وأبواب تتحدث في نظام الحكم والسياسة والرقابة والإدارة، وكان من بينها فصل عن تطوير التعليم، وبعدما كتبت فيه كثيرا، نقلته ليصبح الباب الأول في الكتاب، وعالجت فيه إشكالية الثقافة والفكر والوعي في مصر، وتطرقت إلى التمييز بين العقلية العربية والعقلية المصرية، بين القومية العربية والقومية المصرية، فأدركت أن أولى مراحل البناء هي تنظيف المكان وتأهيله للبناء.. وأدركت أن أولى مراحل العلاج والشفاء هي تطهير الجو من الغبار، فتحول هذا الفصل إلى كتاب وأصبح عنوانه " غبار الاحتلال العربي" لأننا مازلنا نعيش مرحلة في جو ثقافي مغطى بالغبار الفكري، ونحن بحاجة لتطهير الأجواء المصرية من هذا الغبار العربي أولا قبل أن نبدأ في بناء حضارة على غرار ما فعل أجدادنا الفراعنة..

وقد ظننا في منتصف القرن العشرين أن مصر تحررت عسكريا من الاحتلال الإنجليزي وأصبحت مستقلة، ونسينا أنه ينقصنا الاستقلال والوعي السياسي، ثم في ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ تحررنا سياسيا، وتنفس الشعب رحيق الحرية والوعي السياسي لأول مرة، وأدرك أنه مالك أمره، ولا سلطان لأحدٍ عليه، وأصبح الحديث في السياسة من الشؤون العامة الاعتيادية لكل مواطن ولكل أسرة، وانتقل اهتمام الشباب من الهتاف الجماهيري في ملاعب الكرة إلى اللعب بالسياسة أو في السياسة.

وبعد نجاح الثورة في إسقاط النظام السياسي الفاسد، وقف الشباب يتذكرون اللحظات العصيبة في تاريخ النضال من أجل الحرية، يقول خالد عبد الحميد (عضو ائتلاف شباب الثورة) " يمر الآن في خيالي مشاهد سريعة من مسيراتنا الصغيرة جدا في عام ٢٠٠٥ في شوارع ناهيا، بهتيم، وشارع شبرا. حيث كنا مجموعة من الشباب والفتيات يطلقون على أنفسهم شباب من أجل التغيير (حركة كفاية)، وكنا نهتف بصوتٍ عالٍ " يا أهالينا ضموا علينا، آدى مطالبنا وآدى أمانينا..حرية حرية ".

ويقول زياد العليمي (عضو ائتلاف شباب الثورة)" لا أستطيع أن أتذكر كيف بدأت كواليس الإعداد ليوم الثورة، دون الخوض في أعماق أعوامٍ كاملة سبقتها، سواء بإعداد مباشر لهذا اليوم، أو غير

مباشر ليوم غضبٍ طالما حلم به ثوار أنقياء، وقفوا وحيدين على سلالم نقابة الصحفيين، لأيامٍ وليالٍ خلال أعوام مضت، ليهتفوا: "بكرة الثورة تقوم ما تخلي".

فالثورات عادة يقودها الأحرار ضد الظلم والفساد، وبخاصة تلك الثورات الفكرية التي تحدث طفرة في الوعي الجمعي، ويسعون لنشر وتعميم الحرية والوعي العام لدى أبناء شعبهم، والروح التحررية الثورية هي التي ترفض الخضوع للذل والهوان وتهب لدفعه إذا ما استشرى، مستعدة للتضحية بالدماء والأرواح ثمنا للكرامة.. أما العبيد فلا يسعون لتحرير أنفسهم وإنما ينتظرون من يعتقهم.... فعادة ما تكون الكرامة والروح على كفتي ميزان، فإذا غلب حب الروح والحياة على شعب، قبل الذلّ والهوان، وإذا ما غلبت الكرامة والنخوة، قامت الثورة.. وأما عبيد الفكر فهم لا ينتظرون من يأتي ليحررهم وإنما يحاربونه إذا جاء! لأنهم بذلك يدافعون عمّا اعتادوا عليه واستشعروا الدفء في جلبابه.

ولهذا بعد نجاح الثورة المصرية في خلع نظام الحكم الفاسد، أدركنا أننا لم نكن أحرار في خمسينات القرن الماضي، لأنه ليس معنى الاستقلال أن يكون سياسيا عسكريا فقط،، بل هناك احتلال بحاجة لاستقلال في الوعي ذاته، وهناك استقلال للوعي لا يشترط أن يكون قبله احتلال أصلا، بل قد تكون مجرد رابطة تبعية حميمية، لأن الابن التابع لأبيه يصل في مرحلة معينة يصير فيها بحاجة للاستقلال عن أبيه برغم أنه لم يكن محتلاً من أبيه بالقوة المعروفة، بل كان تابعا برغبته ونظرا لإمكاناته الذهنية ودرجة وعيه، وعندما يصل إلى مرحلة النضج العقلي يجد نفسه بحاجة للاستقلال الفكري واستقلال في الوعي والقرار واستقلال بالأسرة، بينما عندما كان قاصرا لم يكن يدرك معنى الاستقلال ولم يكن بحاجة إلى هذا الاستقلال أصلا، ولن يدرك معنى الاستقلال إلا إذا وصل إلى مرحلة معينة من النضج العقلي والنضج في الوعي العام.. وبزيادة وعيه يتحول من طور الرعية إلى الراعي، وهذه أقصى مراحل الاستقلال، فهو استقلال من التبعية العقلية وليس من احتلال مادي.. وهكذا الشعب المصري، عاش مرحلة تبعيته للدولة العربية المقيتة بداية من عمرو العاص في عهد عمر الخطاب مرورا بعهد عثمان عفّان ثم بالدولة الأموية والعباسية كان الشعب المصري في طور الرعية والعرب في مكان الراعي سياسيا وفكريا وثقافيا... بينما القومية العربية ذاتها هي قومية فاشلة لا تصلح أن تكون راعية لقطيع غنم حتى، فكيف ترعى شعب عظيم من شعوب الحضارات؟، ومع ذلك ما زال الأزهر يتبنى فكرة أن الشعب المصري يعيش باعتباره رعية للعرب، وما زال يحتفي

بتاريخهم ولا يريد الاستقلال عنهم أبدا.. لكن أبناء الشعب المصري العظيم جديرون بالانتقال من طور الرعية إلى طور الراعي.

أدركنا بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير أننا ما زلنا بحاجة إلى ثورة في الوعي، وأنه لكي تستوي وتكتمل مراحل الاستقلال ينقصنا مرحلة الاستقلال الفكري واستقلال الوعي المصري الجمعي، وهذه من أصعب المراحل لأنها استقلال معنوي وليس مادي، وتحتاج إلى جهد عدة أجيال متتالية من أبناء مصر ولا يكفي جيل واحد لعبور هذه المرحلة، فنحن بحاجة إلى سقنن رع جديد، ونحن نتفهم بلطفٍ أن يكون مصير هذا الكتاب هو ذاته المصير المؤلم الذي لقيه سقنن رع، ونصبح بعده بحاجة إلى كامس جديد يتولى حمل الراية وتغذية شعلتها بدمه، يليه أحمس جديد ليعلن اجتياز خط النهاية لهذا النفق المظلم الطويل، ونصل إلى مرحلة الاستقلال بالوعي والفكر، وننتقل من طور الرعية للعرب إلى طور الراعي المصري، وهذا كله سهل وممكن لأن قمر الزمان مازلت تنجب وإن تخطى عمرها الألف عام. ولأننا كي نبني دولة وحضارة لابد أن نبني نظام تعليمي ناجح، ولكي نبني نظام تعليمي ناجح لا بد أولا من تطهير العقلية المصرية من الغبار الثقافي العربي الذي غطى الأفق، فلا يمكن أن تجلس الأسرة على طاولة الطعام دون تنظيفها أو حتى مسحها من الغبار.

فموجات الربيع العربي التي اجتاحت المنطقة لم تكن أبدا مجرد موجات غضب على أنظمة سياسية مستبدة، إنما هي الموجة الأولى لصحوة كبيرة قادمة في الوعي الجمعي لشعوب الشرق، قامت لتنفض غبار القرون الماضية عن الوعي الجمعي. فهي لم تتوقف آثارها عند حدود التغيير السياسي وإنما تبعها انتفاض وعيوي عام في كل ميادين المعرفة، وأخصها المعرفة الدينية، لأنه في السابق كان كل شيء يأخذ قدسية الدين حتى ما لم يكن له صلة بالدين، وتزايد كثافة المقدسات الدينية والأفكار والمعتقدات الحاصلة على القداسة الدينية، إنما هو علامة على ركود في العقل والوعي الجمعي للشعب، فقد تغيرت الكثير من المفاهيم مع موجات الربيع العربي، واهتزت كل سلطة مقدسة، ليس فقط السلطة السياسية، وإنما سلطة الفكر وكل سلطة تحجم العقل وتحبس حريته بوجهٍ عام.. وبالنظر إلى أن الحضارات تقوم مثل مواسم الربيع في شعوب العالم باختلافها وبالتبادل، حيث تصل الحضارة إلى قمتها ثم تبدأ رياح الخريف، ونحن نرى أن الغرب بدأ تحضره في القرن الثاني عشر واستمر ما يربو على الألف عام حتى وصل إلى قمة الحضارة، استعمر واستعبد الشعوب وهيمنت ثقافته على غيره من شعوب العام، ومارس السيادة الحضارية حتى شبع منها، وليس بعد القمة سوى خريف

لتبدأ شعوبٌ أخرى دورها في ريادة الحضارة، وقد عبّرت شعوب الشرق عن استعدادها لحمل رايةِ الحضارة، ولهذا نعتقد أن موجةَ الربيع العربي ستظل تدرس في جامعات العالم على مدار الألف عامٍ القادمةِ، باعتبارها ظاهرة اجتماعيةً ونفسيةً وليست مجرد حدثٍ سياسي.

****



الإضاءة الأولى

رؤية عامة

بالنظر إلى أن السعوديين القدامى قد اجتاحوا المنطقة بجيوشهم وفرضوا الاستعمار على أبناء الشعوب المجاورة، وخضعت هذه الشعوب للعرب حقبة من الزمان تتجاوز الخمسة قرون متواصلة، وهو ما أثر في نفسية هذه الشعوب، وانتقل الأثر بالوراثة بين الأجيال المتعاقبة لمئات أخرى من السنين. وبالنظر إلى أن الإنسان عندما يصاب بصدمة نفسية تصل إلى درجة فقد الثقة في ذاته، فتجعله خاضعا تابعا للمعتدي على وطنه، تجعله يؤمن بأفكاره ومبادئه خوفا من بطشه، ثم إذا أظهر هذا المعتدي نوعا من الرأفة بالضحية، فيتحول المعتدي في النظر الضحية إلى بطلٍ قومي ورمز ونموذج مثالي، وهذا ليس حقيقي وإنما هو أثر الصدمة التي تعرض لها الضحية. وبالنظر إلى أن الشعب العربي قد اكتسح الشعوب المجاورة له بالقوة وبالبطش، وحمل معه ثقافته (اللغة العربية والدين الإسلامي)، وجاء ذلك مرافقا للصدمة النفسية التي حدثت لأبناء الشعوب المكسورة تحت جيوشهم وحكامهم، فاستمر خضوع هذه الشعوب وأبناءها لفكر العرب أكثر من إدراكها لحقيقة الدين الإسلامي، ففي الواقع هي آمنت بفكر العرب وثقافتهم بفعل الصدمة قبل أن تعرف القرآن، ولهذا جاء فهمها للإسلام مرتبطا بالعقلية والثقافة العربية مهما انحرفت وأجرمت وخالفت مبادئ الدين، حتى أننا نجد التراث الثقافي العربي (المرويات والأحاديث وتاريخ الصحابة والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين) قد تغلبت فاعليتها بقوة على آيات القرآن ذاته، ذلك لأن هذا التراث التاريخي يمثل ثقافة المعتدي العربي الذي خضعت الشعوب لفكره وحكمه وآمنت بقناعاته على أثر الصدمة التي تفسرها متلازمة ستوكهولم في الطب النفسي، ومن هنا أصبح تاريخ العرب دينا للشعوب.

ولذلك استمرت قناعة الشعوب بتصرفات العرب وتاريخهم باعتبار ذلك هو الدين، مهما اختلف عن وتناقض مع مبادئ الدين في الواقع، ومن أمثلة ذلك؛ مسألة الجهاد وحق المسلم في الغزو واعتبار ذلك واجب ديني مقدس، ومسألة سبي النساء والأطفال في الحروب، ونظرية الخلافة في الحكم، والتي هي محض جزء من تاريخ العرب ولا علاقة لها بالدين. غير أن العقلية العربية في الأساس عقلية أدبية وليست علمية، ولذلك ارتبط فهم هذه الشعوب للدين بعقلية وثقافية أدبية ونبذ العلوم العقلية. ولن يمكن لنا إدراك ذلك قبل أن يفيق أبناء هذه الشعوب من آثار الصدمة ويمسحوا عن أعينهم آثار الغبار

الثقافي المترسب على العقول من آثار احتلال العرب لبلادهم، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا اعترفنا بأن الوجود العربي في مصر كان وجودا عسكريا اقتصاديا وليس دينيا. فالعرب بدأ دخولهم مصر بجيشٍ وسلطة حكم، وليس بكتاب فقهٍ ومنبرٍ وخطيب داعية، حتى وإن انتشر الإسلام في مصر على أثر الوجود العربي، لكن في الواقع كان وجودا عسكريا سياسيا عربيا أكثر من أثره كوجود ديني إسلامي. وإذا لم نعترف أن الوجود العربي في مصر كان احتلالا سياسيا عسكريا خلف أثرا نفسيا اضطر الشعب للخضوع لحكم العرب تفاديا ليأس المقاومة التي لم تعد تجد معهم، وخلف غبارا ثقافيا استمر بعدهم مئات السنين وما زال، فلن تقوم لنا قائمة.

وأبسط دليل على ذلك أن مصر ظلت تتحدث لغتها الجبتية الفرعونية حتى القرن العاشر ميلادي، ولم تتحدث اللغة العربية إلا بالقوة الجبرية، ومع ذلك استمرت اللغة الفرعونية في صعيد مصر حتى القرن السادس عشر، ولم يندمج المصري في نسيج الشعب العربي لأنه كان سلطة احتلال وقمع واستنزاف اقتصادي، ويختلف في تكوينه النفسي والحضاري عن مكونات الشعب المصري، وأصوله وجذوره الفرعونية. فالعرب هم أولائك الخارجين من شبه الجزيرة العربية من العرب العاربة والمستعربة ومجتمعات القبائل البدوية في منطقة الحجاز؛ وهي تشمل السعودية ودول الخليج العربي. وفي الواقع لم يكن أثر الاستنزاف الاقتصادي لمصر ذا تأثير مستديم، لكن الكارثة تكمن في الأثر النفسي والمتعلق بالأثر الثقافي للوجود العربي، وهو ما أدى إلى طمس الحضارة المصرية الفرعونية، وتهميش تاريخها وأثرها في حياتنا ليصبح تاريخ العرب هو المهيمن، وأدى لطمس الهوية المصرية الفرعونية لنصبح جزء من نسيج الشعب العربي رغم اختلافنا جذريا عنه.

وهو الأمر الذي دفع الكثير من الشباب والمثقفين المنشغلين بتلك الأسئلة إلى إنشاء العديد من المراكز البحثية والمدونات التي اهتمت بتجديد الدراسات الإسلامية اعتمادا على أدوات العلوم الإنسانية المتطورة، بعيدا عن أثر التراث العربي، والعمل على إنشاء تجربة علمية جديدة استطاعت أن تجذب مزيدا من الجمهور خاصة من الأجيال الجديدة، فهؤلاء الشباب لا يتحدثون باللغة النمطية المقعرة التي اعتاد رجال الدين التقليديين استخدامها، والذين هم في الواقع مؤمنون بتاريخ العرب أكثر من إيمانهم بمبادئ الدين، أو هم الأكثر تأثرا بالصدمة والأكثر خضوعا لفلسفة العربي وثقافته، لأن إيمانهم لم يأت بمعزلٍ عن الصدمة التي تعرضت لها هذه الشعوب تحت حكم العرب، وإنما جاء نابعا من عمق الصدمة. ولأن الحياة لا تعرف السكون، فالديناميكية والحركة والتغير والتطور هي أساس الكون،

وأما الثبات والجمود فليسا من طبيعة الكون، والعقل البشري هو جزء من المكونات الطبيعية في هذا الكون. وهذا ما يحتم علينا إعادة صياغة المفاهيم الدينية والحضارية والقومية من جديد بمعزل عن النسيج العربي.

ويوم الحساب لن يغني عقل عن عقل، ولن يُحاسب العلماء نيابة عن الجهلاء، بل كلّ مأمور بإعمال عقله والاستدلال والاستنتاج لأنه مناط المسؤولية، أما كون الخطأ نتيجة لاتباع كبراء القوم فقط فهذا ليس بعاصمٍ من المسؤولية أمام الله يوم الحساب، بل سيفر العلماء ويتملصون من مسؤوليتهم يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه، وهذا ما يعني أن تبجيلنا وتقديسنا لكتب المرويات والتاريخ العربي والفقه القديمة التي اعتمدنا عليها لن يعصمنا ولن يشفع لنا أمام الله، ولذلك علينا مراجعتها وتمحيصها بدقة قبل أن تكون سببا للطعن في الإسلام بما حوته من إساءة للدين ومبادئه. فعندما تصلبت العقول وعجزت عن الفهم والتفكير والإبداع عمدت إلى اختيار أقرب الطرق إلى العبادة وهي اتباع السلف فيما فهموه وما توهموه في دينهم فجعلوا منهم قدوة ونموذجا مثاليا لتطبيقات القرآن العملية، ثم بمرور الوقت جعلوا هذه التطبيقات نموذجا مثاليا ومعيارا لتفسير القرآن وفهم مدلوله، فكانت النهاية أن فهم السلف أصبح له اليد العليا والحكم على النص القرآني. خاصة وأن تفسيرات القرآن بدأت خلال حقبة تاريخية معينة من تاريخ العرب، هذه الحقبة لم تكن مثالية في العلم والمعرفة وإنما تحيط بها الكثير من الشبهات، وبالتالي لا ينبغي توقيف فهم الدين وفهم القرآن عند حدود التفسيرات والتأويلات الواردة عن هذه الحقبة التاريخية، لربما كان العقل الجمعي قد أصابه سمة نفسية عامة أثرت عليه وصبغت آثارها على تفسيرات القرآن التي قدمها العرب لنا، ولذلك علينا العودة إلى عهد رسول الله والغوص في ثنايا المصدر ذاته والمنبع الذي جاء منه هذا الدين العظيم.

فيقول الفيلسوف الإيراني عبد الكريم شوروس يصف تغير المعرفة الدينية بقوله: "إني أقارن ذلك بنهر. والنبي هو منبع هذا النهر. وكل التقاليد الإسلامية هي بمثابة نهر يجري باتجاه الخلود. وما نحن سوى قطعة من النهر، والجيل القادم سيمثل قطعة أخرى منه. لا يتوجب علينا البتة أن نفهم الدين، كحوض ماء راكد، فالدين نهر متحرك". فلا يمكن تثبيت النص القرآني عند حدود ما فهمه السلف منه، لأن ذلك يجعل منه بركة من الماء الراكد، وليس نهرا جاريا وشريانا متحركا مع الحياة، بل هو نص حي تنبض فيه الحياة وتتجدد معانيه وتتفتح مدركاته باستمرار الحياة إلى يوم النهاية.

إن العقل البشري في بنيانه السيكولوجي يقوم على محورين رئيسين، ولنسميهما ملكتين؛ ملكة الوجدان العاطفي وملكة التفكير، وتنشغل الأولى بحفظ المعلومات والصور الذهنية كما هي بحالها وتذوقها الفني والجمالي، بينما ترتكز الملكة الفكرية على تحليل المعلومات والأفكار وإدراك جوانب الخطأ من الصواب، وما ينبغي أن يكون أو لا يكون. هذان هما جانبي العقل يعملان بالتبادل فيكملان بعضهما بعضا كما الذكر والأنثى في الحياة، فلا ينبغي تكريس المادة الدينية على حدود الملكة العاطفية الوجدانية الروحانية، لأنها في حقيقتها تشترط سكونا للعقل والفكر والتدبر، وهي محض نصف عقل عاطفي، فالسلف قد أوقفوا المعرفة الدينية عند حدود التذوق العاطفي للنصوص دون تمريرها على ملكة العقل والموازنة الفكرية، ولهذا قبلوا بأفكار هي في حقيقتها جرائم ضد الإنسانية، لكنهم اعتبروها عبادة وجهاد في سبيل الله. !

غير أن هناك أعراض أخرى اجتماعية نفسية، فالمجتمع بوجه عام عندما تنحدر قيمة العقل ينحدر الفكر ويؤمن المجتمع بالخرافة أو بالعنف والمادية كوسيلة لتحقيق أغراضه، وإذا ما ارتقى الفكر يعود الإنسان ليؤمن بالتسامح والسلام والهدوء لتحقيق أغراضه والتعايش، ولذلك نجد المجتمع القروي تقوم كافة نشاطاته على طابع النشاط المادي والعمل اليدوي المجهد بدنيا، (هذا النوع من النشاط البدني المادي هو الأكثر إراحة نفسية لهذا النوع من المجتمعات) ونجد الخبرة تعتمد على الاحترافية المادية، وفي الجانب السلبي لأنشطة هذا المجتمع تزداد معدلات العنف المادي، وعادة ما تكون الجرائم قائمة على العنف المادي كجرائم الضرب والسرقات. بينما في المجتمعات التي تتمتع بقدر من الارتقاء الفكري مثل المدن، نجد أن الطابع الغالب على نشاط المجتمع هو النشاط الذهني والفكري وأن الخبرة أغلبها خبرة فنية وفكرية معرفية وليست احترافية مادية، وفي الجانب السلبي لنشاط هذا المجتمع لا نجد جرائم العنف المادي بقدر ما نجد جرائم النصب والاحتيال. وهكذا تختلف المفاهيم والمعايير الاجتماعية حسب الطبيعة الثقافية والتكوين النفسي لكل مجتمع ولكل عصر..

وهكذا تدخلت العوامل النفسية للمجتمع العربي بقوة واندمجت في ثقافتهم الدينية حتى جعلتهم يمارسون حياتهم بلغة العنف المادي، وفهموا وفسروا نصوص القرآن وفقا للتكوين النفسي والاجتماعي الذي عاشوا فيه، وتوهموا في لحظة أن نشر الدين قد يكون بالقوة والسيطرة والسيادة على الشعوب، وما كان جرائم غير إنسانية توهموا أنها حق مشروع، ولذلك نجد تراثهم ملئ بالعنف، حتى الصياغة التاريخية جاءت مفعمة بالعنف المادي..وبوجهٍ عام، العقول تتمدد وتنكمش مثل

المعادن صيفا وشتاءا، وبالتبعية تتمدد وتنكمش الفلسفة والمفاهيم الإنسانية، فكل مفهوم معرفي يتذبذب مضمونه سعة وضيقا، وكلما ازدادت العقول تفتحا جرت المفاهيم في اتجاه التمدد، وكلما زادت العقول انكماشا، جرت المفاهيم في اتجاه التضييق، وكلما زاد الانكماش والتضييق زادت التفاصيل والأحكام الفرعية والتفصيلية وزاد الربط والإحكام ما يجعل من الحياة كئيبة.. مع إن الدين أكثر مرونة ويسرا من ذلك..

وهذا ما حدث مع الحضارة العربية، إذ بعد وفاة الرسول انكمشت العقول وثارت وتشددت وتعصبت لأتفه الأمور، ومعها زادت التفاصيل الفقهية (توسع أفقي) وزاد التضييق في الأحكام وذابت المرونة والتسامح.. وصار الفقهاء مهتمين أكثر بفكرة الأخذ بالأحوط بدلا من التيسير على الناس، ضمانة لصيانة الدين ولو ذابت حقوق الناس، ولذلك ظهر أمثال الشيخ ابن تيمية ليتربع على عرش الفتوى بمجموع فتاواه الدموية، الذي ابتكر حكم الإعدام لكل من خالف رأيه الاجتهادي بعبارة " يُستتاب وإلا قتل"، ولم يكن ظهور هذا الشيخ إلا حالة مرضية نفسية أصابت المجتمع العربي برمته مثل الوباء، ولم يكن ابن تيمية وحده من يعاني هذه الأزمة النفسية، بل كل من اقتنعوا بآرائه ووجدوا فيها عين العقل والحكمة، هم بالفعل أصيبوا بذات الأزمة النفسية، وهم يمثلون شريحة عريضة في العالم الإسلامي، ولأن العقل الجمعي للمجتمع يمرض ويتعافى، وهذه مرحلة مرضية يجتازها العقل العربي الجمعي. وهذا ما يؤكد الطبيعة السائلة للمعرفة الدينية، فهي تأخذ لون وشكل الوعاء الذي توضع فيه.

ونظرا لكون العلوم الشرعية هي من المعرفة السائلة التي تعالج السلوك والوجدان أكثر مما تعالج المنطق والحسابات المادية، فهي تعالج القيم الأخلاقية والغرائز والميول، ولذلك فهي أكثر تأثرا بحالة العقل النفسية وهي أشبه بالسوائل، إذ أنها تأخذ شكل وحجم الوعاء الذي توضع فيه فقط، بل وتأخذ لونه أيضا إذا كانت سوائل شفافة مثل الماء. فقد تأثر الفقه الإسلامي بالثقافة الاجتماعية والتغيرات النفسية للمجتمع العربي على مدار العصور، وتقلبات السلطة والاقتصاد والمناخ أيضا. يقول إبراهيم الكوني ": هناك ثلاثة أشياء تفسد البشر وتهلكهم: الثروة، السلطة، المرأة" ، وهي جميعها تمثل حالة اعوجاج في العقل الجمعي، إذ أن أي مجتمع يسود فيه اهتمام زائد بالثروة والسلطة والجنس، فهو مجتمع يعاني بالفعل من حالة اعوجاج نفسي عقلي تكون فيه هذا الأعراض متلازمة ومتزامنة؛ فالتركيز على السلطة يصحبه اهتمام بالثروة وإفراط في النشاط الجنسي، وجميع هذه الملامح الثلاثة

تأتي مجتمع لتشكل حالة مرضية نفسية هي "السادية" والسادية وباء اجتماعي يسود جيلا أو عدة أجيال متتالية على المستوى العام خلال حقبة من الزمن حتى تترسخ ملامحها النفسية وتصبح أمورا عادية بل ومعيارية اجتماعية.

بل إن شعبا من الشعوب خلال مراحل ازدهاره ورقيه الحضاري يتبني منظومة قانونية رسمية وعرفية راقية تعبر عن عقله الجمعي، تتمثل في منظومة الحِكم والأمثال الشعبية الشائعة بين أفراد الشعب وتعبّر عن ثقافته الحضارية ومزاجه النفسي العال، في حين أنه خلال مراحل الانهيار الحضاري، تنهار تلك المنظومة من الحكم والقيم والأمثال الشعبية والمبادئ الخلقية لتعبر عن المزاج النفسي العكر وترسي مفاهيم الظلم والاستعباد وتبرير الخضوع والاستغلال قرينا بالرضا والاستسلام، بل وتنقسم المجتمعات إلى فئة تسود وفئة تساد، وما بينهما تبقى المسافات شاسعة في صراع مريرٍ على الحياة.. ثم بمرور الزمن تنعكس الأوضاع، وما كان في القاع يصعد إلى قمة الحضارة، إن سعى إليها.والأمر لا يتوقف على الموجات العقلية الطويلة على المستوى الزمني الذي يشمل عصورا فقط أو حضارات متوالية المد والجزر، بل إن كل شعبٍ من الشعوب وكل مجتمع هو عبارة عن كائن اجتماعي واحد مترابطة أنسجته في انسجام، بما يعني أن المجتمع بأسره يعيش حالة ثقافية ومعرفية واحدة يشترك الفقهاء مع العوام فيها، فهم يلبسون من ذات النسيج ويأكلون من ذات الطعام ويسكنون ذات البيوت ويتحدثون ذات اللغة ويتداولون ثقافة اجتماعية واحدة ومشتركة بين الجميع.. وخلال ربيع الحضارات تزهر أوراق الجميع وخلال الخريف تتساقط أوراق الجميع.

ولا شك أن المجتمع العربي بعد رحيل النبي عليه السلام قد تغيرت ظروفه كليا (على مستوى المجتمع وليس أفراد الصحابة)؛ فمن حيث السلطة، ذهبت سلطة النبي محمد عليه السلام بوفاته وتجمعت مقاليد السلطة في يد الخليفة، ولهذا تنازعوا عليها بادئ الأمر في سقيفة بني ساعدة حتى قبل أن يوارى الثرى في مثواه الأخير، ولم تأت حواراتهم حول السلطة باعتبار الأكفأ والأصلح شرعا وفقها أو سياسيا وإداريا، بل باعتبار العصبية القبلية والطائفية بين المهاجرين والأنصار، والمهاجرين يمثلهم أبو بكر وعمر وعبيدة، أما الأنصار فيمثلهم سعد عبادة، ثم باستمرار قوة الجيش في يدهم تضخمت السلطة (سياسيا وعسكريا)، لتصب الثروة في بيت المال الذي تضخم وانتفخ حتى انفجر في عهد عثمان عفان، واستمر تراكم الأموال والثروات عبر حصد الغنائم والأسلاب التي جلبها الجيش من غاراته المتكررة شرقا وغربا، وكانت هذه الثروات مصحوبة بالآلاف من السبايا والنساء الحسناوات

أسيرات الحرب من جهة الشمال ذوي البشرة البيضاء (الشام والعراق وفارس)، وهن مختلفاتٍ جذريا عن نساء شبه الجزيرة العربية ذوات البشرة السمراء والشفاه الغليظة. فلا شك أن اجتماع هذه المفاسد الثلاث في نفوس العرب(السلطة والثروة والنساء) بعد وفاة النبي عليه السلام قد أثرت جذريا على نفوسهم وغيرت طبائع المجتمع وميوله بوجهٍ عام. فلم تكن الحركة الفقهية على ذات الوتيرة والسرعة التي سرت بها الحركة السياسية والعسكرية في جزيرة العرب. انشغل الصحابة وحفظة القرآن بالمعارك السياسية والعسكرية وتعطلت الحركة الثقافية، حتى أننا نجد أغلب رواة الحديث والمأثورات هم من أطفال هذه الحقبة التاريخية، مثال؛ ابن عبّاس كان في الثامنة من عمره وعبد الله الزبير وغيرهم من أطفال هذه الحقبة، وهؤلاء الأطفال لم ينقلوا الدين عن النبي ولكن نقلوه من المجتمع العربي خلال هذه الحقبة التاريخية، وبطبيعة الحال جاء كل تراثهم الثقافي مألوفا ممزوجا مندمجا بالطابع الاجتماعي والثقافي والنفسي للمجتمع، ما عدا النص القرآني الذي لم يخضع لتدخل البشر بأي نوع من التأثير فيه أو عليه؛ لأن النبي تركه لهم مدونا محفوظا ولهذا كان بمنأى عن العبث.

غير أن العرب وقعوا بعد وفاة الرسول في إشكالية دقيقة وغاية في الخطورة، فلم يتمكنوا من الفصل بين مفهوم الجهاد ونشر الدعوة إلى الله، فاستخدموا الأولى بدلا عن الثانية، مع أن الفرق شاسع؛ فالدعوة إلى الله سبيلها وأدواتها (الكلام الحسن الطيب واللباس الطيب والخطاب المرن، يقول تعالى: ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ.) بينما الجهاد هو وسيلة مقاومة العدوان، وينحصر مفهومه في النضال والمقاومة للحفاظ على الحقوق المشروعة. أما نشر الدين فأداته ووسيلته هي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكثيرا ما تحدث المولى عز وجل في آيات الدعوة والتي هي السبيل الوحيد لنشر الدين، فعندما أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون لدعوته قال: قولا له قولا ليّنا، ولم يأمر الله موسى بإعداد جيش لمحاربة فرعون الكافر، وأما في أمره للرسول محمد ص قال تعالى: وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن".. وقال: ولو كانت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" .. هذا على مستوى الدعوة إلى الله ونشر دينه. أما الجهاد فجاءت آياته بينات في مقام (المقاومة)، فعبر القرآن بلفظة الجهاد مع المنافقين الذين في قلوبهم مرض لا يرجى شفاءه.. ولا تأخذكم بهم شفقة ولا رحمة ... ثم قال وجاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم... ذلك لأنهم يندسون في صفوف المؤمنين لهدم الإسلام وزعزعة النفوس ولا رجاء منهم، أما المشركين الذين يحاربون المسلمين علانية

لهدم دينهم ومجتمعهم فأوجب الله جهادهم بالقتال، فالجهاد في كل الأحوال جاء من باب المقاومة، أما نشر الدين فوسيلته الدعوة إلى الله، والعرب لم ينشروا الدين بالدعوة إلى الله والحكمة والموعظة الحسنة، ولكنهم استخدموا الجهاد باعتباره وسيلة لنشر الدين، استخدموا فكرة الغزو الهجومي في توسيع رقعة السيادة الجغرافية ولو على حساب الدين، ولم ينتبهوا كثيرا للفارق بين الدعوة والجهاد، فالدعوة أمر مستمر ودائم، بينما الجهاد حالة طوارئ يكون اللجوء إليها وقت تحقق شروطها، لكنهم جعلوا الجهاد هو الحالة العامة طول الوقت، حتى أنهم استخدموها هي ذاتها في قمع المعارضة السياسية واحتلال الشعوب المجاورة واستخدموها كذلك في تصفية صراعاتهم السياسية الداخلية!.

وإذا نظرنا في تاريخ الحضارة العربية سنجدها قد لمع بريقها بالمفاسد الثلاث (النساء: تكاثرت بسبب عمليات الأسر والسبي للنساء البيض من الشمال ولذلك نجد بعض الخلفاء قد حرص على اقتناء الآلاف من النساء ذوات البشرة البيضاء ولا عجب أن يُفتتنوا بالنساء فهنّ ملك يمين! وأما السلطة: فقد عاشت الدولة على مدار تاريخها صراعا سلطويا لم يهدأ وتحول بعد عقدين من وفاة النبي عليه السلام إلى توريث للسلطة، ولم يكن حتى توريث سلمي بل كان صراعا دمويا فجا، واستمر ذلك خلال العصر الأموي بأكمله، ثم انتقل إلى عصر العباسيين بالقضاء على ما تبقى من بني أمية بالقتل والذبح ونبش القبور، حتى سقطت أقصى قلاع العرب في الأندلس بسبب الصراع على السلطة. وأما في شأن الثروة؛ فقد تراكمت الثرة نتيجة الغزو المستمر لبقاع الأرض وفرض الجزية والخراج والإتاوات على الشعوب مما وفر موردا دائما لرأس السلطة دون إنتاجٍ حقيقي مركزي، فلم ينشأ لدى العرب مراكز صناعية وتجارية أو زراعية، كتلك التي قامت في فارس والعراق على ضفاف الرافدين قبل غزوها من قبلهم، أو تلك التي قامت على وادي نهر النيل في مصر الفرعونية، فلم ينتبهوا إلى العمل والبناء والإنتاج وانحصر نشاطهم في السطو على الشعوب ونهب ثرواتهم باسم الدين وعاشوا متطفلين على الشعوب التي احتلوها وأضحت هي مصدر دخلهم القومي الوحيد بينما بقيت شبه الجزيرة العربية صحراء جرداء.

وما نود الخلوص إليه هو هذا السؤال- هل بقيت العلوم الفقهية الشرعية مُحصنة وبعيدة عن هذه المفاسد الثلاث (السياسة والثروة والمرأة) التي أثرت على عقول العرب وغيّرت نفوسهم؟ في ظل اتباع الفقهاء لسير الأولين من عصور المسلمين باعتبارها نماذج مثالية لمبادئ الإسلام وتطبيقاته العملية؟! فالفقهاء ما زالوا إلى اليوم يحتجون في تفسير القرآن على نقلوه عن أفراد هذا المجتمع العربي من مرويات شفوية

اعتمادا على الثقة الشخصية، مع الحكم مسبقا بأن جميع أفراد هذا المجتمع صادقون عدول بما يجعل من شهادتهم حجة على القرآن ذاته!

والإجابة: على ما يبدو جليا أن الدين الإسلامي في حقيقته وجوهره شيء مختلف ومستقل تماما عن ثقافة العرب، وعن ممارسات الدولة العربية التي نشأت عقب وفاة الرسول عليه السلام وانحرف العرب وانحرفت دولتهم (سياسيا وعسكريا وثقافيا وفقهيا واقتصاديا) عن منهج الإسلام الصحيح الذي تركه لهم النبي محمد عليه السلام؛ فبالعودة إلى عصر النبي نجد إسلاما مختلفا تماما وكليا عن ذلك الإسلام الذي ساد بعد رحيله. تغيّرت المبادئ وانحرف المنهج وضاقت الآفاق وذاب التسامح نهائيا على المستوى السياسي والفكري الفقهي، تحوّل الإسلام على يد العرب من دين عالمي إلى دين بدويّ محلي مفعمٍ بالعنف والبداوة، لأن المجتمع العربي في الأساس لم يكن سويا من ناحية التكوين النفسي، وجاءت بعثة النبي لنقذهم من المستنقع الذي عاشوا فيها عصورا طويلة، لكنهم بمجرد رحيله عاد أغلبهم إلى طبيعته الاجتماعية والتي هي مقيدة بطبيعة المنشأ، وما كان النبي بالنسبة لهم إلا كما يضيء المصباح فترة من الليل ثم ينطفئ فتعود الحياة إلى ظلامها لأنهم لم يصنعوا المصباح بفكرهم وإرادتهم الذاتية وإنما طل عليهم من السماء فجأة.

ولا شك أن العصر الأول للإسلام هو أفضل العصور من حيث فهم النصوص القرآنية ونهج الرسول أو هو العصر الذهبي للإسلام، وذلك بالنظر إلى أنهم تلقوا العلم والمعرفة الدينية من مصدرها الأصلي وهو الرسول الكريم، لكن هناك جوانب أخرى لم يكن الصحابة والتابعين أكثر دراية بها من الأجيال اللاحقة عليهم؛ فطبيعة الحياة تقوم على تراكم المعلومات والمعارف ومن ثم عملية تطوّرٍ مستمرة للفهم، كما حدث في اللغة التي كُتبت بها آيات القرآن، فكانت الحروف غير مُنقطة أو مُشَكَلة ثم تبع ذلك تطور الأدوات اللغوية فأبدع أبو الأسود الدؤلي في تنقيط وتشكيل حروف وكلمات القرآن في العصر العباسي، وأبدع سيبويه في اكتشاف قواعد النحو والصرف من آيات القرآن الكريم، ومن القصائد الشعرية للعرب خاصة المتنبي، وكذلك تطوّرت الأدوات المادية للمعرفة من وسائل الكتابة وصناعة الورق والأحبار مما سهّل عملية تدوين العلوم وتداولها. غير أن النبي لم يفسر القرآن وهذا ما يعني أن فهم القرآن في نمو وازدهار مستمر مع الزمن، أي متجدد، وهذا ما يعني أيضا أن تفسيرنا للقرآن أكثر ارتقاءً وازدهارا من تفسير الصحابة له بطبيعة الحياة المتجددة التي تقوم على مبدأ التراكم المعرفي.

وعلى الجانب الآخر هناك جانب من المعرفة كان لا يزال في مهده وهو العلوم الطبيعية والخبرات الإنسانية بوجهٍ عام؛ لأن شبه الجزيرة العربية لم تقم بها أيّ حضارات من أي نوعٍ قبل بعث النبيّ عليه السلام برسالته مقارنة بالحضارات التي قامت في مصر الفرعونية أو الحضارة الرومانية أو تلك الحضارة البابلية التي اصطدم بها العرب المسلمين عند فتحهم للعراق، وأما الجانب الثالث فهو كم الأحكام الفقهية التي وُجدت بعد عصر النبي عليه السلام لمواجهة تطوّر وتنوّع أعراف وتقاليد ومعاملات الشعوب على مدار الزمان، والتي تتابع الفقهاء أجيالا على الاجتهاد فيها، هذه الأحكام الفقهية لم يكن لها وجود في عصر النبي ولا عصر الصحابة ولم تكن هناك حاجة لها، والأمر الرابع هو أنه وإن كان النبي عليه السلام كان قد أكمل رسالته وأتمم علينا ديننا في عصره وأثناء حياته وأفهم أحكامه لمن حوله من الصحابة، فإن ذلك لا يعني توقف الحياة وتصلبها عند حدود ما تركه النبي عليه السلام، لأنه غرس البذرة وتركها لتنمو، فطبيعة الحياة هي التغيّر والحركة الديناميكية، وهذا يتطلب جهدا للاجتهاد في الأحكام واستقاء مصادرها من المبادئ العامة التي وضعها القرآن الكريم وما ثبت من سيرة النبي عليه السلام، وهذه مسألة اجتهادية لا تضمن عدم انحراف أيّ صحابي عن المسار الذي حدده النبي عليه السلام للدين الإسلامي؛ ذلك لأن بعضهم كان يُخطئ الفهم حتى في عصره، غير أنهم بشر ولهم نوازعهم النفسية وميولهم الفكرية وإمكاناتهم العقلية، مع ما يحتمه الاجتهاد الفقهي من احتمالات الخطأ، وكونهم قد تتلمذوا على يد أشرف الخلق محمد عليه السلام لا يعني عصمتهم من الخطأ في فهم أو تأويل آيات القرآن بعد رحيل النبي عليه السلام، لأن التراث الديني هو من العلوم الإنسانية السائلة، وهي بطبيعتها قابلة للتمدد والازدهار أو الانكماش والتصلب المعرفي، وما يؤكد هذه الاحتمالية هو اختلافهم وتنوعهم في تفسير الآية الواحدة؛ إذ أن النبي ترك لهم سنته ولم يترك لهم تفسيرا محددا للقرآن، ومن هنا اجتهدوا فيه قدر جهدهم واختلفوا في مواضع لو كان النبي بينهم وقتها لكان قد صحح ما أصاب الفهم.

غير أننا لا ينبغي أن ننس عوامل التشويش التي تعرضوا لها بعد رحيل النبي عليه السلام من المنافقين والمشركين والمرتدين عن الإسلام والمنفصلين عن الدولة الإسلامية بمفهومها السياسي، ثم أنهم بشر ولا يجوز إعلاء كلمتهم على القرآن ذاته بحجة أنهم فهموه على الوجه الأمثل لأن طبيعتهم البشرية قابلة للتغير فتتغير معها المفاهيم حتما، ولذلك اختلفوا بعض الشيء في هذا الفهم وتنوعت وتعددت آراؤهم، غير أن القرآن العظيم قد أرسى مبادئ عامة من شأنها تصحيح مسار المجتمع في كل العصور، ومن حقنا أن نعيد معايرة العصور التالية للمسلمين على المبادئ السامية للقرآن لا على ما

فهمه الصحابة منه أو ما نقله التاريخ عنهم، كي نتبين ما هو الصواب والخطأ وما هو الوجه الأمثل لفهم النص القرآني. وما نود الوصول إليه أنه لا ينبغي حصر فهمنا للقرآن بحدود فهم الصحابة والتابعين له أو بحدود ما رووه لنا من أقوال النبي عليه السلام، طالما وجد القرآن ذاته بين أيدينا، فلهم السبق لا الوصاية، بل ينبغي أن نفسره في ضوء المبادئ التي أرساها القرآن ذاته لا المبادئ التي أرسوها هم بناءً على فهمهم، ولا أن نتخذ كل تصرفاتهم باعتبارها نموذجا مثاليا للإسلام، وأن نتناول وقائع حياتهم بالدراسة والتحليل الموضوعي بالقياس على آيات القرآن ومبادئه لا بقياس آيات القرآن على حدود فهمهم لها، وبقياس حياتنا على المعايير والمبادئ القرآنية لا على تصرفاتهم وسلوكياتهم بالجملة؛ لأن ذلك يعني ضمنيا استبعاد النص القرآن و تعطيله وتعطيل عقولنا وتقييدها بحدود أفكار الصحابة والتابعين، مع أنهم بشر ولهم ما للبشر من أنفس. غير أن تحديد آفاق النص القرآني بحدود فهم التابعين له يعتبر إخضاعا للقرآن للمعيار الشخصي للصحابة فرادى أو مجتمعين، وهذا غير جائز لأنه ينبغي أن يكون القرآن هو المعيار الأسمى الذي تقاس عليه تصرفات الصحابة وتصرفاتنا أيضا، لا أن نقيس حياتنا على حياتهم نيابة عنا في فهم القرآن.

إن المنهج العلمي في تناول مجريات الأحداث عبر التاريخ لا يقتضي المجاملة ولا الحيف بأي حال، بل يجب أن يكون حياديا في إعمال المعايير العلمية كلٌ في مقامه دون حيود. فلن يفيدنا محاباة الصحابة أو المسلمين الأوائل في شيء سوى انحسار المنطق العقلي عن وعينا حتى تنتهي أفكارنا إما إلى فوضى وإما إلى تصلُب معرفي لا فائدة ترجى من ورائه ولا مناص من ويلاته. ففي هذه الرسالة سنحاول قدر جهدنا إسقاط الضوء على حركة التاريخ للدولة الإسلامية بكافة جوانبها، وما انتهت إليه من سكونٍ مقيت تحت وطأة الاحتلال الغربي. فكافة الحضارات التي قامت على سطح الأرض تركت من بقاياها ما يشير إلى دعائم قيامها وما يوضح عوامل هدمها أو انهيارها أيضا، وكل حضارة خلفت آلاف من المؤلفات والمكتشفات العلمية وخلفت كذلك كثير من الدماء التي أهرقت حولها، سواء كانت من دماء أبنائها في حركتها التوسعية أو من دماء غيرها في ذات الحركة أو خلال مرحلة انحسارها وتراجعها،أو في الحروب الأهلية والمذابح السياسية والعرقية وجرائم العنف السياسي خلال حضارات العالم، فالخسائر إنسانية مشتركة في كل الأحوال.

إذ أن نتاج هذه الخبرات العلمية وتراكم المعارف الإنسانية من كل الحضارات عبر العصور بعد التقدم التقني في عالم المعرفة، كان هو الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، فالسبب المنشئ لهذا الميثاق هو

تراكم المعرفة الإنسانية وتراكم الخسائر البشرية نتيجة الصراعات التي عاشتها الحضارات والشعوب على مدار التاريخ، وأما الهدف منه فهو تخفيف وطأة هذه الصراعات الإنسانية بين الشعوب وتنمية الجانب الإنساني في سياسات الشعوب لضمان الحد الأدنى من العيش في سلامٍ وأمان. برغم أن المبادئ التي تبناها الميثاق العالمي لحقوق الإنسان لم تأت مشتقة من دين معين لشعب معين بل هي مبادئ إنسانية بالفطرة، وجدت قبل أن توجد الأديان في الأرض، فما نزلت الرسالات السماوية إلا لإعادة إحياء هذه المبادئ الإنسانية بعد أن اغتالتها الشعوب، ومع ذلك نجد كافة الأديان تسببت في نسبٍ متفاوتة من الخسائر البشرية نتيجة الصراعات الدينية والطائفية التي وقت بين الشعوب، كما يقول الدكتور نفيد شيخ من جامعة لويسفيل في دراسة حول أعداد القتلى في الأحداث العامة الكبرى كالحروب والحروب الأهلية والمذابح السياسية والعرقية في الفترة منذ بداية التاريخ الميلادي إلى عام ٢٠٠٨أن الحضارات المسيحية قد تسببت في قتل ما يقارب ١٧٧,٩٤١,٧٥٠ إنسانا، بينما تسبب المسلمون في مقتل ٣١,٩٤٣,٥٠٠ إنسانا.[1] ، وليس هناك دين في الأرض يأمر بالقتل والعدوان لكن أتباع هذه الأديان هم من انحرفت أفهامهم عن الصواب فتوهموا أن الله قد أمرهم بقتل غيرهم قربانا لله ودفاعا عن دينه. كما نوه على ذلك الدكتور نفيد شيخ؛ حيث بدأ دراسته باسم الله وذكر من القرآن الآية التي تقول: مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ". برغم أن الفطرة الإنسانية قد ضمنت كافة المبادئ التي نص عليها الميثاق العالمي لحقوق الإنسان وأعادت الرسالات السماوية التأكيد عليها مراتٍ ومرات.

وننتهي من هذه الدراسة بوضع الإصبع على ما ينبغي أن يتبناه المسلمون حتى تنهض حضارتهم مرة أخرى، خاصة في جانب العلوم الإنسانية السائلة، وما يهم حركة التطور التشريعي، مع تطور الحركة العلمية فيما يخص فقه الشريعة الإسلامية، لأن كل العلوم ومجالات المعرفة قد تقدمت وتأخر فقه الشريعة الإسلامية. سنحاول قدر جهدنا التفرقة بين العناصر التي أدت إلى تدهور الحركة

١- دكتور نفيد شيخ: دراسة بعنوان:

Body count.A quantitative review of political violence across world civilizations. By: Naveed S. Sheik

حول أعداد القتلى في الأحداث العامة الكبرى كالحروب والحروب الأهلية والمذابح السياسية والعرقية في الفترة منذ بداية التاريخ الميلادي إلى عام ٢٠٠٨م الدراسة على الموقع بالرابط التالي:

https://docslide.us/documents/body-count-a-quantitative-review-of-political-violence-across-world-civilizations.html

الفقهية في العالم العربي الإسلامي بما يتلاءم مع التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم وإعمال نصوصه بدلا من إهمالها اعتمادا على ما أفتى به السابقون وما اجتهدوا فيه. لا نقف على خطأ وإنما نشير إلى الصواب قدر الإمكان، لن نحاسب غيرنا على ما لم يدركوه، وسنعمل جاهدين على إدراك واقعنا والتفقه فيه؛ وذلك من خلال العودة بالفقه إلى المعايير الموضوعية للعلوم السائلة لنبتعد عن الفوضى المعرفية قدر الإمكان ، ونبتعد عن التصلب المعرفي قدر الإمكان، والمعايير الموضوعية هنا هي المبادئ التي أرساها القرآن، ثم نفرق بين المعيار الموضوعي والمعيار الشخصي لاعتماد النصوص الدينية فيما يخص المرويات والتراث الديني بوجهٍ عام.

في السنوات الأخيرة تباينت آراء العلماء حول حكم الجهاد ولاسيما بعد ضرب برجي التجارة العالمية في أمريكا في ٢٠٠١/٩/١١م بطائرتين مدنيتين تم اختطافهما، وقد قتل في الحادث أكثر من ثلاثة آلاف أمريكي مع انهيار تام للبرجين مع خسائر مادية بمليارات الدولارات. وما تلاه من احتلال أفغانستان والعراق بذريعة مكافحة الإرهاب وتطهير العراق من أسلحة الدمار الشامل والديكتاتورية. ومن العلماء منهم من يقول أن الجهاد أصبح فرضا على كل مسلم لطرد الكفار من كل أرضٍ إسلامية، فلذا يجب علينا أن نقاتل الكفار بحربٍ مفتوحة وفي كل مكانٍ من المعمورة. ناهيك عمّا يحدث وما حدث على مدار عقودٍ طويلة من عملياتٍ إرهابية تستهدف المدنيين الآمنين، وما عانت ومازالت تعاني منه مصر وما يحدث في سيناء منذ عقود وما حدث من صراع الخلافة الداعشية في سوريا والعراق عقب قيام الثورة السورية. إن ظاهرة "الدعوشة" التي ظهرت وترعرعت في سوريا والعراق مع اندلاع الثورة السورية هو مثال وتطبيق عملي دقيق لما كان يحدث في مرحلة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين والعباسيين.. هذه المهازل حدثت بالفعل بحق الشعوب المجاورة للعرب، وتقدست هذه الوقائع الإجرامية باعتبارها تشريعا دينيا إلى يومنا هذا ! وكأن تاريخ العرب صار دينا للشعوب المسلمة !

لقد أفاد الدكتور يوسف القرضاوي عندما سئل: ما هي الأدلة والأسانيد التي بني عليه موقفه من أن الجهاد للدفاع فقط؟ فأشار إلى ما قاله السيد رشيد رضا وما قاله الشيخ شلتوت في كتابه (القرآن والقتال) وما قاله الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (العلاقات الدولية)، وما قاله العلامة الشيخ محمد عبد الله الدراز في كتابه (مبادئ العلاقات الدولية في الإسلام) وما قاله الشيخ عبد الوهاب خلاف في كتابه (السياسة الشرعية أو الدولة الإسلامية)، والدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه (أحكام

الذميين والمستأمنين في شريعة الإسلام) وما قاله د.وهبة الزحيلي في كتابه (من أثار الحرب في الفقه الإسلامي) وآخرين من علماء العصر، وكذلك العلماء القدامى، فما إصرارنا على أننا نريد مقاتلة العالم، وبم تقاتلونهم! فنحن لم نصنع سلاحا حتى، والذين قالوا أن القتال للهجوم، لماذا قالوا هذا؟ قالوا لنزيل القوى الطاغية التي تقف في وجه الدعوة،والآن لا يقف أحد في وجه الدعوة، لماذا نقاتل الناس؟

لكن السؤال الآن؛ ما هي المرجعية التي تستند عليها هذه الجماعات الإرهابية حول العالم؟ وما السبب في كون كل الجماعات الإرهابية تتحدث باسم الإسلام؟ وهل يوجد في جنبات العالم تنظيمات إرهابية تتحدث باسم المسيحية؟ وإذا كانت أعداد القتلى الذين وقعوا على مدار التاريخ بيد مسيحيين وصلت إلى ما يقارب ١٨٠ مليون إنسان، فهل كانت عمليات القتل هذه تتم بعقيدة يتمسك بها القاتل كما يتمسك المسلم؟ وإذا كان اليهود يقتلون العزل الفلسطينيين رجالا وأطفالا ونساءً وشيوخا، فهل تتم عمليات القتل البشع هذه باسم الدين اليهودي، وهل يلقي اليهود أنفسهم بأحزمة ناسفة بين الفلسطينيين طمعا في الجنة؟ أم باسم السلطة والأمن والسياسة الصهيونية؟ ومعروف أن الموساد الإسرائيلي هو أكفأ آلة قتلٍ واغتيالٍ في التاريخ، فهل تتم عملياته الاغتيالية باسم الدين أم باسم السياسة؟ لماذا يتم ذبح إنسان باسم الله؟ هل شرَع الله ذبح إنسانٍ قربانا له؟ لماذا تقوم الحروب في كل العالم باسم السياسة والاقتصاد والاحتلال والاستعمار، بينما تقوم حروب المسلمين باسم الدين برغم وحدة الهدف في كثير من الأحيان؟

هل يتراجع فقهاء المسلمين عن الفتوى بقتل الكافر لمجرد كفره؟ وقتل المرتد عن دينه؟ وهل يتراجع فقهاء المسلمين عن الفتوى بفرضية الهجوم على الشعوب المجاورة وتحصيل الجزية وإلا قتلهم وسحلهم وتشريد أطفالهم وأسرهم واستعباد واستحلال أعراضهم إن رفضوا دفع درهم جزية على كل رأس؟ هل يتراجع فقهاء المسلمين عن مبدأ وجوبية قتل الناس أو تحصيل الجزية منهم، هل يتراجع فقهاء المسلمين عن الفتوى بخطف النساء والأطفال وبيعهم في أسواق النخاسة إذا رفض آباؤهم دفع الجزية ؟ هل يتراجع فقهاء المسلمين عن الفتوى بشرعية مصادرة أموال الناس وحرياتهم العقائدية؟ هل يتلاشى العصر الذهبي للفتوحات الإسلامية ويذوب في عداد الخطأ التاريخي؟ فالفتوحات العربية ما هي جزء من تاريخ العرب وليست من الدين الإسلامي، فلماذا ندرسها نحن المصريين مثلا كتبنا ومدارسنا؟

فمن أجل بناء تلك الدولة أريقت الدماء كالأنهار، ولم يستوقف ذلك أحدا، بل أصبحت كل تلك الدماء مبررة طالما ظلت الدولة قائمة! لو قمنا بعمل استطلاعا في الشارع العربي عن أكثر ما يميز منطقتنا العربية؟ لوجدنا أن معظم الإجابات سوف تتحدث عن الأزمات والحروب والنزاعات الطائفية والحركات الإرهابية والنفط والفساد المالي والإداري والأخلاقي والأنظمة الديكتاتورية وغيرها من الأحداث الساخنة التي تتميز بها منطقتنا حاليا. ولهذا اشتعلت ثورات الربيع العربي في أرجائه شرقا وغربا وانطفأت على يد الإرهاب! ليبيا واليمن وسوريا ، وغطت الديكتاتورية الدول التي فلتت من الإرهاب بتخويف شعوبها من الإرهاب كما حدث في مصر! فما السبب؟ وما هي المرجعيات الفكرية لهذه الجماعات المسلحة؟ أليست فلسفة الجهاد في الإسلام؟

وفي خطوة مفاجئة أعلن وزير الدفاع السعودي عن تشكيل تحالف إسلامي دولي عسكري لمقاومة الإرهاب، وأطلق عليه التحالف الإسلامي لمقاومة الإرهاب، وأعلن عن انضمام أكثر من ثلاثين دولة مسلمة للتحالف، وقد حدد النظام السعودي أربعة عشرة منظمة إرهابية تهدد مستقبل أمة الإسلام على رأسهم جماعة الإخوان المسلمين في مصر وتنظيم القاعدة بكافة فروعه، وبوكوحرام بنيجيريا وجماعة أبو سيفين بالفلبين وطالبان بأفغانستان وحزب العمال الكردستاني جنوب شرق تركيا وأنصار بيت المقدس في سيناء وحركة الشباب الإسلامي بالصومال وداعش بالعراق وسوريا وجبهة النصرة سوريا[٢]. ولم تجد المحاولات العسكرية نفعا في هذه النطاق لأن الإرهاب ينتحر بعقيدة دينية غايتها الانتحار طمعا في الجنة، فعاد حكام السعودية من جديد للاتفاق مع حلفائهم الأمريكان على تغيير المناهج الدراسية الشرعية التي قامت على المذهب الوهابي المتعصب، ذلك بعدما اكتشفوا أن الحركات الإرهابية التي تهدد أمن العالم باسم الإسلام هي وليدة تلك الأفكار المتعصبة في فهم الإسلام، ووليدة تلك الكتب الفقهية الموروثة من العصور الوسطى.

فسمات العصر تختلف عن كل عصر؛ فعبر العصور السابقة كان معيار الكفاءة العلمية هو السن وكثافة المعلومات والخبرات المتراكمة عبر الزمن، أما في عصرنا فقد تغير الحال وأصبح المعيار الحقيقي للكفاءة هو القدرة أيا كان مقدار العلم والعمر، فكانت فيما سبق لا تطرح الأسئلة إلا من الفقهاء الذين عبأوا أدمغتهم بآلافٍ من الكتب والمخطوطات، أما اليوم صار من يطرح السؤال هو من يفكر أيا كان مقدار علمه أو سنه. المفكرون لم يعودوا مثل الماضي كبارا في السن ذوي شعرٍ أشيب

٢ـ https://www.sasapost.com/opinion/the-political-view-for-resistance-terrorism/

وظهرٍ منحني، بل صار المفكرون هم الشباب، هم دعاة الحضارة والفكر والعمل والبناء والإنتاج، صار أعلام الفكر من الشباب ممن لم يتجاوزوا الأربعين من أعمارهم، وهذا ما يؤكد أنه فكرٌ حقيقي وليس مجرد تراكم لخبرات الزمن، فالفرق شاسع، إذ أن خبرات الزمن ليست فكرا جديدا وإنما خلاصة أو ملخص فقط لعمر مديد أيا كانت صحة المحتوى وجودته، فالخبرة هي المختصر والعصارة، وإذا كان المنهج الفكري كله مشوبٌ بالخلل والانحراف جاءت الخبرة والعصارة النهائية مشوبة بذات القدر من الانحراف والخلل، أما الفكر فأمره مختلف إذ أنه لا يتوقف على سن معينة، فالله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ولذلك عندما نقول اليوم أصبح القلم بيد الشباب فهذه يعني أنه بالفعل فكر وليس مجرد خبرة فاسدة تراكمت بفسادها عبر الزمن، ومعنى كونه فكر يعني أنه جديد وقائم على الفضول العقلي ويهدف إلى إعادة البناء لا الاستمرار على النهج التقليدي. فصرنا اليوم نسمع الكثير من أقلام الشباب تتساءل: هل كانت الفتوحات الإسلامية غزوا استعماريا وجرائم حرب؟ وهل كانت غزوات الرسول حقا غزوات؟ أي حروب هجومية بمعنى الغزو الثابت لغويا على مدار التاريخ؟ ولو كانت حروب النبي عليه السلام دفاعية جميعها فلماذا استحب الفقهاء أن يطلقوا عليه مسمى غزوة؟ هذه الاسم الذي يوحي بمعنى العدوان برغم أن النبي لم يكن أبدا عدوانيا حتى في معاملته لأعدائه؟ ولماذا يُصر فقهاؤنا على إقناعنا بأن قتل الآخرين واجب وفرضٌ علينا وعبادة لله؟ هل يكون العدوان فرضا وشعيرة دينية؟

ولماذا يقف فقهاء عصرنا دوما في موقف الدفاع عن الإسلام؟ هل لأنهم يتعرضون لهجوم؟ فممن هذا الهجوم؟ وهل أن هذا الدفاع يأتي على حق؟ أم أن الهجوم هو الحق؟ وبماذا يتمسك الفقهاء؟ هل يتمسكون بالقرآن ومبادئه والتطبيقات العملية للنبي عليه السلام وما صح سنده إليه؟ أم يتمسكون بالتراث الفقهي في جملته؟ فالفارق شاسع. ولماذا يفرض علينا الفقهاء الصمت حيال ما وقع من فتنٍ وخلافات في عصر المسلمين الأوائل؟ أليس التاريخ ملكٌ للجميع ؟ ثم أنهم إذا كانوا على حقٍ فلماذا يتعمدون التورية وغض الطرف عن حقبة معينة من فترات التاريخ ؟ ثم يقولون لنا أن من عاشوا فيها هم أولياء الله الصالحين؟

هذه التساؤلات ما كانت تطرح من قبل على لسان شباب الفقهاء ولا غيرهم، لكن العصر اختلف وأصبح الشباب هم رواد العمل والمعرفة بما امتلكوه من وسائل عصرية تفوق ما امتلكه السلف ملايين المرات. صار الشباب والمدونون العرب يملؤن الآفاق بفكرهم وتساؤلاتهم مع احتكاكهم المباشر

بالحضارات المتقدمة، ولم تعد هناك خشية عليهم من رياح التغريب إذ أنهم الآن وقد امتلكوا شخصياتهم الفكرية والقومية التي تؤهلهم لبناء نهضة عصرية حديثة، دون الاعتماد على موروث السلف العربي الذي لا يثمن ولا يغني من جوع مقارنة بالانفتاح الثقافي للحضارات والثقافات. وأصبحت الترجمة أسرع مما نتخيل سواء على المستوى الرسمي والمؤسسي أو على مستوى الأفراد. فاليوم هناك شريحة من المثقفين وشريحة من الثقافة والمعرفة تسود العالم كله دون تفرقة، هذه الشريحة المعرفية في ميدان العلوم الطبيعية والسياسية والإنسانية، صارت مشتركة بين جميع المثقفين من كافة شعوب العالم دون تفرقة، وهو ما يعني تعاصر في الفكر دائم ومستمر طول الوقت وتواصل فوري غير معهود على مدار التاريخ، وهذا يحتم فتح الآفاق أمام الشباب لأنهم أصبحوا أسبق من كبار العلماء في الوصول إلى المعرفة بما تملكوه من أدواتٍ عصرية (اللغة – وسائل اتصالات رقمي فائقة السرعة).

ففي مطلع القرن الماضي لم يكن هناك شيء يمكن تسميته بالرأي العام العالمي، لأن وسائل التواصل بين الشعوب وتبادل الثقافات والآراء كانت منحصرة في هجرة الأشخاص من دولة لأخرى عبر الحدود والبحار لعرض القضايا، أما في عصرنا، خاصة بعد الثورة التكنولوجية في وسائل الإعلام وظهور الراديو وشبكات التلفزة الإخبارية أصبح من السهل تواصل الشعوب ذاتها مع بعضها وتبادل الآراء حول القضايا التي تعرضها الصحافة الجديدة ذات الطابع العالمي، ولم تعد إمكانية التواصل قاصرة على الحكومات فقط. ففي تسعينات القرن الماضي، بينما كانت وسائل الاتصال الرقمي تنمو وتنتشر بسرعة درامية، بدأ اصطلاح الفضاء الإلكتروني cyberspace يطفو على السطح للتعبير عن تلك البيئة الافتراضية المتصلة عبر العالم فيما شكل مساحة للحوار الفكري تسع العالم كله في ذات الزمان دون مكان، وتتدفق عبرها كمياتٍ هائلة من المعلومات خلال وقتٍ وجيز، فلم يعد البحث عن المعلومة بتفقد أرفف المكتبات وتفقد الكتب والمخطوطات ونفض التراب عنها كما كان في السابق بل أصبحت الغاية تتم بالضغط على الخط الساخن، وأصبحت كافة وسائل العلم متاحة من خلال الملاحة الإلكترونية، فتحولت حلقات العلم وفصول الدراسة من دور المتلقي إلى دور المحاور المناقش بكل حرية مما فتح آفاقا فكرية جديدة، خاصة بين جيل الألفية الجديدة من الشباب المهووسين بالكمبيوتر والفكر والثقافة، وبالتالي لم يعد من المجدي غلق الباب وتكميم الأفواه عما حدث في عصور الإسلام الأولى وفصله تماما عن مبادئ وقيم الإسلام؛ فالمجتمع العربي بعد رحيل النبي عليه السلام، لم يكن نموذجا مثاليا للإسلام بل عاد ليباشر حياته بطبيعتها الاجتماعية.. خاصة وأن

الفكر الديني لم يعد وظيفة الفقهاء حصرا وإنما أصبح حق كل مفكر. وإلا انعزلت المعرفة الدينية عن حياة المجتمع كما حدث في أوروبا حاليا.

أصبح عجز الفقهاء عن الرد المقنع والمريح للعقل وتمسكهم بموروثاتهم عن السلف حاجزا منيعا بين الدين والمجتمع المعاصر وباعثا ومحفزا للإلحاد والشك لدى الكثير من الشباب العرب، هذه الظاهرة التي ظهر رنينها في العقود الأخيرة ولم يجد الفقهاء بدا من مواجهتها سوى بدعوات التكفير والارتداد عن الدين وفتاوى القتل وتحليل الدم، فعبر تقديس التراث الديني، يتم هدم الإسلام باسم الإسلام، وكيف يمكن أن يكون الإسلام صالحا لكل زمان ومكان، كما نعتقد، ثم نتقيد بآراء واجتهادات زمان ومكان محددين؟هذه الظاهرة إنما نشأت بسبب التبريرات المعوقة من الفقهاء ومحاولاتهم الدءوبة في التورية على صفحات التاريخ وتكميم الأفواه عن التحدث في حقبة من حقبه مؤثرة في منهجهم الفكري، إذ أنهم اعتبروا تاريخ الصحابة والتابعين نموذجا مثاليا للتطبيقات العلمية للإسلام يجب التقيد بها، ثم عجزوا عن تبرير الجانب الآخر من خلافاتهم وأخطائهم التي دفعتهم لقتل بعضهم البعض، لهذا آثر الفقهاء الصمت عنها. فلا يوجد على وجه الأرض من دينٍ شكلت بعضا من نصوصه مادة ووسيلة ومرجعية للإرهاب والقتل المتوحش كما شكلت نصوص الإسلام، ولكن هذا لا يعني أن المقصود هو الإسلام بقرآنه وسننه ومبادئه، ولكن ما سطرته أقلام الفقهاء وما شكلته عقول الأتباع بمرور السنين مع أن الفرق شاسع بين الدين كمنهجٍ فكري وعقيدة وبين من حسبوا عليه من البشر !! من الأوائل والتابعين والسلف ومفكرين ومتنورين وعلمانيين وحداثويين ومن عامة الناس.

وكما يقول الدكتور مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا:" مررت بوقت شعرت فيه بارتباك بشأن الإسلام وتعاليمه، فعندما كنت أدرس موضوعات علمية في الجامعة، وجدت أني أشكك ببعض تعاليم الإسلام. يطالب الإسلام المؤمنين، أكثر مما يطلب أي دين آخر، بالقبول بأي شيء بوصفه من العقيدة الجوهرية التي لا يمكن مناقشتها، وهذا ما يقوله دارسو العلوم الشرعية على الأقل، وما عليك سوى الإيمان بما تعلمته وعدم طرح الأسئلة، لكن بوصفي عالما، تعلمت طلب الدليل في كل شيء وبدا أن الذي وجدته في العلم مناقض في الظاهر لتعاليم ديني في حالات كثيرة.. أحسست بالتشويش والارتباك، لم أقو على رفض الإيمان، لكن ما لاحظته لا يفسره الإسلام وهو دين أؤمن به.! وأبدى الأساتذة الذين علموني الدين معارضة قوية لمفهوم التعليل العقلي أو تحكيم العقل في شؤون الدين، وأرادوا مني الإيمان فحسب، أرادوا مني في الواقع القبول بما قالوه لأنه كلام الله وليس من حقي أن أجادل،

وتوجب عليَ الإيمان ببساطة. لكن بسبب ميلي إلى طلب تفسيرات رفضت مجرد الإيمان، لاشك في أنه يتعين أن يكون كلام الله منطقيا ومستندا إلى المنطق. فمحال أن يكون الدين مجرد أداء شعائر، ويتعين وجود سبب لكل شيء، لأن الله أعطى الإنسان القدرة على التفكير وهو يعني البحث عن السبب ولا يمكن انتفاؤه في إيماننا.. أصبح إيماني أقوى من أي وقتٍ مضى لأني عرفت الآن ما لم يعرفه المسلمون العرب الأوائل، وهو قدرة الله أكبر بكثير مما اعتقدوا، وأنها تمتد ملايين السنين في الزمن، وأنها تحكم كونا هائل الحجم على نحو يفوق التصور. لا يمكن للعلم إنكار قدرة الخالق، كما لا يمكن العلم الحلول محل الإيمان، لذلك ليس في تعلم العلوم ما نخشاه، ولا يمكن أن تقوض دراسة العلوم الإيمان، بل إنها تقويه في الواقع، لذلك لا سبب يمنع المسلمين من دراسة العلوم. أنا أعتبر هذه الحقيقة على قدر عظيم من الأهمية لأن أحد أسباب تخلف المسلمين هو جهلهم في المجال العلمي ، ومع أن عزو جميع الظواهر إلى الله صحيح ، لكن دراسة " الكيفية " التي يشرحها العلم شرط لتمكننا من تسخير ما خلقه الله في تحسين أوضاعنا".

ويتضح من هذه الفقرة المقتبسة من مذكرات الدكتور مهاتير محمد أن التفسيرات الخاطئة للقرآن هي ما أوقعه في براثن الشك والريبة، إذ وجد بأن الإسلام يأمره بما يخالف العلم والمنطق في بعض الأحيان، فيقول: " حتى إني عجزت وأنا صبي عن فهم سبب تخلف الدول الإسلامية وضعفها مقارنة بالدول الغربية، ولا يمكن عزو ذلك إلى تعاليم الإسلام . إن التعاليم الصحيحة هي المذكورة في القرآن وليس في تفسيرات بعض من تلقوا تعليما شرعيا... ثم يقول" الإسلام دين متسامح، لكن وكما قلت، بعض المفسرين المطلعين على تعاليم الإسلام لا يروق لهم ذلك. يريد هؤلاء وأتباعهم جعل الدين عديم التسامح وجامدا وصارما. وهذا ما يصح خصوصا في الموقف من غير المسلمين. إنهم متحمسون لفرض الشعائر والقوانين الإسلامية على غير المسلمين بالقوة إذا أمكن، وهذا لا يحبب الإسلام إليهم، ولذلك يزداد رفضهم للإسلام بشدة، وهي صفات مناقضة لتعاليم الإسلام، شوهت سمعة الإسلام وحالت دون انتشاره. لسوء الحظ هناك عدد من المسلمين " المثقفين" الذين لا يعجبهم التسامح الذي دعا إليه القرآن الكريم. إنهم يحبون أن يروا الإسلام دينا صارما وقاسيا وعنيفا تجاه الأديان الأخرى"[٣] .

[٣]ـ الدكتور تون مهاتير محمد إسكندر رئيس وزراء ماليزيا الأسبق في مذكراته التي نشرها عام ٢٠١١ بعنوان (الطبيب في البيت)، وترجمها إلى العربية السيد أمين الأيوبي بعنوان (طبيب في رئاسة الوزراء) ونشرتها الشبكة العربية للأبحاث والنشر عام ٢٠١٤ ، تضم المذكرات (٦٢) فصلا. ومما لفت نظري الفصل السادس والثلاثين منها بعنوان "الإسلام والأسلمة"

إذن؛ هناك نقطتان جوهريتان هما السبب المباشر وراء التصادم العنيف الذي حدث في منتصف القرن العشرين، حيث تصادم التراث مع العقل، ولذلك ظهرت الكثير من الاتجاهات الفكرية المعارضة للدين ليظهروا في الساحة بعناوين ومسميات مختلفة تدور جميعها تحت موضوع التنوير وازدهرت حركات الإسلاموفوبيا وامتلأت الشبكة العنكبوتية بمواقع ومدونات بعناوين واضحة للملحدين والعلمانيين والمشككين والمتشككين. وفي المقابل انتعشت حركة الإرهاب والعنف الديني، وتجمد دور المؤسسات الدينية الرسمية عند حدود الحفاظ علي تراث الأمة وثوابتها لتصارع البقاء وتتحدي كثيرا من العقبات مع إصرارها علي اجترار أفكار السلف. والغريب أن الفئة الملحدة هي الأكثر إنسانية وتسامحا من غيرها، وإنما وقع الشك والريب في قلوبهم بسبب المرويات التي أساءت إلى الدين وشوهت مبادئه.

فلم تعد رُخصة التفكير حصرية على من حازوا إجازة من مشيخة الأزهر كما كان حالهم في السابق، صارت رخصة التفكير يملكها كل ذي عقلٍ حتى أن المفكرين والمثقفين دينيا من الشباب احتلوا ميدان الدعوة عبر وسائل الإعلام وتفوقوا على المتخصصين الأزاهرة في فكرهم وخطابهم الديني وطرق العرض المبتكرة غير المجترة من التراث. ومن ثمّ تكون صيحات تجديد الخطاب الديني دون النظر في أصول القواعد الفقهية وحيثياتها وأسانيدها التاريخية محض عبثٍ مثيرٍ للسخرية، وفي النهاية رجحت كفة المفكرين والمثقفين مقارنة بحماة التراث الذين ما زالوا على قناعة بأن شهاداتهم تمنحهم وصاية على عقول الناس، وهم من يسمحوا للناس فيما يفكرون وكيف يفكرون.. هذا العصر انتهى لأنه محض خداع يسعى لأطفلة الناس واعتبارهم قاصرين عقليا عن إدراك الحقائق التي سيحاسبون عليها يوم القيامة، وما عليهم إلا أن يقفوا صامتين في دور المتلقي فقط، مع أن هؤلاء حماة التراث لن يقفوا للمحاسبة نيابة عن هؤلاء الناس أمام الله يوم الحساب بل سيسرعون للتهرب والتبرؤ منهم ومن تبعيتهم.

ونظرا لأن العلم والتكنولوجيا يزدهران في العالم الحديث، فإن الغالبية العظمى من شباب المسلمين ظلوا يرزحون تحت وطأة الظلامية والتخلف الحضاري، وهذا ما يدفعهم لإيجاد العزاء في الأوهام من حقبة ماضية غير حقيقية يطلقون عليها مصطلح (العصر الذهبي للعلوم الإسلامية) أو عصر العزة الإسلامية، وهي عصر الفتوحات، دون أن يدرك أحد أنها ما كانت إلا جرائم حربٍ ضد الإنسانية قامت من أجل النهب والسلب وخطف الأطفال والنساء واغتصاب الفتيات واستعبادهن كما

كل الشعوب التي مارست الغزو والاستعمار في العالم، وأما الأقلية من الشباب المثقف الواعي من جيل الثورة الرقمية فقد انضوى تحت لواء الحضارة الغربية المبهرة وخلع رداء التراث والماضي، مما أدى إلى القطيعة مع الفكر الديني. وعلى الجناح الآخر نجد ما تفعله السلفية الجهادية وما تفعله (داعش) اليوم هو تكرار (مهذب)أفزعت به العالم بتكرار ما كان يفعله المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين في العصور الوسطى، وسيظل المسلمون يدفعون الثمن في حمامات دم متواصلة، طالما ظل شبابهم مشدودين إلى ماض مكتظ بالدم بدلا من استشراف المستقبل ؟

ونعود للسبب المباشر وراء هذه الفورات الفكرية والتصادمات العنيفة لنجد أن التفسيرات الخاطئة لآيات القرآن واعتماد نصوص المرويات دون التحقق من صحتها هو ما دفع الشباب على التمرد والثورة على كل ما هو موروث ديني، إضافة إلى التعتيم المستمر على حقب التاريخ الإسلامي ومنع التحدث في تفاصيلها، ومع ذلك اعتبارها قدوة ونموذجا للإسلام ومبادئه في ذات الوقت!. وهذا ما أدى إلى ظهور فئات من المثقفين والمفكرين تعاند كل ما هو موروث، وتحاول التملص من كل ما هو ديني وتلجأ إلى الثقافة الغربية المادية باعتبارها حصن العقل وملاذ الإنسانية، مع أن الإسلام لم يتناقض مع العقل في لحظة واحدة، ولم ينتهك مبادئ الإنسانية، ولكن الفقهاء هم من عجزت عقولهم عن استيعاب وهضم مبادئ الإسلام فجعلوا من تاريخ العرب وأعراف مجتمعاتهم قدوة تشريعية للإسلام باعتبارهم سلف الأمة !.

****



الإضاءة الثانية

مسقط رأسي بين الأجيال

أزمة الشرك بالله في تبعية السلف

إن الاعتماد على العنصر الشخصي في رواية الحديث يضع النص ذاته في موضع شبهة لأنه يعتمد على فكرة ثقة الخلف في السلف، وهو ما يتصادم مع فكرة العقل والمسئولية أمام الله، حيث أن علاقة الثقة بين الخلف والسلف محل نظرٍ شديد، فقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة في القرآن الكريم، وكانت في كل مرة تأتي الإشارة في موضع الذم لعلة وحيدة هي تقديس الخلف لمنهج السلف وثقافتهم وتقاليدهم الدينية المألوفة والموروثة دون إعمال للعقل. مع أن العقل هو آلة التمييز وهو موطن المسؤولية، فالله يحاسبنا يوم القيامة على ما أوتينا من عقول قادرة على التمييز، وما أخطأ السلف في فهمه وطبقناه نحن على خطأ فلن يسأل الله السلف نيابة عنا في هذا الخطأ، ولن يتطوع السلف للمحاسبة وتحمل المسؤولية نيابة عنا أمام الله، لأن كل عقل مميز هو مسئول أمام الله عن عبادته وتصرفاته..

لكن هكذا يختل ميزان العقل وفقا لتغيرات الحياة الاجتماعية، فلو نظرنا بداية إلى الجانب السيكولوجي لشعب من الشعوب سنجد سلطة الآباء تتعاظم تدريجيا على الأبناء بمرور الزمن، ثم تهدأ وتذوب تدريجيا خلال عصور متتالية لتستقل شخصية الأبناء عن أفكار وتقاليد ومسلمات الآباء وتبدأ في بناء ثقافتها وأفكارها بخبرة ذاتية. ولنقرأ الآيات التالية بتأمل وتمعن.. لنبدأ في التفكر وتفكيك الآيات وتوضيحها مع التركيز على آية البر والإحسان بالوالدين ؛

" ووَصَّيْنَا الإنسانَ بوالِدَيهِ حملتْهُ أمُّهُ وهْنًا على وهْنٍ وفِصالهُ فِي عامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لِي ولِوالِدَيْكَ إليَّ المَصِيرُ (١٤) وإن جاهَداكَ على أن تُشْرِكَ بي ما ليْسَ لكَ بهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفا واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إليَّ ۚ ثمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأنَبِّئُكُم بِما كُنْتُمْ تعْمَلونَ (١٥) / لقمان

ولنبدأ في تحليل الآيات: ففي الآية الأولى: يبدأ الله بذاته الحديث عن الوالدين وفضلهما وفضل الأم في الحمل والرضاعة وينصحنا الله أن نشكره ونشكر الولدين، وفي آخر الآية يذكرنا بأن مصيرنا جميعا إليه، أي أن حساب الآباء كما حساب الأبناء أمام الله سواء عن أعمالهم في الدنيا.

وفي الآية الثانية: ينتقل بتوضيح أخطر أنواع الشرك الذي قد يتعرض له الإنسان في حياته (التبعية فيما ما ليس لك به علم)، وكان الفقهاء في السابق يقنعونا بأن المقصود بالشرك الذي لا علم لنا به هو عبادة الأصنام في حال كون الآباء وثنيين، وهو ما يحصر تطبيق هذه الآية في حدود استثنائية قليلة للغاية، ويقولون لنا " أطع والديك ما لم يأمراك بالشرك بالله" فننظر حولنا ونتساءل، وهل ممكن لأحدنا أن يأمره والده بالكفر ؟ !

لكن الواقع مختلف تماما، فكلمة (ما ليس لك به علم) تقصد كل ما لا يفهمه الإنسان وليس عبادة الأصنام وهي الصورة التقليدية للشرك عند العرب قديما، إنما الشرك مفهومه أوسع ويبدوا في اتباع الآباء في نهجهم وفكرهم وتقاليدهم ومسلماتهم دون وعي أو فهم، فقال وإن جاهداك علي أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا، أي لا طاعة لهما عندما يأمران بالشرك به، لأن رابطة الأبوة والأمومة هي أقوى الروابط على الإطلاق ومن شأنها إذا تمسك بها الإنسان أن يتبعهما في الشرك، وهي من شأنها أن تمكن الآباء من غرس أفكارهم ومسلماتهم وتقاليدهم في عقول الأبناء بحالتها ودون هضمها، ولأن الطفل يتعرف على والديه قبل أن يتعرف على الله، فالمعطيات الطفولية تقدم رابطة الأمومة والأبوة أقوى من رابطة العبادة لله أو سابقة عليها، بل إن سيجموند فرويد تصور أن فكرة العبادة والبحث عن الله هي ظاهرة غريزية نابعة في الأساس من رابطة الطفل بوالده حينما كان صغيرا، ثم بعدما كبر الطفل بدأ البحث عن بديل ! وكان البديل في نظر فرويد هو عبادة الإله الخالق!.. على كل حال فهي رابطة قوية ومتينة، ولهذه الرابطة مخاطر في التسليم المطلق لها بالأفكار والمسلمات..

ولذلك ينصحنا الله بالفصل بين شكرهما واتباعهما في المنهج، فالإنسان لا يعيش عمره على أفكار ومشاعر طفولية مرتبطة بالآباء والأمهات ولا بد أن تكبر أفكاره ويستقل عقله، ولا بد أن تكون لنا استقلالية في العقل، ليحدث فطام فكري تابع للفطام من الرضاعة، فقال فقط صاحبهما، أي ابق على صلة الرحم والصداقة والبر بينكما، فالخلاف في الفكر والمنهج لا يفسد للود قضية، فينبغي الحفاظ على الصداقة والآلفة بين الأسرة ، دون أن يخرج الأبناء نسخا تقليدية لشخصيات الآباء.

هذا التوجيه الإلهي (إرشاد + تحذير) كالذي يقول لك افعل كذا ولا تفعل كذا. يعني أعبد الله ولا تعبد والديك. ثم تسأله وماذا أفعل بوالدي؟ فيرد عليك مباشرة، أحسن إليهما. لذلك جاء ذكر الوالدين مباشرة بعد التنبيه إلى أهمية توحيد الله وتخصيصه بالعبادة. وليس الأمر متعلقا برفع شأن الوالدين إلى جوار الله، أو اقتران الوالدين بطاعة الله، لأن اقتران العبادة لله كانت أولى أن يذكر فيها الرسول الهادي والمرشد لا الوالدين، إنما اقتران الإحسان للوالدين بعبادة الله هنا تمييز فقط يتبعه تحذير مما قد يعترض توحيد الله من شرك بسبب التمسك بالمسلمات الفكرية للآباء. لقد ضرب الله أكبر صنم لدى العرب لكن بقيت فيهم الجاهلية تقودهم لعبادة أصنامهم القديمة، وهي التراث الاجتماعي الذي قيد عقول الأبناء ومنعهم عن التفكير فتأخروا عن ركب الحضارات حتى صاروا في

ذيل الأمم، مستعبدين سياسيا واقتصاديا.. وطالما تمسك الأبناء بتبعية الآباء، فرضت عليهم التبعية للغرب من الشعوب المتحضرة، وعاشوا حياتهم في ظلها تبَع[٤].

وعندما نتأمل في حياتنا مجتمع يعاني من مشاكل معقدة وتخلف إلا وكان مجتمع مادي مهما أدعي أنه الأقرب إلي الله؛ كما كان مجتمع العرب، ولكنهم كاذبون هم الأقرب لما وجدوا عليه آباءهم بدون أدني تفكير أو تفكر.. فهم يخشون ويخافون من التفكير ومن الأحرار الذين يفكرون لأن الحر يسأل ويبحث ويتبع عقله ويتحرى الأدلة والحجج بنفسه .. وعندما يتحدث يخرج الكلام من عقله وهو مقتنع به كخبرة عقلية، وليس مجرد مسلمات نقلها عن غيره من الآباء والأجداد.

غير أن الله في هذا الموضع ذكر الوالدين وحذرنا من الشرك معهما في الآية التالية، فهل أن كل أو أغلب العلاقات أو الخلافات بين الآباء والأبناء تكون حول الشرك بالله؟ وهل هي حالة متكررة وظاهرة اجتماعية مستمرة كي يحذرنا منها الله بكل هذا الاهتمام ويحذرنا منها مرتين متتاليتين عقب التوصية ببر الوالدين؟ ولماذا يقول "وإن جاهداك" فهل أن الغالب أن يجاهد الآباء أبناءهم للشرك بالله ؟ .. أو لماذا يقرن الله بين البر والإحسان بالوالدين وبين التحذير من الشرك به، فهل يكون الأمر بالبر والإحسان مطلق في كل زمان ومكان ولكل أب وأم، بينما يأتي النهي القرين (تحذير من الشرك) محصورا في حالة استثنائية هي صورة إصرار الآباء (في قريش قديما) على ألا يؤمن أبناءهم بدعوة محمد عليه السلام؟ هل يكون الأمر الأول مطلق زمانا ومكانا والثاني مقيد استثنائي زمانا ومكانا ومع ذلك يتكرر الاقتران في كل آية؟ بالطبع الأمر مختلف تماما عن عبادة الأصنام، وإنما هو تحذير من الله بشأن نوعية معينة من الشرك تتكرر في حياتنا الاجتماعية، وليس شرك بعبادة الأصنام، لأن الله لم يقل (وإن جاهداك على أن تكفر بي) مثلا، أو أن تعبد غيري، ولم يقل أنه عبادة أوثان، أو اتخاذ ندا لله كما كان حال قريش. فما هذه النوعية من الشرك التي طالما ذكر الله البر والإحسان بالوالدين وتبعها تحذير من هذا النوع من الشرك؟

هذه النوعية من الشرك هي تبعية الآباء في المنهج الحياتي بوجه عام دون وعي وإدراك، لأن رسالة الله إلى البشر هي رسالة عقول وتكليف، والتكليف مخاطب به كل إنسان على حده، وكل إنسان له عقل مميز فهو مكلف وسيحاسبه الله على هذا العقل والتكليف المقابل له، ولن ينفع التذرع

٤ـ مع التصرف من مقال بعنوان: "الشرك بالله في طاعة الوالدين – أحد أكبر مصائب الوطن العربي" للأستاذ عبد الرحمن مجدي منشور على الرابط التالي: http://knowlifenow.com/ .

بتبعية الآباء والأجداد في طريقة تنفيذ والاستجابة لهذا التكليف لأن التبعية معناها انعدام المسؤولية، فقبل أن يقول الله بأن كل إنسان مسئول أراد تذكيره بأنه ليس تابع. ولأن مشكلة التبعية تأتي في الأساس من جهة أواصر الصلة والرابطة الاجتماعية بين الأجيال وبعضها، لأن صلة الابن بوالديه هي غريزة نفسية قوية ومتينة متمثلة في الأمومة والأبوة وهي رابطة حميمية عاطفية، فأراد الله أن يحفظ الاتزان بين أمران غاية الأهمية، وهما البر بالوالدين والاستقلال عنهما في المسؤولية، لأن هذان الأمران بطبيعة الحال مقترنين في حياتنا، فقد فصل الله بينهما وأوضح أن للوالدين البر والإحسان وليس الطاعة، حتى أنه في كل مرة ذكر فيها البر والإحسان بالوالدين لم يذكر طاعة وإنما ذكر شكر أي أن محل الفعل هو الابن دون أن يكون هناك فعل معاصر للآباء لأن الشكر جاء على شيء قدموه سابقا، وعندما ذكر الطاعة ذكرها بصيغة النهي والتحذير ! وهذا النهي والتحذير للإنسان البالغ العاقل المكلف وليس الأطفال بالطبع. فقال، (وإن جاهداك.. فلا تطعهما)

يقول بسام ذو العشرين ربيعا: عندما كنت صغيرا ألعب مع أقراني علي مشارف القرية.. كنا كل يوم نذهب بعد العصر نستطلع ضوء الشفق الأحمر يمتد في أفق السماء قبل أن تغرب شمسه، كانت هذه أجمل أيام حياتي الساذجة.. كنت أرى والدي رجلا قويا مفتول العضلات، مثاليا جدا في تصرفاته... نموذجا للبطولة والشجاعة والقدرة ، وحلال الحلول... كلما استغربت شيئا في الحياة وأثارني الفضول سألته.. فكان يعطيني لكل سؤالٍ جوابه الشافي.. فكنت أتلقي العلم منه كما أتلقف من أمي كوب اللبن كل صباح.. كانت أخلاقه، تصرفاته، خطواته و تعبيراته قرآن يمشي على الأرض.. حتى إذا ما ضرب والدتي كنت أشعر أن هذا هو الحق والعدل... كان لصا فرأيت اللصوصية شجاعة وذكاء ودهاء ... كان كلما قبضت عليه الشرطة أذهب لزيارته في الحجز وأجده يسب ويلعن الضباط فعرفت أنهم جناة وملعونين... كان يسألني عن حالي ومدرستي، فعرفت أنه لا يهتم بأحد في حياته غيري.. وكان كلما خرج من السجن ضرب أمي لعتابها المستمر، فعرفت أن النساء حقهن الضرب والركل.. لأنه قدوتي ومثالي منذ أن عرفت هذه الدنيا، ولم يعلمني أحد شيئا ينفعني سواه، ولم أسمح لنفسي برؤيته غير ذلك..

وعندما كبرت وكبر إخوتي.. وأنهيت دراستي الجامعية... تغيرت ملامحي في الجامعة.. استقل فكري واستقلت شخصيتي وعرفت شيئا لم يقله لي والدي... عرفت أن اللصوصية جريمة... وأن الضباط هم حراس... وعرفت أن الضرب إهانة وإساءة .. صرت اعترضه عن والدتي.. "

في هذا المثال طرح بسام نموذجا عمليا لقول الله تعالى (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) فالشرك بالله هنا هو تبعية الآباء دون وعي وإدراك لأنه فساد للحياة والمجتمع، ولو كان بسام قد أطاع والده في سلوكه لكانت استمرت الكارثة الاجتماعية، ولن يكون مفيدا له أمام الله أن يقول هكذا وجد والده يضرب أمه أو هكذا وجد والده يسرق، وهكذا وجد والده يفكر..إلخ. ولذلك أمر الله بالبر والإحسان فقط مع الاستقلال في المسؤولية، والاستقلال بالمسئولية هنا جاء في صورة التحذير من الطاعة. فالله تعالى يقول {بَلِ الْإِنسَانُ علىٰ نفْسِهِ بصِيرة (١٤) ولوْ ألقىٰ معاذِيره (١٥) /القيامة. وقال تعالى: كُلُّ نفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)/المدثر. وهكذا نحن نرى فقهاءنا والصحابة والسلف خير قدوة طالما لم نستطع الخروج من بوتقتهم المعرفية والثقافية والنفسية.. طالما مازلنا نمارس أخطاءهم.. فهم بالنسبة لنا خير قدوة وخير مثل.. وطالما لم نغير في حياتنا فنحن نكرر حياتهم بأخطائها ولا يمكن أن ندرك ذلك بأي حال من الأحوال. فهذه طبيعة العقل البشري.

فالشرك بالله معني عميق جدا، وذات بعد اجتماعي فلسفي ونفسي، يكون في صورة أفكار وقناعات ومسلمات. ومسألة انتقال هذه الأفكار والقناعات من جيل الآباء إلى جيل الأبناء بحالتها دون المرور على فلتر العقل، فهو نوع من العطل في الحياة، وهو عطب عقلي؛ لأن الله خلق المجتمع البشري ككائن حي تنموا أفكاره وقناعاته بتعاقب الأجيال كما الشجرة تتجدد أوراقها وأغصانها في مراحل متتابعة حتى تصل في النهاية إلى الزهر والثمر، والله أراد أن تنمو مجتمعاته بالشكل الصحيح، لا أن تتوقف عن النمو أو تنمو بشكل منحرف، ولذلك يذكرنا دائما باستمرارية التكليف والتحلل من تبعية الماضي أو إلقاء تبعة المسئولية على الغير من السلف.

وتعالوا بنا نرجع لهذه الآية الرائعة في كتاب الله" وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥)/ لقمان .. ابحث قليلا في كتاب الله لتجد أن لهذه الآية آية أخرى تشبها في القرآن، قال تعالي (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ٨/العنكبوت.

الله يقول لك لا تشرك بي ما ليس لك به علم ؟ والملاحظ في كل مرة بعد الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما تحذير مباشر من الشرك !، وذات النوعية من الشرك في كل مرة أو ذات الصنف من

الشرك، وهو" ما ليس لك به علم" وتحديدا استخدم كلمة شرك وليس كفر مثلا لأن الكفر معروف بأنه إنكار وجود الله أو عبادة غيره، أما الشرك فله معانٍ أخرى، فهل نتوقع أنه قديما كانت هناك عادة أو عرف في المجتمعات أن الآباء يجاهدون أبناءهم ليبعدوا الأصنام؟ وهل الأمهات كذلك؟ ومن الملفت للنظر أنه جل وعلا يحذرنا من الشرك، هذا النوع من الشرك الناتج عن علاقة الأمومة والأبوة، ثم يقول في نهاية التحذير (فأنبئكم بما كنتم تعملون) ولم يقل (بما كنتم تعبدون) ! إذن هذا النوع من الشرك ينصب على فكر وعلم وعمل وليس مجرد عقيدة عبادة.. ثم لماذا تبع الأمر بالإحسان والتحذير من الشرك في كل مرة بعبارة (إليَ المصير أو إلي مرجعكم فأنبئكم)؟ فنحن سنقف سواء بسواء أمام الله يوم الحساب ولن يكون الآباء مسئولون نيابة عن أبنائهم.. وابحث وراء جملة ((ما ليس لك به علم)) ، ستجد آية آخري تفصلها وتشرحها وهي.. قال تعالي" وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا " /الإسراء.

يقول لك في البداية لا تقف؛ أي لا تقتفي أثر فلان في السلوك أو المنهج أو الطريقة التي تفهمها وبعقلك أنت، وقد يعني لا تتبع أو لا تتمسك بأسلوب أو طريقة أو مذهب، وذلك إجمالا في عبارة " مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " وبعدها يقول لك، التفسير، لماذا؟ لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا.. بدأ بالسمع والبصر لأنه بداية الإدراك.. فالسمع والبصر يشير للإدراك.. وفي الآخر ختم بالفؤاد أي القلب لأنه أعمق وأبعد مدى من الإدراك وهو موطئ استقرار القناعات، وفي كل مواضعه في القرآن يشير إلى الفهم والعقل.. إذن ما ليس لك به علم، هو ما لم تدركه بالسمع والبصر والفؤاد" أي تدركه بالعقل"، وتتحقق لديك الطمأنينة وراحة القلب وهي اللمسة الأخيرة في الإيمان أي فكرة القناعة، وهذا تنبيه وتحذير من الله بشأن رابطة الأبوة والأمومة وهي رابطة حميمية عاطفية من المعتاد أن تدفع الأبناء للتسليم بمعتقدات الآباء والأمهات دون وعي وإدراك، وهذه الفلسفة نجدها منتشرة في عالمنا العربي، ونجدها بكثافة في المجتمعات القروية، إذ نجد كل جيل ينشأ على الثقافة الجاهزة التي أرضعه إياها جيل الآباء والأجداد، فالمجتمع القروي ثقافته ثابتة لا تتجدد وأفكاره نمطية ثابتة لا تتجدد لأن كل جيل يحترم عقول الجيل الذي قبله ويتكل على مسلماتهم الفكرية والأقوال والأمثال الشعبية يتلقفها حتى دون وعي أو هضم.

إذن الشرك بالله هو فعل "ما لم تؤمن به بعقلك وإدراكك أولا، ثم ما يستقر في قناعتك، أي أنه عندما يأمرانك والديك بأمر أنت غير مقتنع به، وتراه خطأ فلا تفعله.. وإن فعلته فهو شرك بالله وظلم

عظيم لنفسك لأنك مسئول عن نفسك وعن أبنائك وزوجتك، هذا الشرك بالله هو أن تفعل شيئا وأنت غير مقتنع وغير مؤمن به وغير واعٍ بعواقبه لأنك ستكون مسئولا عنه أمام الله، ولذلك في كل آية تذكير بالمرجع والمصير، للآباء والأبناء على حد السواء لأنه لن يُحاسب الوالد نيابة عن والده، طالما كان الولد بالغ عاقل مكلف، ولن يُحاسب العالِم نيابة عن تلاميذه.

والرابط بين فكرة الشرك بالله وفكرة التبعية وطاعة الغير أو الآباء أو السلف، ليس فقط في المسائل العقائدية، ولكن في الأفكار الاجتماعية والمعاملات وحركة التطور الفكري في المجتمع لأن الله خلق المجتمع كائن حي ينمو جيل بعد جيل ولا يتكرر أجيال مستنسخة مطابقة للآباء في أفكارها وقناعاتها ومفاهيمها.. وهذا الرابط ليس من عندي وإنما من نص القرآن ذاته؛ لأنه شمل فعل الشرك في عبارة " ما ليس لك به علم" وعندما عدنا في آيات أخرى للبحث عن سياق استخدم هذه العبارة، وجدناها تنصرف إلى أمور اجتماعية وليست عقائدية، اجتماعية تتعلق بالفكر والإدراك والوعي العام في الحياة وليس مجرد السجود لصنم. وما يؤكد ذلك إلا مزيد من البحث حول عبارة " ما ليس لك به علم" كي نفسر ونفهم القرآن بالقرآن، وفي أي سياق تم استخدامها، وحبذا لو اقترن هذا السياق بتجربة عملية وليس مجرد شرح واستنتاج نظري لمدلول الكلمات.

وللحظ، وجدنا أن المشرع الإلهي قد استخدم ذات العبارة: في قوله : وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤)إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) /النور: المقصود بما أفضتم فيه هو حديث الإفك، حيث أن أحد المنافقين ألقى كلمة تسيء للسيدة عائشة زوجة النبي في شرفها، واتهمها بالتورط مع أحد الصحابة، وتناقلت الألسنة هذا الخبر وصدقته دون بحث وتمحيص ما أوقعهم في مهلكة كادت أن تودي بهم في العذاب العظيم، وذلك كله وقع بين الصحابة أنفسهم، ولم يفيقوا من الغيبوبة إلى أن نزل الوحي ليبرئ السيدة عائشة مما نسبوه لها عن جهل، وذلك نتيجة التبعية والتصديق والثقة العمياء في مصطبة القيل والقال، وكان مطلوبا منهم ألا يتحدث أحد إلا بما رآه بعينه أو أدركه يقينا، لا أن يتكئ على مصطبة القيل والقال وما يتناقله الغير شفويا..

فقد جاء تفصيل عبارة (ما ليس لكم به علم) في سياق تجربة واضحة كمثال لتفصيل المعنى عمليا لا نظريا فقط، فالمثال والتجربة العملية التي انطبقت عليها عبارة (ما ليس لك به علم) كانت هي

واقعة اتهام السيدة عائشة في شرفها وانتشار هذا الخبر بين الصحابة وفي المجتمع النبوي أجمع، والجميع صاروا يتحدثون فيه بالهمس واللمز سرا وعلنا بما يسيء للرسول وزوجته، حتى افتضح الأمر وشك النبي في الأمر وتجنب السيدة عائشة عدة أيام، ونصحها بالتوبة إلى الله إن كانت أخطأت، واشتكى إلى الله، فنزل الوحي ليبرئ ساحتها مما اتهمها به المجتمع، وهم أغلبية المجتمع الصحابي وليس كله بالطبع. وفي ذات الآية ينبه المولى عز وجل ويوضح لنا بجلاء أن المقصود بعبارة (ما ليس لكم به علم) هي أن يردد الإنسان كلام غيره دون أن يعقله ويتمعن فيه ويفحص مضمونه وأدلته العقلية المنطقية، لا مجرد الاعتماد على الثقة في أن فلان لا يكذب أو لم يتهمه أحد بالكذب ! فالأمر أبعد من ذلك لأن موضوع الثقة في شخص الراوي ليس محلا لتحقيق موثوقية الخبر من عدمه، وإنما مطابقة الوقائع واستخراج الدليل العقلي منها، فالله تعالى يقول ما كان ينبغي للصحابة أن يصدقوا كلام سمعوه وردده ألسنتهم دون أن يعقلوه ويتأكدوا من حقيقته حتى كاد أن يلقي بهم في التهلكة.

إذن نتساءل عن معنى قول الله (لا تشرك بي ما ليس لك به علم) فالشرك هنا ليس أمرا عقائديا ينصرف إلى العبادة، وإنما تصديق وتبعية دون وعي وتدبر وتعقل اعتمادا على ما قاله فلان. بل إن كل الأفكار والمعتقدات التي لا تقوم على دليل عقلي منطقي فهي شرك بالله؛ فالتشاؤم مثلا هو نوع من الشرك لأنه لا يقوم على دليل عقلي منطقي، فقد روى أحمد (٤١٩٤) وأبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨) عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله عليه السلام : " الطيرة شرك " وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

وروى أحمد (٧٠٤٥) والطبراني عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله عليه السلام : " من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك" قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال : " أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك" (حسنه الأرناؤوط وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٢٦٤).

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم: (التطير : التشاؤم ، وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي وكانوا يتطيرون بالطيور فإن أخذت ذات اليمين تبركوا بها ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا بها فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم، فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهي عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر فهذا معنى قوله

عليه السلام "لا طيرة " وفى حديث آخر "الطيرة شرك" أي اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك لأنهم جعلوا لها أثرا في الفعل والإيجاد ، والفعل لا يكون إلا بدليل) أ.هـ بتصرف.

في الواقع كل إنسان يولد فهو أثير لموروث أسرته الثقافي، فالطفل الذي يولد في إيران سيكون شيعيا، وسيقنعه أهله بأن الخروج عن طائفة الشيعة خروج عن الدين، وكذلك الطفل الذي يولد في السعودية، سيكون وهابيا بالفطرة والنشأة وسيقول له الأهل أن إعمال العقل خروج عن الدين، وحتما الطفل الذي يولد في إسرائيل سيكون يهوديا وسيخبره أهله بأن إعمال العقل خروج عن الدين.. وإذا رفض الطفل الهندي عبادة البقر سيقول له الأهل أن إعمال العقل خروج من الدين، وكذلك إذا فكر الطفل المسلم سيقول له الشيخ السلفي أن العقل مؤخر على النقل.. وهكذا تنفصل الأديان على ميزان العقل لتدخل عالم الخرافات من أوسع أبوبه. ومن الطبيعي إذا ذهبنا إلى شخص بوذي ندعوه إلى الإسلام بشرط ألا يعمل عقله في الدين سيقول؛ لا ، دعوني أعبد البقر أفضل طالما كل الأديان تستبعد العقل.. فرابطة التبعية هنا تحجب العقل حتى عن الخضوع لاختبار الله وتحتم عليه العيش في ظلام أبدي، لأن كل إنسان منا مطلوبا منه أن يأخذ فرصته لمعرفة الله بنفسه حتى يصل إلى القناعة الكاملة.

ولم تنج من العقاب أمة على وجه الأرض باتباع أسلافها دون التفكر في شؤونها وفي خلق الله، لأن الله يبتلي الأمم في دينها ، بل أن الله أرسل رسله كافة لمحاربة تبعية الشعوب لأسلافها وأجدادها، ولأن مقدار الانحراف عن المنهج في جيل معين قد يكون طفيفا لكن بتعاقب هذا الانحراف يتزايد مقدار الانحراف حتى وإن ثبتت درجة الزاوية الأصلية للانحراف في جيل الآباء، فالانحراف يولد انحراف مضاعف، وهكذا تضل الشعوب والمجتمعات بسبب تمسكها بنهج أسلافها دون تعقل ودون تحمل للمسؤولية ، فالصحابة مثلا بعد وفاة رسول الله ابتلاهم الله في أنفسهم فاقتتلوا وقتلوا بعضهم بعضا، لأنهم بشر ولم يخلق الله بشرا إلا ليبتليه ويختبره في دينه ليميز الخبيث من الطيب، ولذلك، فالحياة بدون ابتلاء من الله لا قيمة لها، لأنه يقول تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الملك.

وفيما يلي نسرد بعض الآيات التي ركزت على تحرير العقول من عبودية وتقديس الآباء وأفكارهم وتقاليدهم، أو عبادة الله وفق نهجهم، ومعروف أن المقصود بالآباء هنا ليس آباء النسب ولكن الأجداد والسلف بوجه عام، فمعظم الرسل الذين بعثهم الله إلى أقوامهم كانت مشكلة أقوامهم هي انحرافهم وضلالهم بسبب تبعيتهم لأسلافهم دون وعي ودون عقل، فلا نكاد نجد رسولا جاء إلى قومه إلا ليحررهم من معتقدات آبائهم وأجدادهم، فهذه مشكلة اجتماعية ونفسية انتشرت في الشعوب مثل الوباء، لدرجة أن كثيرا من الأقوام اقتنعوا بكتب رسلهم وأنبيائهم إلا أنهم فضلوا احترام معتقدات آبائهم واعتبروها ملاذا آمنا!

١. مثال: قوله جل وعلا واصفا المشركين: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) /البقرة . قال بعض المفسرون أن هذه الآية نـزلت في قوم من اليهود قالوا ذلك، عندما دعوا إلى الإسلام. كما رُوي أيضا أن الرسول دعا اليهودَ من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وحذرهم من عقاب الله، فقال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإنهم كانوا أعلم وخيرا منا ! فأنـزل الله هذه الآيات في ردهما على النبي. والمهم في هذه الآية أن الله تعالى سبب شركهم ورفضهم الإيمان وتمسكهم بمنهج سلفهم بقوله تعالى: فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وهو ما يحتم علينا نحن المسلمين حتى إذا اتبعنا سلف الأمة ألا نكون ممن لا يعقلون، أي بلاد أن يكون الأمر عن عقل وقناعة وليس مجرد ثقة في من سلف.

٢. وقال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أي : إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد في سلوكهم وفكرهم وعباداتهم، قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ؟) أي: لا يفهمون حقا، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا.(تفسير ابن كثير)، والمثير للانتباه أن الله استخدم في تسبيب هذا الضلال "كون آبائهم لا يعقلون".

٣. وقال تعالى (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ(٣٠)/الأعراف.. كان عرب قريش يطوفون بالبيت الحرام عراة، ويقولون " :نطوف كما ولدتنا أمهاتنا " فكانت تضع المرأة على عوراتها الشيء يستر قليله، وتقول:" اليَــوْمَ يَبْــدُو بعضُــهُ أَوْ كُلُّــهُ .. فمَــا بَــدَا مِنْــهُ فَــلا أُحِلُّــهُ.." وإذا دعاهم الرسول لاحترام البيت قالوا هكذا كان يعبده أسلافنا وهم أعلم وأفضل منا ..! كما يقول الكثيرون اليوم بأن السلف أعلم وأفضل منا !

٤. وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ(٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٢٢)/لقمان.. أي إذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله جهلا منهم بعظمة الله اتبعوا أيها القوم ما أنـزل الله على رسوله، وصدّقوا به، فإنه يفرق بين الحقّ والباطل، ويفصل بين الضالّ والمهتدى، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الأديان، فإنهم كانوا أهل حقّ، قال الله تعالى ذكره (أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ) بتزيينه لهم سوء أعمالهم، واتباعهم إياه على ضلالتهم؟.. كل ذلك لأن ثقة الخلف في السلف هي رابطة نفسية متينة توفر الأمان العاطفي للخلف وتمنعه من إعمال عقله بصورة نقدية لمنهج آبائه وأجداده أو حياءً واستحياء من انتقادهم، لأن إعمال العقل بما يخالف منهجهم فيه تجريح غير مباشر لهم، والإنسان لا يقبل ذلك، حتى وإن كان آباؤه على خطأ !

٥. " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) يونس.. قال فرعون وملئه لموسى: أتعتقد أنك جئت لتلفت انتباهنا عن نهج آبائنا وأجدادنا، ثم يكون لك الكبرياء والريادة في الأرض؟

٦. وفي قصة سيدنا إبراهيم، صاحب القلب السليم الذي يستحق الحياة والقرب من الله، والتي ذكرت قصته مع قومه في أكثر من سورة؛ لأن إبراهيم مثال حقيقي للإنسان الأقوى الذي لم يسمح لقلبه يموت في مستنقع (آباءه ومجتمعه وسلفه).. قال تعالى في سورة الشعراء (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) / الشعراء.. هذه الآيات واضحة بما تناولته من مشكلة إبراهيم مع قومه الذين صرحوا له بأنهم على علم

بأن الأصنام التي يعبدونها لا تسمع الدعاء، وكل ما في الأمر أنها بالنسبة لهم هي ثوابت الأمة وهي نهج الآباء والأجداد والسلف!

٧. في سورة الأنبياء (۞ ولقدْ آتيْنا إبراهيمَ رُشْدهُ مِن قبْلُ وكُنّا بهِ عالمِينَ (٥١) إذْ قالَ لأبيهِ وقومِهِ ما هٰذهِ التّماثِيلُ التي أنتمْ لها عاكِفُونَ (٥٢) قالوا وجدْنا آباءنا لها عابدِينَ (٥٣) قالَ لقدْ كُنتمْ أنتمْ وآباؤُكُمْ في ضَلالٍ مُبينٍ (٥٤) / الأنبياء

٨. وقال تعالى (وجعلوا الملائِكة الذِينَ همْ عِبادُ الرّحمٰنِ إناثا ۚ أشهِدوا خلقهمْ ۚ ستكْتبُ شهادتهمْ ويُسألونَ (١٩) وقالوا لوْ شاءَ الرّحمٰنُ ما عبدْناهم ۗ مّا لهم بذٰلِكَ مِنْ عِلمٍ ۖ إنْ همْ إلا يخرُصُونَ (٢٠) أمْ آتيْناهمْ كِتابا مّن قبْلِهِ فهُم بهِ مُستمْسِكُونَ (٢١) بلْ قالوا إنا وجدْنا آباءنا علىٰ أمّة وإنا علىٰ آثارِهِم مُّهتدُونَ (٢٢) وكذٰلِكَ ما أرسلنا مِن قبْلِكَ فِي قرية مّن نّذِيرٍ إلا قالَ مُترفوها إنا وجدْنا آباءنا علىٰ أمّة وإنا علىٰ آثارِهِم مُّقتدُونَ (٢٣) / الزخرف. الله يقول لهم أنتم تقولون أن الملائكة هم من الجنس الأنثوي، والملائكة محل تعظيم بالنسبة للبشر، ومع ذلك نجد الكافرين يصفونهم بأنهم إناث، وإذا رزق أحدهم بأنثى يحزن كثيرا، فكيف يقولون على ملائكة الله إناث وهم يعظمونها في ذات الوقت؟ فيأتي جوابهم بأنهم وجودوا آباءهم يقولون ذلك، فيسألهم الله، عن هذا التناقض المعرفي، هل رأيتم خلق الله للملائكة؟ بالطبع لا، ومع ذلك يصرون على تقديس معتقدات آبائهم ومنحها الأولوية حتى لو تناقضت عيانا بيانا مع المنطق العقلي. أذن ستكتب شهادتكم وسوف تسألون..

٩. تأمل الآيات القادمة الثلاثة الأخيرة (وقالوا لوْ شاءَ الرّحمٰنُ ما عبدْناهم ۗ مّا لهم بذٰلِكَ مِنْ عِلمٍ ۖ إنْ همْ إلا يخرُصُونَ (٢٠) أم آتيْناهمْ كِتابا مّن قبْلِهِ فهُم بهِ مُستمْسِكُونَ (٢١) بلْ قالوا إنا وجدْنا آباءنا علىٰ أمّة وإنا علىٰ آثارِهِم مُّهتدُونَ (٢٢)/الزخرف. نحن لم ننزل عليهم كتابا من قبل القرآن فهم به مستمسكون أي يفهمونه ويضعونه موضع الحياة ويجربونه ويؤمنون به والآن يجادلونك بما في ذلك الكتاب وبما يؤمنون به من داخله، ولكن هم يقولون إنا وجدنا آباءنا علي عقيدة مختلفة، وبرغم قناعتهم بما ورد في القرآن إلا أنهم يصرون على اتباع سلفهم !.. فهناك رابطة نفسية غريبة بين السلف والخلف كما رابطة الأمومة، لكنها تحجم العقل عن التفكير والفهم بدرجة غريبة.. سبحان الله ! ففي الآية الأخيرة الله يقول لرسوله محمد عليه السلام: هذه عادة البشر.. كلما أرسلت إليهم رسول يقولون نفس الجملة (إنا وجدنا آباءنا علي أمة وإنا علي آثراهم مقتدون) ولكن فقط قد تختلف الكلمات قليلا ولكن المعني والاعتقاد واحد، أنهم أناس بلا عقول.. عقولهم خاضعة راكعة لما وجدوا عليه آباءهم

وأسلافهم، فلا قيمة لعقولهم.. وببساطة هم لا يعلمون عن عقولهم أي شيء ولا يؤمنون بها ولا يحترمونها (مع أنها هي محل المسؤولية أمام الله) ولا يجدون لها أي فائدة لأنها دائما تطلب ما لا يرضي الآباء والمجتمع والسلف.

١٠. يتبع الحوار الطويل الرائع بين الله ورسوله محمد فيقول له، إن هذا ما يقوله كبراء وسادة كل قرية يدخلها أي رسول وحتى إن كان هذا الرسول يريد أن ينقذهم من عذابهم وبؤسهم إلي جنة السعادة والحرية والنعيم .. كل رسول عندما يدخل علي قومه كان يقول لهم: ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤)/الزخرف. أي فكروا ولو قليلا.. اعملوا عقولكم ولو قليلا.. هل يمكن أن يكون ما جئتكم به بأهدى وأجمل وأروع مما وجدتم عليه آباءكم؟ أليس من الممكن أن يكون ما أقوله لكم يمنحكم الكثير من السعادة والهدي والنور في حياتكم أفضل مما وجدتم عليه آباءكم؟ ومع ذلك فهم متمسكون بعقيدة آبائهم برابطة نفسية غريزية، فالله يوضح في هذه الآيات أنه لم تكن مشكلة الرسل السابقين مع أقوامهم هي انحراف الشعوب في الشرك والضلال أو مجرد شركهم بالله، بل إن الإشكالية تكمن حقيقة في تمسكهم بعقيدة الآباء دون وعي، فهم مشركون بلا وعي وبلا إدراك، هم فقط يثقون في عقيدة آبائهم !

١١. وقال تعالى (۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)/ الأعراف

١٢. وقال تعالى: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

(١٤٨) قلْ فللهِ الحجةُ البالغةُ ۖ فلوْ شاءَ لهداكمْ أجمعينَ (١٤٩)/الأنعام. فالقوم يجزمون بالرابطة الفكرية بينهم وبين آبائهم وأسلافهم ولا يكادون يصدقون أن آباءهم كانوا مخطئين، فالحجة بالنسبة لهم أمام رسول الله هي عقيدة الآباء، ومطلوب من الرسول قبل أن يقنعهم بعبادة الله أن يخلصهم من رابطة الأمومة مع سلفهم أولا، لأن كل جيل يعيش حياته متطفلا فكريا ومعتمدا على خبرات من سبقوه وتجاربهم في الحياة، كما الطفل الذي يلتقم ثدي أمه كل صباح ومساء، فعندما تحاول إقناعه بأن الفطام جاء موعده، لا يمكن أن يتبعك أبدا لأن الفطام صعب، والفطام الفكري أصعب..

١٣. وقال تعالى (وإلىٰ ثمودَ أخاهمْ صالحًا ۚ قالَ يا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لكُم منْ إلٰهٍ غيرُهُ ۖ هوَ أنشأكُم منَ الأرضِ واستعمركُمْ فيها فاستغفروهُ ثمّ توبوا إليهِ ۚ إنّ ربّي قريبٌ مجيبٌ (٦١) قالوا يا صالحُ قدْ كنتَ فينا مرجوًّا قبلَ هٰذا ۖ أتنهانا أن نعبدَ ما يعبدُ آباؤنا وإننا لفي شكٍّ مّمّا تدعونا إليهِ مريبٍ (٦٢) / هود

١٤. وقال تعالى (قالوا يا شعيبُ أصلاتكَ تأمركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا أوْ أن نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ ۖ إنكَ لأنتَ الحليمُ الرشيدُ (٨٧) قالَ يا قومِ أرأيتمْ إن كنتُ علىٰ بيّنةٍ مّن ربّي ورزقني منهُ رزقًا حسنًا ۚ وما أريدُ أن أخالفكُمْ إلىٰ ما أنهاكُمْ عنهُ ۚ إنْ أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ۚ وما توفيقي إلا باللهِ ۚ عليهِ توكلتُ وإليهِ أنيبُ (٨٨) ويا قومِ لا يجرمنّكُمْ شقاقي أن يصيبكُم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أوْ قومَ هودٍ أوْ قومَ صالحٍ ۚ وما قومُ لوطٍ مّنكُم ببعيدٍ (٨٩) واستغفروا ربّكُمْ ثمّ توبوا إليهِ ۚ إنّ ربّي رحيمٌ ودودٌ (٩٠) قالوا يا شعيبُ ما نفقهُ كثيرًا مّمّا تقولُ وإنّا لنراكَ فينا ضعيفًا ۖ ولولا رهطكَ لرجمناكَ ۖ وما أنتَ علينا بعزيزٍ (٩١) قالَ يا قومِ أرهطي أعزّ عليكُم مّنَ اللهِ واتّخذتموهُ وراءكُمْ ظهريًّا ۖ إنّ ربّي بما تعملونَ محيطٌ (٩٢) / هود

١٥. وقال تعالى (فلا تكُ في مريةٍ مّمّا يعبدُ هٰؤلاءِ ۚ ما يعبدونَ إلا كما يعبدُ آباؤهُم مّن قبلُ ۚ وإنّا لموفّوهمْ نصيبهمْ غيرَ منقوصٍ (١٠٩) / هود

١٦. وقال تعالى (ما تعبدونَ من دونهِ إلا أسماءً سمّيتموها أنتمْ وآباؤكُم مّا أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ ۚ إنِ الحكمُ إلا للهِ ۚ أمرَ ألا تعبدوا إلا إيّاهُ ۚ ذٰلكَ الدّينُ القيّمُ ولٰكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ (٤٠) / يوسف

١٧. وقال تعالى (قالتْ رسلهمْ أفي اللهِ شكٌّ فاطرِ السّماواتِ والأرضِ ۖ يدعوكمْ ليغفرَ لكُم مّن ذنوبكُمْ ويؤخّركُمْ إلىٰ أجلٍ مّسمّى ۚ قالوا إنْ أنتمْ إلا بشرٌ مّثلنا تريدونَ أن تصدّونا عمّا كانَ يعبدُ آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مّبينٍ (١٠) إبراهيم

١٨. ومِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٩) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(١٦٩)/البقرة

١٩. وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) / النحل

٢٠. وقال تعالى (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ(٧١)/الصافات

٢١. في سورة الزخرف هي حالة رائعة تتحدث عن عاهات وتقاليد الأمة العربية علي وجه التحديد فيقول في بداية السورة (حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) الزخرف، تأمل وتفكر في قوله تعالى: جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ! فقد نزل القرآن كي نعقله لا أن نتبع سلفنا في تطبيق ما عقلوه وما فهموه، لأن لغز القرآن ومغزاه وإعجازه في أنه نزل لكل الأجيال في كل العصور كي تعقله وتتفكر فيه.

٢٢. ويقول تعالى: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)٦٨/الأحزاب

٦٥ آية من القرآن وردت في ٢٢ موضع تحذر من تبعية السلف ومغبة الوقوع في الخطيئة والشرك دون وعي، بينما آيتان فقط ذكرتا فئة من المؤمنين الصحابة (رضي الله عنهم ورضوا عنه)، فهل نطمس الخمسة والستين آية ونطوف حول آيتين فقط نصنع في ظلالهما أيقونات من الصحابة والسلف نتبع نهجهم دون وعي؟ فكما يتضح من الآيات أن آفة المجتمعات في كل العصور هي اتباع معتقدات الآباء دون وعي، وما ذلك إلا نابع من الثقة في آبائهم، هذه الثقة التي تمنحهم الراحة والطمأنينة مع التواكل والاعتماد على ما سلكه أسلافهم دون إعادة تدوير وهضم لهذه المعتقدات، فأغلب الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله إلى أقوامهم كانت رسالاتهم ترتكز على تحرير الأجيال من عبودية الآباء وتقديس

معتقداتهم التي انحرفت عن الصواب، ومع ذلك تجد أغلبهم برغم قناعتهم بصحة رسالة النبي ومنهجه إلا أنهم يفضلون اتباع أسلافهم.. ولذلك أكبر مشكلة في حياة الإنسان هو التحرر من شرك الآباء.. هكذا وجدنا آباءنا.. وهذا كله إنما نابع من مبدأ الثقة الشخصية، وهي المعيار الشخصي للمنهج العقائدي، دون إعمال للمعيار الموضوعي إطلاقا. والملاحظ أن القرآن في سياقه العام يخاطب الإنسان بشخصه وعقله ومنطقه ويذكره دائما بالسمع والبصر والفؤاد والمصير والمسؤولية عن اعتقاده في النهاية، فالخطاب القرآني خطاب معاصر يخاطب كل جيل بلسان حاله وعقله ويذكره بالمسؤولية، بينما الاتجاه العام للمرويات تقدس الماضي وتحث دون كلل على تبعية الأبناء والأجيال للجيل الأول من الصحابة والتابعين من السلف، وهذا لم يرد بشأنه أي إشارة في القرآن، برغم أن القرآن يخاطب كل عصر بلسان حاله، إلا إذا اعتبرنا القرآن يخاطب الجيل الأول فقط من الصحابة، وهذا غير صحيح.

وكما أوضحنا أن سبب هلاك وضلال كافة الأمم السابقة كان هو رابطة التبعية للسف من كل أمة، وهي رابطة نفسية تقيد من إمكانات العقل البشري على التحرر الفكري منها، وعرفنا أن ما صعب من مهمة الرسل السابقين لم يكن فقط ضلال هذه الأمم وشركها بقدر ما كانت مشكلتهم هي أزمة الارتباط بمعتقدات السلف ومنهاجهم في العبادة، وهذا الارتباط ليس اقتناع فكري وإنما عاطفي حميم يحجم العقل عن التفكير، وكان فك هذا الارتباط أصعب من مسألة التمييز بين الرشاد والضلال. ونحن هنا لا نقصد تفسيق سلف أمتنا بقدر ما فسق سلف الأمم التي هلكت، لكن فقط تشخيص سبب الهلاك والاحتراز منه، فسبب الهلاك كان هو توقف الفكر وتعطل العقل عن العمل باتباع السلف. فقد يكون هناك حالة نتبع فيها سلف الأمة دون أن نتورط في النوع سالف البيان من الشرك (ما ليس لنا به علم) إذا تبعناهم لاقتناعنا أنهم على صواب وليس لثقتنا أنهم على صواب. وقد نتورط في هذا النوع من الشرك بالفعل دون أن يكون سلف الأمة منحرفين أو على خطأ أصلا؛ لأن جوهر الشرك لم يكن هو عبادة الأصنام وإنما اتباع دون وعي وإدراك، وهو ما يعد خيانة للذات باتباع (ما ليس لنا به علم).

وقد تأصلت وتعمقت ظاهرة التبعية في الفقه الإسلامي بدخول المجتمع عصر الجمود مع طفح الفتوى والتوسع الأفقي دون الارتقاء الرأسي. وبالتزامن بدأ عزوف جمعي للعقل عن الموضوعات والأفكار والدوران في فلك الأشخاص، وقد تجلى ذلك في صناعة أيقونات رمزية لتكون هي محاور التبعية، بدلا من أن تكون رؤوس الموضوعات هي محور الدوران. وفكرة الأيقونات بالطبع كان حريا أن تبدأ

بإحاطة هذه الأيقونات بمتلازمات لفظية "برواز " لإبراز معالم الأيقونة وزخرفتها، وجعلها محور للطواف حولها، وليس ذلك طوافا ماديا وإنما طواف معنوي فكري. لكن هذه الأيقونات جذبت الأنظار والأسماع بعيدا عن المنهج حتى صار اتباع طيفها بديلاً عن المنهج، أو ربما عندما فقد العقل بوصلته في البحث في المنهج لجأ إلى البحث عن أيقونات ومعالم الطريق لما فقد بوصلته.. فصارت هذه الأيقونات دليلا بديلا عن المنهج ولم تعد لنا قدرة على تحسس المنهج ذاته، وبالتالي انعدمت قدرتنا على تلمس خطوط المنهج فاكتفينا بالاسترشاد بالأيقونات، برغم ما قد يكون حولها من زيغ أو انحرافات لم يستطع العقل إدراكها لأنه فقد قدرته على تحسس المنهج الأصل. لدرجة أن كثير من الفقهاء قالوا : لا يجوز التحدث في أمر لم يتحدث فيه السابقون.." ! وهذا يوضح أثر رابط التبعية للسف التي وصلت إلى مرحلة الارتباط المرضي للطفل بالأم فلم يعد قادرا ترك ثديها مهما كبر في السن، بل اعتقد خطأ أن الفطام هو خروج عن الصواب، وهكذا ظل العقل مقيدا بالسلف مربوطا برابطة الأمومة، فصار الارتباط بمنهج السلف حتميا وبديلا عن البحث في المنهج الأصل والاعتماد على الذات، بعدما تم تحصين الأيقونات ببراويز ذهبية ناصعة.. وهذا بالطبع أدى لتعقيم الأيقونة وتحجيم العقل ومنعه من الاقتراب.

وقد بدأ العمل على أولى الأيقونات مبكرا، لما فقدنا بوصلة القرآن انصب تركيزنا على مرويات السنة باعتبارها الأسهل في الهضم، وهي العلامات البارزة على الطريق، فتركنا القرآن جانبا وبدأ تغليب النصوص التاريخية المروية شفهيا على النص القرآني المدون لحظة نزوله من السماء. ومن هنا بدأت مرحلة وضع المعالم على الطريق، وجعلها في أيقونة كبيرة متكررة بصورة مستمرة، ثم بمرور الوقت صارت هذه المعالم هي الطريق ذاته، برغم أنها تعددت وتشعبت وتفرعت في طرق عديدة وفي اتجاهات مختلفة. بدأت هذه الأيقونات بالمتلازمة اللفظية (عليه السلام) وتبعتها مباشرة متلازمة (رضي الله عنه). وعبر العصور تم استخدامها كبرواز ملتحم بالشخصية، لا تذكر إلا داخل البرواز، وليست هناك أي مشكلة حول البرواز الذي وضعنا فيه اسم النبي محمد، ولكن الإشكالية تتعقد أكثر بشأن البراويز الأخرى التي أحاطت بأيقونات منحتها الحصانة الدينية الأبدية، بينما هي محض شخصيات تاريخية.

هذا بالإضافة إلى الأيقونة الأشهر وهي "العشرة المبشرين بالجنة " برغم أن الله تعالى يقول"وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ" / سورة لقمان.. ويقول تعالى: قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

(٩)/ سورة الأحقاف.. فهل يجوز بعد ذلك القول بأن هناك شيء اسمه تبشير بالجنة أو النار؟ إنما ذلك من بدع العرب. وفي صحيح البخاري (436- حدثنا مسدد قال حدثنا عبد العزيز بن مختار قال حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال لي ابن عباس ولابنه علي انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى ذكر بناء المسجد فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فينفض التراب عنه ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قال يقول عمار أعوذ بالله من الفتن)... فهل يجهل رسول الله ماذا يكسب غدا، وبأي أرض يموت، ويعلم ماذا يصنع المستقبل بعمار؟ أو ماذا سيكون مصيره؟ وهل يقول الله لرسوله يا محمد (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) ثم يقول العرب أن النبي علم أشخاص مبشرين بالجنة !!

وأما الكارثة الكبرى أن يأتي السيد الباجي ليقول: الصحابة كلهم عدول بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم وتفضيل النبي لهم فلا يحتاج إلى السؤال عن حالهم ولا إلى البحث عن عدالتهم).. مع أنه لم يذكر آية واحدة تعزز كلامه، بل إن ذلك من شأنه أن يوقع المسلمين جميعا في فتنة كارثية، حينما يصدق الخلف على كل ما يردهم من أخبار دون بحث وتمحيص كما يقول الباجي، فهذه تبعية عمياء تؤدي إلى الشرك حتما، والشرك هنا ليس السجود لصنم وإنما عبادة الله على طريقة ليس لك بها علم. بل إن هناك من قال بأن مصطلح صحابي يشمل كل من رأي النبي ومن رأي من رأي النبي أيضا حظي بقداسة الصحوبية والعدل فكلهم عدول !

فلم يعد الأمر حصرا على من جاهد دفاعا عن النبي بشرف وإخلاص، وقدم دمه وروحه فداءً لرسوله ودينه، بل أصبح من رأى النبي ومن رأى من رأى النبي أيضا أيقونة ! في حين أننا لو عدنا لمرحلة الجهاد في سبيل الله حول النبي، فسنجد أنهم بالفعل جاهدوا بإخلاص وإيمان نقي خالص لوجه الله.. ليس كل الصحابة ولكن أغلبهم.. ولكن بإعادة النظر إلى طبيعة الكاريزما العربية المتقلبة سنفهم كيف قتل الصحابة بعضهم بعضا وسفكوا دماء بعضٍ في صراعاتٍ قبلية على السلطة بعد رحيل النبي، فهل كنا نتوقع أن تحدث بينهم فتن وحروب أهلية ودسائس بهذا الشكل البغيض وقتما كانوا ملفوفين حول رسول الله على قلب رجلٍ واحد؟ بالطبع لا، ولكنها الكاريزما العربية المتقلبة، فنفوسهم مخلوقة على هذا الطبع وبيئتهم بهذا الطبع وخلطتهم وبصمتهم الوراثية بهذا الطبع، وكثير جدا منهم ظل محتفظا بسماته الشخصية حتى في الإسلام، فلم تكن شخصية عمر مماثلة لشخصية أبي بكر

أو مماثلة لشخصية خالد الوليد برغم أن جميعهم عاشوا في فصلٍ دراسي واحد وعلى يد معلمٍ واحد، لكنهم بعدما تخرجوا اختلف مسارهم عن بعضهم عن مسار المعلم.

لكن الفقهاء لم يدرسوا طبيعة هذه التقلبات المزاجية واحتماليتها، ولملموا التراث بحسن نية وشغف، مع تعطل العقلية النقدية التي تميز الصحيح عن غيره، فالجمع سكن في أيقوناتٍ تاريخية صارت هي دليل ثبوتية للنصوص المنقولة.. بالطبع هذا النوع من التقديس بهذه الدرجة يرفع مرويات هؤلاء فوق كتاب الله، ولا ينبغي إطلاق وصف صحابي صادق عدل إلا على الفئة التي أثبتت ذلك بالفعل، وهم فئة قليلة من عينة أبي ذر الغفاري، بخلاف عثمان عفّان الذي فاحت رائحة الفساد السياسي والمحسوبية في عهده بدرجة لا يمكن تبريرها، ولا يشفع له كونه صهر رسول الله أو حتى احتفاظه بلقب "ذا النورين" لأن هذا لا يحصّنه ضد الخطأ. هذا بعد البحث في مدى مصداقية وعدل الراوي الناقل عن هؤلاء...

وأما وضع معيار رؤية النبي كدليل وسند للحصول على رتبة صحابي فهذا معيار فاسد، وشرط فاسد، بل يحتاج إلى شطر آخر في نظرنا وهو معيار الإنسانية؛ فكل من مارس ظاهرة الغزو الهجومي والسبي والوطء واغتصاب السبايا وخطف الأطفال والبنات من المدنيين العزّل وبيعهم في أسواق النخاسة، فهذا لا يحصل على رتبة صحابي ولا حتى وصف إنسان بل هو خنزير بري شرس يجب استبعاده من دائرة الإنسانية كلها، فكيف يحصل من مارس هذه الجريمة البشعة على رتبة صحابي ! في الواقع إن ابن خلدون كان صائبا حينما وصف البيئة العربية فكريا ونفسيا، ووضع الكاريزما العربية تحت المجهر وغاص في الكاريزما العربية وألمح بمواربة أن الصحابة كانوا صحابة فقط على عهد رسول الله والتفوا حوله وأطاعوه، أما بعد وفاته فلم يعودوا صحابة..

غير أن المبالغة في مصطلح صحابي في غير موضوعها وهي خروج عن سياق اللغة فقط لإضفاء القدسية على الأشخاص، وعلى سبيل المثال خالد الوليد ليس من أصحاب الرسول، لكنه أصبح صحابي وفق مفهوم الفقهاء.. فكلمة صحابي حظيت بإجلال وتقديس اصطلاحي بالقدر الذي حظيت به كلمة " غزوة "، فقال الفقهاء أن كل من لقي النبي فهو صحابي !! طالما لم يعرف عنه النفاق، مع أن لفظة صحابي أو صاحب قد وردت في السياق القرآني وفي المعاجم وما تواتر على ألسنة العرب محصورة في دلالة واضحة، وهي تشمل " القرين" أي الشخص الملازم لآخر أو بينهما علاقة ما سواء صداقة أو خصومة أو أي علاقة تبرر استخدام صفة التلازم بين شخصين سواء لفترة أو حقبة زمنية، لكن ليس مجرد من

رأي النبي صار صحابيا أو من عاش في المدينة عهد النبي صار صحابيا، لكن الفقهاء شكلوا المصطلح بمعيار مزدوج إضافي، فقد أضفوا عليه قدسية " الصدق والعدل " وكذلك وسعوا في مدلول العلاقة التي تبرر استخدامه، فقرروا سحبها وتوسيع نطاقها اصطلاحيا لتشمل كل من رأي النبي، وهذا خروج صريح عن المدلول اللغوي وإضافة قدسية دينية للمدلول الاصطلاحي بما يجعله حجرا ثابتا على قاعدتين، والقاعدتين في الأساس غير أصليتين بل اصطناعية.

أما ابن حزم فيقول: أن الصحابي (هو كل من جالس النبي ولو لساعة، وسمع منه ولو كلمة فما فوقها، أو شاهد منه أمرا ولم يكن من المنافقين ولا مثل من نفاهم النبي، فمن كان كما وصفنا فهو صاحب، وكلهم عدل، إمام فاضل، رضيً فرض علينا تعظيمهم وتوقيرهم)... بالطبع يتضح بجلاء مدى تغلغل العنصر الشخصي في تحديد مدلول المصطلح لدرجة تخرجه كليا عن معناه اللغوي وعن مسبباته ومبرراته ومسوغاته الموضوعية ، فكما يرى ابن حزم: كلهم عدل وكلهم إمام فاضل رضي، وكأنه لا يعلم أنهم قتلوا بعضهم بعضا بعد رحيل النبي، أو كأنه لا يتحدث عن بشر من ذات الطبيعة البشرية وإنما كائنات فضائية أو ملائكة نزلت من السماء على أجنحة جبريل، وتجاهل أن هؤلاء الصحابة هم من بذرة المجتمع العربي والقرشي الذي كادت أن تزول من مكره الجبال، وهذه طبيعة بدوية عربية جبلوا عليها، وصارت لهم خصوصية قومية. وهذا يخالف القرآن صراحة دون أدنى جدال لأن الله عندما تحدث عن الرضا حصر فئة من السابقين الأولين لأفعالهم فقط بينما ابن حزم جعل كل من رأى النبي فهو صحابي وإمام عادل ومرضيً عنه!

هذه المتلازمات اللفظية ظهرت بعد عهد النبي بمائتي عامٍ تقريبا في العصر العباسي وبدأت تتناقلها الكتب والمؤرخون والمتفقهون حتى صار نطق اسم صحابي دونها يعد سبا لهذا الصحابي وإقلالا من شأنه أو تعرية له عند خلع البرواز، ربما أراد من ابتكروها أن تكون حصنا للزمن ضد عوامل التعرية، والتي عادة ما تؤدي إلى تآكل الأيقونات عبر الزمن كما تتآكل الجبال بالتعرية. لكنها في الأصل لا تمت للموضوع بأي صلة موضوعية، أي تعني أن تصرفات هذا الشخص الأيقونة هي نموذج مثالي وتطبيق عملي لمنهج الإسلام، فالبراويز أو المتلازمات اللفظية ظهرت لتلطف من عوامل التعرية فقط؛ لأنها ظهرت في عهد الدولة العباسية، وكان العرب كمجتمع قد انفصلوا عن المنهج وعادوا لحياتهم وأعرافهم الاجتماعية الأصلية.. لكن الملاحظ أنها ظهرت في العصر الذي بدأ فيه تجمّد الفكر الديني (توسع أفقي وانحطاط رأسي) وبدأ الالتفات عن الموضوع والطواف حول الأشخاص واعتبارهم مصدر الموضوع،

وبدأ تقديس الأشخاص بدلا عن الموضوعات عندما عجز العقل عن هضم الموضوعات، ورفع المرويات فوق الآيات، لأن المرويات كانت سهلة واقتربت من أعراف المجتمع بقدر ما تساهل الفقهاء في تحقيقها.

مثل هذه الأيقونات لمعت وتعاظمت في قلوب العامة حتى صارت لها كرامات ومعجزات خرافية لا مجال لها مع العقل، حتى أن البخاري ومسلم رصدا رواية اتفقا على صحتها، هذه الرواية تزعم اهتزاز عرش الرحمن عند وفاة أحد الصحابة، لعظم منزلته عند الله كما قالوا، لكنهم لم يفسروا لماذا لم ينقلب عرش الرحمن حينما يتوفى رسول الله ! فهل كان هذا الصحابي أعظم شأنا من النبي؟ وهل من شأن الخالق أن يهتز كيانه لموت أحد خلقه؟ ألم يكن هو الله الخالق الآمر بقبض روحه؟ فلماذا يهتز عرشه حزنا عليه؟

تقول الرواية "عن جابر قال: قال رسول الله عليه السلام: اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ"

وعند البخاري: "عن جابر رضي الله تعالى عنه: سمعت النبي عليه السلام يقول: اهتز العرش لموت سعد بن معاذ، وعن الأعمش: حدثنا أبو صالح عن جابر عن النبي عليه السلام مثله، فقال رجل لجابر: فإن البراء يقول: اهتز السرير، فقال: إنه كان بين هذين الحيين ضغائن، سمعت النبي عليه السلام يقول: اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ" (متفق عليه. صحيح البخاري :كتاب فضائل الصحابة ؛ باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه / صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ؛ باب من فضائل سعد بن معاذ رضي الله عنه)

أما المثال الثاني فهو رواية نقلها الإمامين البخاري ومسلم، حيث رويا أن رسول الله قال: "إِيهٍ ابنَ الخطابِ ، والذِي نفْسِي بيَدِهِ ما لقِيَكَ الشَيْطانُ قطُّ سالِكًا فجًا إلا سَلكَ غَيْرَ فجِّكَ " برغم أن الله تعالى يقول في كتابه موجها الخطاب إلى رسوله: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميعٌ علم" سورة الأعراف، وهذا ما يعني محاول العرب لتقديس شخصية عمر فوق رسول الله، فالرسول هنا يمثل الدين وأما عمر فيمثل القومية العربية.. وبرغم أن هذه الرواية ضعيفة أو مرفوعة إلا أن الفقهاء لم يتورعوا عن ذكرها، بل استحبوا ترديدها في كتبهم ومصادرهم العلمية، حيث وردت ثمانٍ وثلاثين مرة في المصادر التالية : ((صحيح البخاري ـ مسند أحمد بن حنبل ـ مسند أحمد بن حنبل ـ السنن الكبرى للنسائي ـ البحر الزخار بمسند البزار ـ مسند أبي يعلى الموصلي ـ المسند للشاشي ـ المسند للشاشي ـ مصنف ابن أبي شيبة ـ المعجم الأوسط للطبراني ـ مشيخة ابن طهمان ـ مشيخة ابن جماعة ـ مشيخة ابن

جماعة ـ مشيخة ابن البخاري ـ مشيخة ابن البخاري ـ الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي ـ الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي ـ جزء من نسخة إبراهيم بن سعد ـ الأول من حديث ابن حذلم ـ السنة لابن أبي عاصم ـ السنة لابن أبي عاصم ـ شرح السنة ـ تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة لأبي نعيم ـ الأنوار في شمائل النبي المختار ـ سير السلف الصالحين لإسماعيل بن محمد الأصبهاني ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ـ السابق واللاحق ـ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ـ فضائل الخلفاء الراشدين لأبي نعيم ـ عمل اليوم والليلة لابن السني ـ بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي))... وهذا ما يعني أن الرواية حتى إن كانت مرفوعة إلا أنها طالما ذكرها كل هؤلاء العلماء والفقهاء والمؤرخين وفي كل هذه المصادر، فذلك يجُب ضعفها ويجعلها من المتون القوية غير المهملة، بل ويعزز وجودها في كتب الفقه الأخرى استنادا بمن عززها واعتز بها من هؤلاء الكبار، برغم أنها تعزز مزايا عمر الخطاب على الرسول أو على الأقل تبرزه في مركز المتفوق إيمانيا على الرسول وأن الشيطان يخشاه ولا يخشى الرسول، فقد حاول العرب أن يصنعوا من رموزهم القومية والسياسية التاريخية رموزا دينية مقدسة للشعوب كي يلتزموا بسياساتهم.

وهكذا تعاظمت الأيقونات بمرور الزمن ولم تتوقف عند حدود الصحابة أو من رأوا النبي، بل حتى من تحدثوا عنه كأمثال الفقيه مالك أنس حينما ذاع صيته في الفقه بدأت الكرامات والمعجزات تحط على أيقونته، فالفقيه الشافعي قد لقي مصرعه بعد أن تعرض للضرب المبرح على أيدي المالكية في مصر، بعد أن ألف كتابا سماه "خلاف مالك"، ويروي الفخر الرازي: "أن الشافعي إنما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يُستقى بها، وكان يقال لهم قال رسول الله، فيقولون قولَ مالك، فقال الشافعي: "إن مالكا آدمي قد يخطئ ويغلط"، ثم أعد الشافعي الكتاب ليتحدث فيه عن الفقيه مالك ويثبت أنه بشر عادي قد يصيب ويخطئ، وأضاف بعض المسائل الفقهية التي اختلف في تفسيرها هو مع مالك، وكان يقول: "كرهت أن أفعل ذلك (تأليف الكتاب)، ولكني استخرت الله تعالى فيه سنة" ومع ذلك لم يسلم من ضربات المالكية على رأسه بالقباقيب حتى مات.. وكانت الفكرة التي يحاربها الشافعي هي فكرة الأيقونات التي تعاظمت في الأندلس كما يقول، وبدأ الناس يقدسون الفقيه مالك ويرفعونه فوق الطبيعة البشرية ويضيفون له الكرامات والمعجزات الخرافية، فحاول الشافعي أن يعود إلى الأصل فخدش الأيقونة .. ومن هنا ثار تلامذة الإمام مالك لإصلاح ما أصاب الأيقونة من خدوش فقتلوا الشافعي.. ولم يكن الصراع بين المذاهب والفرق الإسلامية حكرا على

السنة والشيعة فقط، فقد شهد التاريخ الإسلامي أيضا صراعا داميًا وحروبًا حامية بين الفرق والمذاهب السنية كذلك.

ونعود إلى مطلع المتلازمات اللفظية، التي ظهرت في العصر العباسي، وهي عبارة (عليه السلام). وفي الواقع لا مبرر لتذييل اسم النبي أو ذكره بالصلاة عليه بهذا البرواز أو المتلازمة اللفظية لأن الصلاة على الرسول وردت أمرا من الله في القرآن، فقال الله: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)، والمقصود بالصلاة على النبي الثناء عليه وشكره والدعاء له، وأما التسليم فهو تسليم بالمنهج الذي جاء به، وبالتالي يأمرنا الله أن نصلي ونسلم تسليما، نثني على رسوله ونوقره ونسلم ونعترف ونقر برسالته ونبوته، أما نحن اختصرنا هذا الأمر الإلهي الواسع في معناه، اختصرناه في ترديد صيغة الأمر ذاته، أي إعادة ترديد صيغة أمر الله وليس تنفيذه، أي رد الأمر على الآمر، فنحن نقول (عليه السلام) أي نردد مضمون عبارة الأمر الإلهي فنعيد ذكرها والتذكير بأن الله صلى على الرسول وسلم عليه، وهذا خطأ لأن الله يصلي على الرسول ولا يسلم عليه ، والتسليم هو أمر من الله للناس، فتجاهل الناس أمر الله بأن يصلوا على الرسول ويقروا ويؤمنوا ويعترفوا بمنهجه واختصرنا ذلك كله في إعادة التذكير بأن الله صلى على الرسول، ثم نشطح في الأمر ونقول (اللهم صلي على الرسول !) وهذا خطأ لأننا بذلك نترجى الله ونتوسل إليه بأن يصلي على الرسول، في حين أنه هو يخبرنا بأنه وملائكته يصلون على النبي دون حاجة للتوسل منا بل ويأمرنا نحن أيضا بالصلاة عليه، فهل يكون تنفيذنا لهذا الأمر بأن نتوسل إلى الله بأن يصلي على الرسول؟ بمعنى؛ إذا قال لي معلمي: أنا ذاهب لصلاة الظهر، تعال صلي معي في هذا المسجد، فهل من المنطق أن أتوسل له بأن يذهب لصلاة الظهر في هذا المسجد؟ .. هذا خطأ ناتج عن تبعية السلف دون وعي وإدراك لما يقولون. بل الأصل أننا نذكر النبي محمد متوجا بكلمة " النبي" أو " الرسول" فقط، وهذا تكريم له وإقرار كافٍ بنبوته ورسالته، فلم يكن المسلمون في عصر النبي ينادونه بهذا البرواز اللفظي، بل إن بعضهم كان يناديه " يا محمد " أو "يا أبا القاسم" كما كان يناديه خصوم الإسلام من كفار قريش وغيره، فنزل قول الله تعلى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ ...(٦٣)/النور.

بل إن البعض قد ذهب بعيدا جدا، حتى أنني سمعت أحد الدعاة يقول أنه سأل الشيخ الشعراوي، كيف فتح الله عليك في تفسير هذا القرآن بهذا الإعجاز؟ ويقول أن الشيخ الشعراوي رد عليه بأن الله فتح عليه لأنه يصلي على النبي، ليس كمثل باقي الناس، وإنما كلما سمع ذكر بعض أو عضو من

جسد الرسول، وليكن رأسه أو ذراعه أو ظهره، فيقول (اللهم صلي على سيدي شعر سيدي رسول الله.. اللهم صلي على سيدي رأس سيدي رسول الله.. اللهم صلي على سيدي ظهر سيدي رسول الله !!) . وبالطبع فإن عقيدة مثل هذه مشوشة ولا تعرف معنى الصلاة على الرسول ولا معنى توحيد العبادة لله، لأننا ببساطة، قد نتساءل ما علاقة الصلاة على الرسول بالقدرة على تفسير القرآن؟ وهل النبي بعد مماته ملهم يلهمنا كتابة الشعر؟ وهل تفسير كتاب الله يسير هكذا ؟ وكيف نطلب من الله أن يصلي معنا على نبيه وهو القائل : إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ؟.. هكذا العقول تذهب بعيدا دون أن تدري، حتى أنهم جعلوا النبي جزءا من العبادة، مع أن العبادة لله وحده.

وإذا قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)/ الأحزاب. فإننا نجد مثلا لصلاة الله على رسوله، حيث أننا عندما نتتبع لآيات القرآن نجد شيئا عظيما يدل على ذلك، فالله تعالى عندما يخاطب أيا من رسله وأنبيائه يخاطبه باسمه المجرد: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..)، ويقول: (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ..)، ويقول: (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ..)، ويقول: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا..)، ويقول: (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ..)، ويقول: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض..)، ويقول: يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ..)، ويقول: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ..)، ويقول: (يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ..) ويقول:(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ..)، ففي كافة خطاباته لرسله وأنبيائه جاء ذكر الاسم مجردا دون تتويج، والتتويج بصفة هنا هي بمثابة الصلاة عليه والثناء، أما أننا نجد المولى عز وجل عندما يخاطب خاتم الأنبياء والرسل، فلم يذكر اسمه مجردا بل متوجا إما بالرسالة أو بالنبوة ؛ فيقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، وقال: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ..) وقال:(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) ناداه بالنبوة والرسالة.

بينما نجد أن تنفيذ هذا الأمر الإلهي بالصلاة على الرسول يكون بتتويج ذكره بالنبوة أو الرسالة، أو بالثناء عليه والدعاء له، على سبيل المثال عبارة: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد". هذا هو نموذج

الصلاة على النبي، أما التسليم فيكون بالاعتراف والإقرار بمنهجه ورسالته ودعوته، وليس بجعله أيقونة شخصية ووضعه داخل برواز ليزداد بريقا فوق القرآن، وتزداد المرويات اهتماما على الآيات.. وأبسط الدلائل على ذلك هو أننا كلما ذكر اسم النبي نصلي عليه مسرعين ونعتبر من لا يصلي عليه ضعيف الإيمان، وإذا ذكر الله نصمت ! أي إذا قال أحدنا، قال النبي (كذا....) فيرد عليه الآخر (صلى الله عليه وسلم) أما إذا قال أحدنا: أن الله تعالى يقول (كذا...) فلا رد ولا تعليق ولا صوت سوى الصمت !...

وفي اعتقادي أن ذلك ناتج من تأثير القومية العربية على الإسلام لأن العرب اعتبروا النبوة ميراث القومية العربية ومصدر فخرٍ لهم، أما القرآن فهو منزل من عند الله ولا فخر لهم فيه، ولذلك حاولوا تصعيد القومية العربية (ميراث النبوة) فوق تزيل الله، لأن ميراث النبوة هذا يمثل القومية العربية، ولم يكن الغرض هو تصعيد القومية العربية فوق كتاب الله، ولكن الغرض هو تعظيم القومية العربية في نظر الشعوب التي حكمها العرب لتشعر بأن العرب ذو فضل عليهم وأفضلية على جميع الشعوب.. برغم أن العرب في الواقع لا يختلفون كثيرا عن الهكسوس؛ فكلاهما شعوب ذات طبيعة قبلية حربية، وقد حاولوا استخدام كل إمكاناتهم في السيطرة على الشعوب الأخرى.

ونجد هناك لمسة بيانيّة [5] من كتاب الله تعالى: في قوله: يَحلِفُونَ باللهِ لكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللهُ ورَسُولهُ أحَقُّ أن يُرْضُوهُ إن كَانُوا مُؤمِنِينَ (٦٢)/التوبة .. قالوا: العبارة القرآنيّة: (والله ورسوله) تحمل مثنى، وبالتالي كان من المفروض أن تأتي كلمة: (يُرضُوه) بصيغة المثنى: (يُرضُوهما..). هذه الصيغة القرآنيّة تبيّن لنا أنّ هدف العبادة ليست مرضاة محمّد عليه السلام ، فمحمّد نبيٌّ حامل لمنهج الله تعالى ، وهو ذاته مُطالب باتّباع منهج الله تعالى ، وأن يعمل على مرضاة الله تعالى ، وذُكره مع الله تعالى (واله ورسوله) نراه بصيغة الرسالة ، التي تعني المنهج ، ولا تعني أبدا الجانب الشخصي، فمرضاة الله تعالى تكون من خلال سبيلين : اتباع الفطرة النقيّة الطاهرة التي فطر الله تعالى الناس عليها ، واتّباع المنهج الذي أنزله الله تعالى على رسوله عليه السلام ، وبالنتيجة فمنهج الله تعالى الذي أنزله على رسوله عليه السلام هو مراد الله تعالى ، واتباعه يؤدّي إلى مرضاة الله تعالى ..

---

[5] ـ مهندس عدنان الرفاعي من بحث : (لمسات بيانيّة من كتاب الله تعالى على الرابط التالي:
http://www.thekr.net/index.php

إذا .. دلالات العبارة القرآنية (والله ورسوله) بالنتيجة تعني سبيلا واحدا يتعلق بمنهج الله تعالى الذي أراده للبشر ، وبالتالي فالمرضاة هي لله تعالى فقط ، من خلال اتباع منهجه الذي أنزله على رسوله عليه السلام عبر محاكاة الفطرة النقية التي فطر الله تعالى الناس عليها.. وفي تبياننا هذا، لهذه النقطة، ستكون مشكلتنا مع مثيري هذه الشبهة، أقل من مشكلتنا مع عابدي أصنام التاريخ، الذين يجعلون روايات التاريخ (مهما بلغت درجة مخالفتها لكتاب الله تعالى والعقل والمنطق)) نصا مقدسا يملك صلاحية نسخ أحكام كتاب الله تعالى .. فهذه الصيغة : (والله ورسوله أحقُّ أن يُرضُوه) ، حيث كلمة : (يُرضُوه) تعود لله تعالى فقط ، تؤكِّد أنَّ السنة محتواة في قلب النصِّ القرآني ، وأنها ليست نصوصا خارج دفتيه ، كما يفترون على الله تعالى..

وهذه المسألة شبيهة بالمسألة المحمولة بالنصِّ التالي .. (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّروه وتوقروه وتسبِّحوه بكرة وأصيلا)/الفتح. فالضمير في الكلمات ((وتعزِّروه)، (وتوقروه) ، (وتسبِّحوه)، يعود إلى الله تعالى حصرا ، كون الرسول عليه السلام مجرَّد حاملٍ لمراد الله تعالى ومنهجه ، وهو مطالب ـ كغيره ـ بالانصياع لمنهج الرسالة التي يحملها من الله تعالى إلى البشر..

ولم يكن الصحابة أنفسهم يصلون على النبي بهذه العبارة وبهذه الطريقة المفرطة التي تجعل من الصلاة عليه متلازمة لفظية على كل لسان دون الانتباه لمعنى، فقد خرج النطاق عن الموضوع وأصبحت الصلاة على النبي وكأنها فريضة مثل الصلاة والصيام وكأنها ركن من أركان العبادة في الإسلام، مع أنها محض متلازمة لفظية أطلقها الفقهاء والمؤرخون في عهد الدولة العباسية. وهذا ليس موضوعي لأن تقديس النبي في شخصه ليس هدف الدين ولا رسالته وإنما تكريمه على رسالته وأمانته، وإنما صلاة الله وملائكة وصلاتنا على نبينا هي دعاء له عل إنجازه في توصيل الرسالة، وهذا ما يعني بوضوح أن الثناء عليه والدعاء له ليس من أهداف الإسلام ولا أركانه وإنما شيء لاحق على ذلك ونتيجة ومكافأة له على أدائه رسالته، وبالتالي فإن تحويل الصلاة عليه إلى متلازمة لفظية دائمة تفقد معناها لطول تكرارها دون وعي، هو خروج عن الموضوع، فلا أحد يلزمنا بتتبيع لفظ النبي بمتلازمة (عليه السلام) ومع ذلك ألزمتنا المرويات المزورة بأن من سمع اسمه ولم يصل عليه فهو بخيل !! فهل كان الصحابة يصلون عليه بهذه العبارة في كل مجلس وكل كلمة وكل نداء ؟ إذا كانت هذه المتلازمة لم تظهر إلا في العصر العباسي.

لكن ذلك حدث فقط عندما فقد العقل بوصلته وتحول الإسلام من موضوع إلى تبعية أشخاص، وكان من الطبيعي أن يبدأ التقديس الشخصي المبالغ فيه بالنبي ووضع اسمه في أيقونة وبرواز، ثم من عاصروه من المسلمين جميعهم صاروا صحابة عدول وحق وصدق.. وكأنهم مجتمع ملائكي فضائي، ثم صاروا جميعهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه برغم أنهم قتلوا بعضهم بعضا) ثم ومن رووا عنه من الأجيال التالية ثم الفقهاء بمتلازمة "كرم الله وجهه" ومتلازمة " الإمام، لتضع الشخص في البرواز المناسب للأيقونة..

وهكذا تظل الأيقونات تلمع وتتوهج وتتضخم الهالة المحيطة بها، وبالتدريج والتسلسل، نصنع من النبي أيقونة أكبر، ومن الصحابة أيقونات مساعدة، ومن الفقهاء أيقونات موازية، وبالتدريج مع مرور الزمن كل أيقونة تصعد درجة وتتعاظم درجة في عقول الأجيال، وكل صف أيقونات يترقى درجة، ويتوسع أثره درجة حتى يتوارى الجدار كاملا خلفهم.. وفي النهاية نصل إلى ما وصل إليه الإخوة المسيحيين، صعدوا نبيهم ووضعه في موضع موازي لله بداية الأمر، ثم دمجوا المنصبين في بعضهما فخرج لنا عيسى وهو إله مجسد أو صورة مجسدة للإله، أي أصبح نسخة أرضية من الله الخالق بصورة البشر كي يتمكن من التعامل مع البشر ونصحهم وإرشادهم لعبادة الله ! وارتفعت مكانة رجال الدين المسيحي إلى درجة السلطة التشريعية وأحاطت نفسها بهالة معظمة للأيقونة. ولم تعد هناك من طوائف المسيحيين سوى اليعقوبيين فقط هم يعبدون الله ويقرون بأن عيسى ليس صورة مجسدة لله وإنما نبي ورسول من الله. وكذلك الإخوة الشيعة الإمامية، برغم أن البداية كانت مجرد متلازمة لفظية استخدمت كبرواز ثم صارت أيقونة ثم تعاظمت الأيقونة فصار لها طيف يحيط بها.. ثم صارت تشارك الله في التشريع، ثم اندمجت فيه وتخلت عن الصفة البشرية وحل محلها صفات روحية قدسية..

ولطالما ركز الباحثون على تأثير اليهودية في الثقافة الإسلامية الموروثة، وهو ما انعكس تأثيرا على الفقه، لاسيما في العقوبات كعقوبة الرجم للزاني وغيرها مما لا أساس له في التنزيل الحكيم، لكن ما تم إغفاله هو تأثير المسيحية البالغ الأهمية على تلك الثقافة، والذي سبب ضررا هائلا في الفكر الإسلامي. ويمكن أن نجمل تأثير المسيحية بثلاث محاور رئيسية:... والمحور الأهم وهو وضع الرسول في مركز الإسلام كما المسيح هو مركز المسيحية. فإذا كان الإنجيل هو أقوال المسيح والسيرة

الذاتية له، وبالتالي صيغة الإنجيل: قال يسوع، أو قال الرب، وهذا لا غبار عليه بالنسبة للمسيح، لأن المسيحية ليس فيها نص سماوي كما القرآن. وفي أول العصر العباسي جرى التفاعل مع المسيحية، فظهر مفهوم الوحي الثاني لأول مرة نتيجة لهذا التفاعل ما أدى لخلق شريعة إسلامية على هيكل ونمط الشريعة المسيحية، وبتقليد مباشر لنظام الإنجيل، فتمت صياغة الإسلام بهيكلية جديدة هي التي وجد عليها الإنجيل، وتم استبدال "قال يسوع" ب "قال رسول الله"، واستبدال "قال الرب" بالأحاديث القدسية، وهكذا اخترع إسلام جديد مركزه النبي وفي مقابل هذا التمركز الجديد تم تهميش القرآن، لدرجة أنهم أوجدوا أحاديث ومرويات قالوا أنها نسخت آيات من كتاب الله، ولم يقولوا أبدا أن آيات من كتاب الله نسخت حديثا !.

ومن هنا برزت نظرية الشريعة الأولى والشريعة الثانية أو مفهوم الوحيين، فأصبحنا نبحث فيما أكل النبي وماذا شرب، وحياته الخاصة مع زوجاته، وماذا قال لزيد، وماذا أجابه عمرو، وحياة الصحابة وتصرفاتهم وسلوكياتهم وكأننا صرنا أصناما نقلد شكليا دون البحث في الغاية من حياتنا ودون تدبر كتاب الله، فحياة النبي وتصرفاته الخاصة في المرتبة الأولى باعتبارها نموذج التطبيق العملي الأوحد، بينما انتقل التنزيل الحكيم إلى المرتبة الثانية موضوعا وبقي في المرتبة الأولى شكليا ونظريا فقط. فكما قال البخاري: " إذا سقطت السنة.. فسوف يحرِفون معاني ومرادات القرآن كما يُريدون من دون حفيظ ولا رقيب عليهم " وكأنه اعتبر الضابط التشريعي هو السنة والمرويات التي لملمها من البيئة العربية بما اندمج فيها من حكايات العرب، وهكذا صار تراث المرويات قيدا على القرآن، وكأنه لا يمكن فهم القرآن إلا بالنظر إلى المرويات، فأصبحت المرويات هي المتحكم الفعلي في التشريع والتفسير وليس مجرد عوامل مساعدة، كما الوزير الذي فاقت سلطته سلطة الملك وتمكن من تحريك الملك والتحكم في السلطة فعليا وتسيير وإدارة شؤون الدولة عمليا مع بقاء الملك شكلا فقط في المراسم.. وهذا هو الهيكل الذي تسير عليه الشريعة المسيحية، وتأثير المسيحية هذا أكثر خطرا من تأثير اليهودية بمئات المرات، لأن اليهودية رشحت بعض المرويات، بينما المسيحية أدخلت هيكلا مغايرا على الدين، فوُضع لنا دينا جديدا في هيكلية جديدة من شأنها تفعيل آليات معينة للتشريع وتثبيط أخرى، بدءا من صناعة المرويات إلى عدالة الصحابة وعصمة الأئمة، ونظرية الخلافة وغيرها، لأن الفقه الإسلامي حتى عام ١٥٠ هجريا حتى جاء الإمام الشافعي لم يكن يعرف أي شيء من ذلك سوى كتاب الله الذي جاء النبي من أجله، علما أنه لا يوجد قبل ولادة الشافعي أي أحد من الصحابة قد قال

بالوحي الثاني، ومشاهير المحدثين كالبخاري ومسلم وأحمد بن حنبل، وكتبهم، ظهروا مباشرة بعد الشافعي لا قبله، والدين الذي وصلنا صيغ في هذا الوقت(٦).

فقد حاول العرب تغليب سلطة الوزير على سلطة الملك لأن سلطة الوزير(المرويات والقومية العربية) ستعطيهم الصلاحية في التحكم الفعلي في المنظومة بكاملها، فاستفادوا من هيكلية الدين المسيحي في إعادة صياغة منهج الإسلام بما يلبي طموحاتهم السياسية. فتعرض الإسلام للتحريف مرتين؛ الأولى عندما هجر القرآن وسكن في كهف المرويات وما يحوم حولها من تقديس لاعتبارات شخصية لا موضوعية، سواء لاحترام وتبجيل أشخاص الرواة أو أشخاص الفقهاء ورفعهم فوق موضوع العلم ذاته، والمرة الثانية حينما تأثر المنهج الإسلامي بالسياسة، فقد تدخلت سياسة العرب في إعادة صياغة المنهج كي تهضمه الشعوب بالكيفية التي تخدم طموحات العرب، فاندمجت الهوية العربية في الهوية الدينية الإسلامية بادئ الأمر، ثم تغلبت القومية العربية على الهوية الدينية نهاية المطاف بالطريقة ذاتها التي يتمكن فيها الوزير من تحديد دور الملك والتحكم الفعلي فيه. كما فعل اليهود بترك التوراة التي هي كتاب الله والتمسك بالتلمود الذي هو مروياتهم، وهو ذاته ما فعله المسيحيون بتركهم كتابهم واتباع الأناجيل المختلفة، وسار على نهجهم العرب في تركهم كتاب الله واتباعهم كتب المرويات عمليا.

وهذا أمر طبيعي جدا في كافة المجتمعات أن تتمايل بالسلطات إلى أعلى وأسفل، حتى أننا نجد في مجتمعنا المصري، نجد الجميع يضرب المثل بسيدنا إسماعيل في بر وطاعة الآباء باعتبار إسماعيل أفضل من أطاع والده إبراهيم عليه السلام عندما طلب من ابنه إسماعيل أن يذبحه فامتثل الابن لأبيه بقوله: يٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ"١٠٢/ الصافات . وما يتضح من الآية أن إسماعيل لم يمتثل لأمر والده بطلب الذبح وإنما امتثل لأمر الله فرد على والده قائلا (افعل ما تؤمر) لكن في مجتمعاتنا صار الآباء يعشقون هذا المثل الرباني في طاعة الله ويعطونه مسحة أبوية ليكون طاعة للآباء ! يعتبرون مجازا أن إسماعيل استجاب لأبيه وليس لربه برغم أن الآية واضحة وضوحا شديدا جدا.. وذلك في محاولة لتغليب سلطة الأب الأسرية على الأولاد والزوجة.. هكذا الثقافة الاجتماعية تنحرف على المدى البعيد دون وعي.

٦ - نقلا عن د. محمد شحرور، مع التصرف

وهكذا بدأ العلم الشرعي يفقد بوصلته الموضوعية تدريجيا ويتحول من موضوعه إلى أشخاصه، فنحن نحترم النبي ونشكره وندعو له ونصلي عليه كما أمرنا الله، لكننا حتى وإن اتبعنا النبي في صلواته وعباداته ودينه فهذا ليس اتباع لشخص النبي وإنما لرسالته، والرسالة موضوع خارج عن شخص النبي فنحن لا نعبد النبي، وهو لم يخترع الدين وإنما أنزله الله عليه وأرسله مبشرا للناس. وبالطبع هذه الهالة المبالغ فيها من التقديس كانت كفيلة بتعلية نص الرواية على نص الآية وتغليب فقه الرواية على فقه الآية حتى وإن تعارضت معها، فمن يقولون بالنسخ بالرواية لم يذكروا مرة واحدة أن هناك آية نسخت حديثا شريفا وإنما فقط الحديث ينسخ آية ! برغم أن الحديث فيه ما هو مكذوب وضعيف وموضوع، لكن حتى هذا المكذوب تغلب على آيات كتاب الله ونسخها.. وكأن الرسول استقبل الوحي من الله ليقوم هو بجهده البشري بالتعديل عليه وتهذيب أحكامه ! لدرجة أن البخاري دوّن في كتابه عبارة: (ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه) (صحيح رواه أبو داود) منسوبة لرسول الله، وكأن الإسلام قام على منهجين مستقلين متماثلين مثل قضيبي قطار، حتى جاء البعض ليقول أن النبي محمد عليه السلام هو رسول الرسالتين.. وسمى الرسالة الثانية بـ "سنة النبي عليه السلام" في مقابل "الشريعة الإسلامية" أو الرسالة الأولى من الإسلام.. !

وجاءت متلازمة "رضي الله عنه" كبرواز للأيقونات بعدما شاعت ظاهرة تقديس الأشخاص على الموضوعات، لكن لا الله قد رضي عن كل الصحابة ولا كل الصحابة نماذج يقتضى بها، فلهم أخطاءهم البشرية محل الابتلاء والاختبار من الله ولا بشر بمنأى عن الابتلاء، بل إن ذكر رضا الله جاء عرضا لسبب وجيه وليس تقديسا لأشخاص حينما قال: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين رضي عنهم ورضي عنه ومن اتبعهم بإحسان، فهذه الآية ليس مقصودا بها تقديس الأشخاص ولا تحديدهم كأيقونات للقدوة، ولكن تمجيد أفعال قاموا بها وفقا للمنهج وتنفيذا فعليا للمنهج، وكانت هي محل الرضا وسببه وموضوعه، دون ذكر للأشخاص بأوصاف أو أسماء، فقط ذكر الأفعال، حتى أنه لما ذكر الفئة (الأنصار والمهاجرين) لم يقل كل من صاحب النبي ولازمه وآمن به حقا، بل ذكر الفئة بالاسم المشتق من الفعل المرضي عنه، وهو الهجرة إلى الله ونصرة دينه. غير أن من يمكن حصرهم بالفعل في هذه الآية لا يتعدون فعليا ثلاثمائة شخص فقط بينهم ١٥٤ مهاجر كما يذكر ابن إسحاق هم من جاهدوا وصابروا وهاجروا إلى الله والذين استقبلوهم في المدينة ونصروهم وتآلفوا معهم.

أما من يستندون إلى قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... } / التوبة، فقد قال الله في مقابلها ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)/ آل عمران.. وبذلك يكون القرآن قد حفظ اتزان الأمور، وحسم معيار الاتباع في حالة الإحسان، وحذرهم من الانقلاب بعد الإيمان، لأن النفس البشرية بطبيعتها قائمة على التغيرات العقلية باستمرار، فدوام الحال من المحال، والله تعالى يأمر باتباع الفعل بإحسان لا اتباع المنهج دون وعي وإدراك، لأن نهجهم هو محل ابتلاءهم، ولا يوجد إنسان بدون ابتلاء.. فلو تصورنا أن الله طرح ورقة من الأسئلة للبشر وعلى الجميع الإجابة عنها، فمن المنطقي أن كل إنسان يجيب قدر علمه ووعيه وفهمه وحسب ظروفه النفسية في جو الاختبار، لكن هل تأتي الأجيال اللاحقة تتجاهل منهج الله الأصل وتتبع إجابات الصف الأول؟ فبالتأكيد أن بها أخطاء كثيرة ولا يمكن أن تكون جميع الإجابات نموذجية، وحتى ولو كانت فلن تغني عن المنهج الأصل، ثم أن جميع إجابات الصف الأول لو كانت نموذجية جميعها دون أخطاء فكيف يكون ذلك اختبار؟ بل هم بذلك قد أصبحوا أنبياء معلمين وليسو محل اختبار.

غير أن الله قد خلق الإنسان متغير الأطوار ليبتليه في ظروف مختلفة. لأن محل المسؤولية أمام الله هو الإنسان نفسه، ولن يقف الصحابة أمام الله للحساب نيابة عن غيرهم، فإذا كانوا قد أخطأوا في تقديرهم لبعض الأمور نتيجة التغيرات النفسية وتغير الظرف السياسي والاجتماعي. وإلا يكون الصحابة بذلك قد خرجوا عن دائرة الاختبار البشري، وهذا ما لم يقل به الله، فإذا كان الله قد مدحهم في موضع من مواضع القرآن، فإنه قد حذرهم من الوقوع في الخطيئة في مواضع أخرى، وهو ما حدث بالفعل، إذ بدأت خطيئة الصحابة الكبار عقب وفاة الرسول مباشرة وتعالت خلافاتهم عند اقتسام السلطة في سقيفة بني ساعدة وقبل دفن الرسول، ثم وقعت أحداث الفتنة الكبرى الأولى راح فيها سبعين ألف صحابي، ثم الفتنة الثانية راح فيها ما تبقى من الصحابة.. غير أنه في الأصل التشريع هو سلطة إلهية، أي تعليمات ربانية من السماء إلى الأرض مباشرة، ولا يجوز أن يمسها تدخل بشري آخر عبر أي مرحلة زمنية، فالقرآن نزل من السماء مباشرة، وينبغي أن نستقي منه أحكامنا وتشريعاتنا مباشرة دون أن يكون لعثمان عفان دخل في ذلك أو حلقة وسطى تعدل أو تؤثر على العلاقة بين الله والمجتمع، ولا يجوز لأي عربي مهما كان سواء أبي بكر أو عمر أو معاوية أن يتدخلوا في التشريع أو

يؤثروا (حتى ولو إيجابيا) على الصلة بين الله والمجتمع، لأن الله لم يفوضهم في التشريع الثانوي نيابة عنه.

ثم نجد الله تعالى يقول: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) فكيف نتركه ونتبع منهج السلف؟ ثم يقول (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) هذا بالإضافة إلى أنه ليست كل أفعال الرسول وسلوكياته ملزمة لنا باعتبارها أحكام عقائدية، لأن منها ما يخص حياته الشخصية، ومنها ما خص مجتمعه وطبيعية مثل المعارك والغزوات، ومنها ما يخص صفاته البشرية التي تخضع للخطأ والتجربة، فكيف بالصحابة الذين جميعهم من تلك الفئة الأخيرة التي تتراوح تصرفاتهم بين الخطأ والتجربة؟

فالله في هذه الآية لا يأمرنا نحن والأجيال التالية على مدار الزمان باتباع نهج السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، بل يأمرنا باتباع كتابه ورسوله، لأنه لو كان يقصد اتباعنا لهم في المنهج على مدار الزمان والعصور لكان الأولى أن يأمر مباشرة باتباع الرسول وكتاب الله، فهل يأمر الله باتباع الصحابة ورسول الله بينهم؟ وهل أراد الله من هذه الآية أن يخبرنا بأن الصحابة شركاء في النبوة؟ فالآية وقت نزولها كانت أيضا موجهة لهم وبينهم الرسول، وليست موجهة حصريا للأجيال التي ستأتي بعدهم في عصور التاريخ، وهذا يوضح أن المقصود بالآية الأخيرة ليس هو التبعية لمنهج السلف لأن ذلك جاء في أمر منفصل باتباع الله ورسوله، فلا يمكن أن يأمر الله باتباع الله ورسوله في عشرات الآيات، ثم يعود ليأمر باتباع المهاجرين والأنصار في آية أخرى منفصلة عنها دون الإشارة والوصل بين الاثنين لبيان أن الاتباع المقصود بالله ورسوله والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هو ذات الأمر، ولكن جاء كل أمرٍ في سياق مختلف، وليس من منطق أن يقرن الله بين ذاته العلا في التبعية وبين السابقين من المهاجرين والأنصار، لأنهم مهما علت مراتبهم فهم بشر وعرضة للصواب والخطأ، والأمر هنا مخصص لفعل الهجرة وليس لمنهج الإسلام، فالسابقون الأولون قد تركوا أموالهم ومتاعهم وأهلهم وهاجروا من أجل نصرة الإسلام، ونزلت الآية في هذا السياق تذكي من اتبعهم في فعل الهجرة إلى الله ورسوله لا في منهج الإسلام بوجه عام لأنهم بشر ولا حي بمنأى من الفتنة..

غير أن هذه الآية قد نزلت على الرسول وبالتالي لا يمكن أن ينصرف معناها إلى تبعية المسلمين عبر العصور للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من حيث المنهج لأن ذلك من شأنه أن ينفي أحقية الرسول في التبعية عبر العصور، فأصل التبعية محصور لكتاب الله من خلال الرسول، وتسهيلاً على

المؤمنين بعث الله الرسول وخوله التبعية لإرشاد الناس كيف يتبعون منهج الله، فهو الأكثر فهما لمراد الله، لكن ما الغاية أن يأمر الله المسلمين باتباع الصحابة الأولين في فهمهم للعقيدة والسلوك بينما رسول الله موجود بينهم؟، ولأن الآية جاءت في سياق التفرقة المعاصرة بين المؤمنين والمنافقين في سورة التوبة، فضرب الله مثالا للمؤمنين المحسنين وأشار بأسبقية هجرتهم إلى الله ورسوله، وقال كثير من المفسرين أن المقصود بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين حضروا بيعة الرضوان، وقال كثير غيرهم أن المقصودين هم من عاصروا وشاركوا النبي خلال المرحلة الأولى من الدعوة وهي الصلاة تجاه المسجد الأقصى ثم انتقالها شطر المسجد الحرام. أي أن الأمر في النهاية محصور بإطار زمني يجسد فعل الهجرة من دار الشرك إلى الله. فهم سابقون بفعلهم، وليس المقصود جعل أشخاصهم أيقونات مقدسة في كل تصرفاتها، لأن ذلك التقديس يخرجهم عن دائرة الاختبار في الدنيا ويجعلهم معصومين، وهذا غير صحيح، حتى وإن وعدهم الله بالمغفرة ثوابا على ما قدموه سابقا.

وما يفهم من كلام المفسرين ومن المنطق العام أنه ليس المقصود بالآية اتباع أجيال المسلمين التالية لنهج الصحابة بفكرة " التبعية للسلف"؛ فالحديث هنا عن فئة معينة بشأن أسبقيتها الزمنية لنصرة الرسول والهجرة معه وأعمال الخير والتضحيات التي قدموها، لكن ذلك لا يحتم علمهم بكافة أحكام الشريعة ومن ثم يلزمنا باتباعهم في كل تفاصيل حياتهم ولأنهم بشر ولهم أخطائهم، فهذه الآية لا يمكن حملها على أنها فرضت العصمة والحصانة على سلوكياتهم وتصرفاتهم، بل تذكية الله لهم جاءت منصبة على حدث معين قامت به فئة معينة من الصحابة وليس على وجه الإطلاق، فالله قد رضي عنهم لما قدموه من نصرة وتضحيات، وهذا الرضا لا ينصرف إلى قدسية كافة تصرفاتهم التالية باعتبارها مرضيا عنها من قبل الله، لسببين؛ الأول أنهم اختلفوا فيما بعد وفاة الرسول عليه السلام وفي سقيفة بني ساعدة وحاولوا اقتسام السلطة على أساس معايير طائفية، ثم انخرطوا في الفتنة الكبرى الأولى ووقع من بينهم سبعين ألف قتيل وهذه حرب أهلية غير مشروعة، ومن بينهم عثمان عفان، ثم انخرطوا في الفتنة الكبرى الثانية فوقع ما تبقى من الصحابة بين قتلى وجرحى، وهذه أيضا حرب أهلية غير مشروعة. ومنهم كثيرون وقعوا في هذه الفتن برغم كونهم من الأولون السابقين من المهاجرين والأنصار، وهذا ما يؤكد أن الله مدح فعلا معينا فيهم فقط ولم يمنحهم حصانة التبعية المطلقة أو باعتبارهم عدول بالمطلق لأن الإنسان بطبيعته يحيا على التغيرات والتقلبات النفسية والفكرية، وما هذه التغيرات إلا موطئ الاختبار في الدنيا.

غير أن فكرة التبعية للسلف بفكرة عدل كل الصحابة، أي كلهم عدول، وأن الصحابي هو كل من رأي النبي أو سمع منه أو تحدث معه من المسلمين، فهذا المعنى واسع فضفاض، وهو أكثر محاكاة للخرافة من الحقيقة؛ لأن المدينة في أواخر عهد الرسول امتلأت بالمنافقين وراكبي الموجة وطالبي السلطة وطالبي الأمان حتى نزلت سورة الفاضحة التي فصلت في آياتها أحوال المنافقين وصفاتهم. وهذا ما يعني أن نصف مجتمع المدينة كان منافقا، ودون أن يعلم أحد المنافقين بأسمائهم وصفاتهم؟ فكيف نأتي بعد ذلك لنقول أن كل من لم يعرف عنه النفاق فهو صحابي عادل وصادق؟ فالقرآن وقتها لم يصرح أصلا بأسماء المنافقين فكيف سيعرف عنهم النفاق ؟.. أو كيف عرف الفقهاء بعد ذلك المنافقين من الصحابة الصادقين الصالحين العدول إذا كان القرآن لم يصرح بأسماء المنافقين منهم؟

ففكرة أن كل من رأي النبي فهو صحابي، وأن كل صحابي فهو عدلٌ صادق.. فهذه محض لملمة لتاريخ المدينة بنفاياتها وقاذوراتها ومهملاتها حتى الخبيث منها، لأن المدينة لم تكن هي مدينة الله الفاضلة، بل كان فيها المنافقين وضعفاء الإيمان والمؤمنين الكاذبين والمخطئين والمجرمين وكل ألوان النفوس، وجميعهم من العرب بما هو معروف عن طبيعة المجتمع العربي أصلاً، وكما سبق وأوضحنا أن رسول الله لم يرسل إلى مجتمع فاضل ولكن كان العرب هم أسفل شعوب الأرض، وأكثرها فسقا وظلما وفسادا، لدرجة أننا نجد منهم من يصنع صنما من العجوى يعبده ثم إذا جاع يأكله !! فهل ينقلب هذا الصحابي في يومٍ وليلة إلى ملاك خالٍ من الأخطاء؟ فكيف كان عقله حين كان يعبد العجوى ويأكلها عندما يجوع؟ هل كان النبي يعبد العجوى قبل البعثة؟ فأخلاق النبي وأفكاره وسلوكه لم يتغير قبل وبعد البعثة بشهادة أعدائه قبل أحبابه. هذه الطبيعة الاجتماعية ، وهي طبيعة المنشأ ظلت مغروسة في النفوس وإن انجلت بعض الوقت لكن تظل فطرة المنشأ مغروسة لتظهر ملامحها من حين لآخر، وبالتالي فإذا أردنا جمع تراث النبي وأقواله فلا بد من انتقاء الكلام، لا حصد ولملمة كل رخيص ورديء باعتبار الثقة في شخص فلان وأن فلان من الصحابة الذين رأوا النبي وأنهم جميعهم عدول صادقين ، فهذا حتما يعود بنا إلى بوتقة الشرك بالله على خلفية "ما ليس لنا به علم"

وبالرجوع إلى كتاب الله سنجد خمس آيات تحدثت عن المؤمنين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ آيتان عامتان تتحدثان عن رضا الله تعالى عن عموم المؤمنين من لدن آدم، وثلاث آيات تتحدث عن ثلاث فئات من المؤمنين من أمة محمد عليه السلام. أما الآيات التي تتحدث عن رضا الله عن فئة من المؤمنين من أمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهي:

١ـ (لَقدْ رَضِيَ اللَّهُ عنِ المؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونكَ تَحتَ الشَّجرَةِ فَعلِمَ ما فِي قُلوبِهِمْ فأَنزَلَ السَّكِينةَ عليْهِمْ وأَثابهُمْ فتْحًا قَرِيبًا) ١٨/الفتح. هذه الآية حددت فئة معينة بجميع أفرادها، وهم الذين بايعوا النبي على نصرته، لما شهد الله على ما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص.

٢ـ قوله (والسَّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنصارِ والذِينَ اتَّبعُوهُم بإِحسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنْهُ وأَعدَّ لهُمْ جنَّاتٍ تَجرِي تَحتَهَا الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها أَبدًا ۚ ذَٰلكَ الفَوزُ العظِيمُ) ١٠٠/التوبة. هذه الآية سبق وتحدثنا في مدلولها، وهي واضحة كذلك أنها تتناول فئة بوصفهم بأفعالهم لا أشخاصهم وتشترط الإحسان في تبعيتهم

٣ـ (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ ورَسُولهُ ولوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كتَبَ فِي قُلوبِهِمُ الإِيمانَ وأَيَّدَهُم برُوحٍ مِّنْهُ ۖ ويُدخِلهُمْ جنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها ۚ رَضِيَ اللَّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفلِحُونَ) ٢٢/المجادلة. والراجح أنها نزلت في المؤمنين يوم بدر، لكن الآيات بوضوح عام معروفة بوصف الأفعال التي استندت عليها في إطلاق الرضا، وليس فيها أي تخصيص لأشخاص معينين وإطلاق القداسة والعصمة بحقهم، بل جاءت بوصف عام لكل من اتبع منهج الإخلاص.

أما الآيتان العامتان اللتان أبلغنا الله تعالى فيهما برضاه عن المؤمنين عامة من لدن آدم عليه السلام، فهما:

١ـ يقول الله تعالى(قالَ اللَّهُ هَٰذا يوْمُ ينفعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لهُمْ جنَّاتٌ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها أَبدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنْهُ ۚ ذَلِكَ الفَوْزُ العظِيمُ) ١١٩/المائدة

٢ـ قوله تعالى(إِنَّ الذِينَ آمنُوا وعمِلوا الصَّالِحاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خيْرُ البَرِيَّةِ (٧) جزاؤُهُمْ عِندَ ربِّهِمْ جنَّاتُ عدْنٍ تَجرِي مِن تَحتِهَا الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها أَبدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عنْهُمْ ورَضُوا عنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خشِيَ ربَّهُ (٨)) /البينة. وكما يتضح من هذه الآيات الجليلة أن الله يتحدث عن مؤمنين من عباده رضي عنهم ورضوا عنه، وتناولتهم الآيات بوصف أفعالهم لا أشخاصهم.

ثم يقول الله تعالى في محكم آياته: مَنْ عمِلَ صالِحًا مِّن ذَكرٍ أَوْ أُنثَىٰ وهُوَ مُؤْمِنٌ فلنُحْيِينَّهُ حياةً طيِّبةً ۖ ولنَجزِينَّهُمْ أَجرَهُم بأَحسَنِ ما كانُوا يَعمَلونَ (٩٧/النحل، وهو ما يعني بجلاء أن ثواب الله يكون على العمل الصالح بعد الإيمان.. ثم أن الله لا يبخس أحدا عمله شريطة أن يكون معترفا

بوجود الله، أي أن تكون الغاية من العمل الصالح هي وجه الله وانتظار الثواب منه دون غيره، ولم يشترط أن يكون الإيمان على ملة محمد عليه السلام، فيقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)/البقرة

فهذا الخطاب القرآني لم يأت تمجيدا للأشخاص ولا مقيما لهم العصمة من الأخطاء على أي حال بقدر ما جاء تمجيدا للأفعال ومكافأة عليها، لكن الفقهاء اتخذوا هذا الرضا عن الأفعال الموصوف وكأنه قرينة عامة تسحب الرضا على الشخص مدى حياته وتشمل كل تصرفاته، وتجعله معصوما من الخطأ ! مع أن بعضهم اشترك في الفتنة وقتل مسلمين بيده فيما بعد.. وهذا ما يؤكد أن رضا الله ورد على الأفعال التي وصفها قرينة بالرضا وليس على الأشخاص عامة حتى وإن غفر لهم، فأمر المغفرة لهم يجزم بأن هناك فعل خاطئ وعفا عنه الله لكنه لم يجعله حلالا وقدوة مجاملة لهذا الشخص أو غيره.. كما فعلنا نحن واعتبرنا الفتوحات العربية جهاد في سبيل الله مع أنها في الحقيقة غزو وعدوان وهجوم غادر كان غرضه السيطرة على الشعوب ونهب وسلب ثرواتها كما حدث في احتلال الأندلس بقيادة طارق زياد.. وبالتالي فلا مبرر لتذييل كل أسماء المسلمين الذين عاصروا النبي بهذه المتلازمة اللفظية وعددهم يتجاوز الثلاثمائة ألف بالجملة. ثم يؤكد حديث رسول الله على ذات المعنى الوارد في الآية فنجده يقول عندما تجادل عبد الرحمن ابن عوف وخالد ابن الوليد حين قتل خالد بني جزيمة مدعيا أنه أخذ بثأر ابن عوف، قال النبي لخالد: مهلا يا خالد، دع عنك أصحابي، فلو كان لك جبل أحد ذهبا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته)

ولذلك أصبحت الأحاديث المروية تحتل مرتبة الصدارة على القرآن، ويا ليتها مرويات صحيحة بل جميعها مكذوبة على الرسول، وهي محض لمحات ومشاهد مظلمة من تاريخ العرب ولا علاقة لها بالإسلام. ومن أمثلة ذلك ما ورد من مرويات كانت نتيجتها اختراع الفقهاء لركن جديد في الإسلام هو (جهاد الطلب) وهو تجسيد لحقبة الفتوحات العربية وتشريع ديني لتاريخ العرب الأسود، برغم النهي الصريح الوارد عن العدوان والإكراه في الدين. وحديث رجم الزاني وقتل المرتد وقتل الكافر وكلها عقوبات وهمية استمر الفقهاء على ترديدها وتأكيدها عل مدار ألف وأربعمائة عام دون النظر في أصلها وموضوعها، فقط لأنها أكثر تشددا مما ورد بكتاب الله. فلو كانت عقوبة قتل الزاني هي الرجم حتى الموت لكانت عقوبة الإعدام للقاتل أولى من الدية في كتاب الله، وهل تكون عقوبة المجرم

القاتل هي القتل الرحيم أو الفدية، وفي ذات الوقت تكون عقوبة الزاني هي القتل البشع؟ (رجم حتى الموت!).. هذا كله نتيجة تشخيص العلم والتبعية العمياء وتقديس الأيقونات.

وبوجه عام لا نجد هذه البراويز والأيقونات في العلوم الطبيعية، مع أن الطبيعة هي أيضا قانون إلهي، هي القانون الكوني الذي خلق الله الكون عليه، وكشف وفهم هذه القوانين الإلهية لا يقل شأنا عن دراسة السلوك الأخلاقي والمنهج العقائدي للبشر، ومع ذلك لا نجد علماء الطبيعة يخترعون ألقابا وبراويز وأيقونات يقدسون مناهجها في البحث والكشف العلمي، فالعباقرة في الفيزياء كثيرون، وفي الكيمياء كثيرون وفي الطب أكثر، لكننا لا يمكن أن نجد كل أستاذ يستقل بطريقة خاصة في البحث وإنما الطريقة يحددها المنهج العلمي ذاته وضروراته وإمكانات وأدوات البحث ومعطياته.

بينما في العلوم الشرعية نجد ظاهرة الأيقونات أبدعت لنا مصطلح " الإمام " لتبرير التبعية اعتمادا وثقة في رأي شخص وليس اعتمادا علي الأدلة والحجج الموضوعية ، ولذلك نجد الشيعة هم أكثر من يتمسكون بهذا المصطلح ويقدسونه وهم أكثر فئات المسلمين انحرافا عن الموضوعية، وكله ضمن فكرة الإمام المعصوم وخرافات ظهور المهدي والأئمة الاثني عشر. ولو دققنا النظر في مفهوم مصطلح الإمام لوجدناه يقوم علي القداسات الشخصية لشخص معين ومنحه كرامات وصفات غيبية بما يخرجه عن عادة البشر ويمنحه العصمة والقدسية، وهذا كله قائم علي المعيار الشخصي وتخليا عن الموضوع ، وهي ذات النظرية التي ظهرت عند المسيحيين لتقديس الأساقفة والقسيسين ومنحهم قداسة تقترب من النبوة، وهي ذات فكرة الحاخام عند اليهود.

فالأئمة المعصومون عند الشيعة الإثني عشرية هم الأئمة الاثنا عشر من نسل الإمام الأول علي أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي محمد الذين عينهم الرسول محمد في حديث الاثني عشر خليفة (الذين توارثوا العلم والحكمة عن النبي محمد وعلي أبي طالب!)(سلسلة من الأيقونات داخل براويز مذهبة تتوالد أيقونات مستنسخة منها عبر الزمن!)، وهم حسب اعتقاد الشيعة الاثني عشرية أئمة معصومون في التبليغ مثل الأنبياء تماما، وكلامهم تشريعي يعتبر بمثابة الحديث النبوي في تفسير الآيات القرآنية، وتذكر المصادر الشيعية أن مصدر التلقي عند هؤلاء الأئمة هو النقل عن النبي، فينقل كل إمام علمه إلى خليفته من بعده بطريق التوارث الذهبي!. ذلك علي العكس من المعيار الموضوعي الذي تقوم عليه العلوم الطبيعية ، فمهما أصاب العالم من درجات العلم والمعرفة ومن القدرة العقلية

علي اكتشاف الحقائق ومعجزات الله في خلقه، فلا يأخذ لقب يقدسه أو يرفع علمه عن مستوي النقاش الموضوعي (الرازي ـ ابن سينا ـ ابن النفيس ـ نيوتن ـ أينشتاين ـ ابن الهيثم) مع آن هؤلاء قدموا خدمات جليلة للبشرية أعظم ممن حملوا لقب إمام أو قديس أو حاخام، فقط لأنهم لا يطلبون من أحد الإيمان بأفكارهم وإنما يكشفون العلم من أجل العلم، ويظل سند العلم ودعامته هو دليله، وليس عصمة مكتشفه أو صفاته وسلوكه، أو أنه كان يصلى ركعتين قبل كل اختراع.

وأما المذهب السني مبني على مجموعة من الأسس، من بينها القول بوجود مرتبة دينية اسمها الصحبة، وأن من ثبتت له هذه الصحبة فقد وجبت عدالته، وبذلك تثبت أي مروية زعموا وفق معاييرهم أنها واصلة إليه، وبذلك يمكن الاعتداد بها كنص ديني، وتكون بذلك من (السنة المطهرة)، وهذه (السنة المطهرة) لها عندهم الحكم والقضاء على كتاب الله، وهي تشكل أكثر مادة الدين لديهم. ورغم أن هذه الأسس هي مجرد هراء وخبل متعدد الأبعاد إلا أنهم وفقا لها ملزمون بالدفاع عن شخص معاوية وإلا لانهار مذهبهم. هذا المعاوية كان ركنا أساسيا في معاول هدم الإسلام في المجتمع العربي! والحكم على أي شخص (بأنه صادق أو كاذب) لا يكون من حيث انتمائه لطائفة أو جيل معين، وإنما يكون من حيث منظومة القيم والأخلاق الإسلامية، وهي منظومة كبرى من منظومات المنهج الإسلامي الثابت بالقرآن، ومن حيث هذه المنظومة فمعاوية يمثل ما يناقضها في أمور هامة، فهو يمثل بالأحرى مجموعة من الصفات الشيطانية، فلا يجوز لأحد أن يحسبه على الإسلام أو على الرسول بأي حال، فكيف يمكن تقديسه وتحصينه بمصطلح " صحابي جليل" فقط لاعتبار انتمائه لطائفة أو فئة المسلمين الذين عاشوا في عصر النبي ولم يثبت عليهم نفاق ! غير أن هؤلاء المسلمين غير المنافقين هم مجتمع وفيهم مجرمون وفيهم لصوص وفيهم كل ألوان الحياة، ولا يمكن اعتبارهم ملائكة أو التمييز على أساس النفاق لأن المنافق هو كافر في حقيقته، فهل يكون كل مسلم خالٍ من الأخطاء؟

ومعاوية هو في كل الأحوال شخصية تاريخية، ومع ذلك فهم يعتبرونه صحابي جليل لمجرد أنه عاش في عصر النبي! ومن ثم وجب عليهم منحه حصانة " الصحابي" ولذلك ليس لأحد أن يزعم أنه سني، وهو في الوقت ذاته يطعن في شخص معاوية الذي يعتبرونه صحابيا جليلا وعلما من أعلام أهل السنة، فمثل هذا يكون بالضرورة مدلسا أو منافقا أو متبعا لمنهج عشوائي، أما المذهب الشيعي فيعتبر كل من حارب أئمة أهل البيت وناصبهم العداء مرتدا أو منقلبا على عقبيه أو كافرا يستحق السب أو اللعن، فهم يقيمون الدين على معيار قبول أو رفض أشخاص مقدسين لديهم، وليس على معيار ما يوافق أو يخالف

كتاب الله. وعلى أقل تقدير فموقفهم من معاوية متسق مع أسسهم، فهم يرفضون معاوية لأن معاوية بالفعل شيطاني، أما السنة يدافعون عنه اضطراريا حتى لا يحدث اختراق لحصانة " الصحابة" بالجملة. فمؤشر التفرقة المبدئي بين السنة والشيعة هو الموقف من معاوية أبي سفيان. وفي النهاية الشيعة يتبعون الأئمة حتى لو خالفوا القرآن، والسنة يتبعون الصحابة حتى ولو خالفوا القرآن. فالسنة جعلوا تقديس الصحابة جملة بمثابة طقس من طقوس الإسلام وشعيرة دينية وعبادة، والشيعة جعلوا آل البيت فقط ومن نسلهم من الأئمة ركن من ركائز دينهم وشعيرة دينية تعبدية (معيار شخصي بغض النظر عن المبادئ الموضوعية)، فكل العقائد دخل فيها عنصر بشري فصل بيننا وبين الله وحصل علي قدسية دينية لم يأمر بها الله.

أما أصل المنهج أن يكون القرآن هو المصدر الأعلى للأمور الدينية الكبرى، ومنها المصطلحات، لذلك نعتبر مصطلح (الصحبة، الصحابة) محض أيقونة تاريخية لا دينية، ولا صلة له بالتشريع الديني، ولا وجود لمصطلح ديني بهذا الشكل أصلا، وكل ما ترتب على هذا المصطلح هو مادة تاريخية وليست دينية، وبذلك ينهار القول بعدالة (الصحابة) وحجية المرويات المنسوبة إليهم، فحجية المرويات تكون فقط من موضوعها ودليلها وموافقتها لكتاب الله.[٧]

هذه التبعية وتقديس السلف هي ظاهرة نفسية تجسد رابطة التبعية بين الأجيال وبعضها، هذه الرابطة النفسية التي كانت العقبة والتحدي الأكبر أمام جميع الرسل والأنبياء، فكانت مهمتهم الشاقة ليس تخليص شعوبهم من الشرك والضلال، بل تخليصهم من نهج آبائهم القائم على الشرك والضلال، وكما قلنا لو كان الأمر محصورا في مسألة الضلال العقائدي والكفر أو الشرك، لكان من السهل على الرسل اجتيازها لأنهم لديهم من الحكمة وحسن الخطاب والحجة والبرهان وعذوبة اللسان ولينه ما يكفي للإقناع، لكن المشكلة كانت في الرابطة المتينة التي تربط الأجيال بنهج أسلافهم في العبادة والعقيدة، هذه الرابطة النفسية ليس من السهل على الإنسان تحطيمها أو التخلي عنها بسهولة لأنها متعمقة في النفس غريزية في السلوك مستعصية على الفكر، وتتجسد هذه الرابطة النفسية في ظاهرتي النوستالجيا والمازوخية، وهاتان الظاهرتان سنتعرف عليهما في الإضاءة الأخيرة.

ونظرا لأن الله أرسل رسله لتخليص الأمم والشعوب من تبعية السلف عبر العصر، فقد أرشدهم إلى أدوات التخلص من هذه التبعية، ألا وهي العقل " المصدر المعرفي".. فالعقل هو الأداة الأكثر فاعلية في

[٧] ـ منقول بتصرف عن : د. حسني أحمد المتعافي

حياة الإنسان، وهو الذي من شأنه بناء الفكر والعلم والحضارة، ولذلك نجد الله جل وعلا ذكر العقل في القرآن ٤٥ مرة وحصريا حرفيا بصيغة الفعل المضارع، هذا غير مئات المرات وردت بمشتقاته ومدلولاته واسعة المدى.

ومع الربط بين الآيات نفهم قيمة العقل في مقياس القرآن، فالآيات تؤكد على أن العقل والتفكير هما هدف الخلق، ومحل الرسالة والمسؤولية أمام الله، وقد تكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير بـ (لعلّ) التي تفيد بيان الهدف والغاية: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّه لكُمْ آياتهِ لعلّكُمْ تعْقِلون)(البقرة / ٢٤٢ ، وقوله تعالى (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ٥/الجاثية: وقد أكدت بعض الآيات هذا الموضوع ووبخت الناس على عدم تفكرهم وتعقلهم وآخذتهم بعبارة كهذه: أفلا تعقلون. وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية، حيث يقول تعالى: قد بيّنا لكم الآيات إن كُنتم تعقلون). فهذه التعبيرات المختلفة: (لعلّكُمْ تعْقِلون)، (أفلا تعْقِلون)، (إنْ كُنْتم تعْقِلون) تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي: إنّ الله وهب الإنسان العقل كي يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة.

فقد يذكر سياق الاستعانة بالعقل في سياق العملية الفكرية متبوعا بالأداة (لعل) التي تفيد بيان الهدف، وتارة أخرى بأسلوب التوبيخ واللوم لأولئك الذين لا ينتفعون بالعقل والفكر، وقد تتحدث الآية عن (التفكر) بعد استفهام استنكاري؛ (قلْ هلْ يسْتوِي الأعمى والبَصِيرْ أفلا تتفكَرُون)(الأنعام/٥٠). وتنوعت تعبيرات القرآن في هذا المجال، فتارة يكون الأسلوب هكذا (لعلّكُمْ تتفكَرُون) (البقرة/٢١٩)، وتارة يكون (لِقوْمِ يتفكَرُون) (يونس/٢٤)، (والرعد/٣١)، (والنحل/١١)، وتارة أخرى تتحدث الآية عن الفهم العميق، حيث قالت:(انظر كَيْف نصرِّفُ لهم الآياتِ لعلّهُمْ يفْقهُون)(الأنعام/٦٥ بأنواع من البينات (لعلّهم يفْقهونَ) وقد جاءت العبارة هنا بصيغة :لعلّهم يفقهونَ، كما جاءت في مكان آخر بصيغة) :لِقوْمِ يفْقهُون /الأنعام/٩٨)، وفي آية أخرى بأسلوب: لو كانوا

يَفْقَهُونَ (التوبة/٨١)، وفي أخرى: بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إلا قليلا. وكقوله تعالى :(أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أم على قلوبٍ أقفالها) ٢٤/محمد.

وبالنظر إلى أن العقل هو آلة فكرية مستمرة لا تتوقف عن العمل، حتى أثناء النوم.. فنحن نغفل وعقولنا تفكر، ولهذا لم يشر إليه الخالق بصيغة الاسم أو بما يعبر عن حالة السكون، إنما أشار فقط بصيغة الفعل والفعل المضارع للدلالة على حتمية استمراره، برغم أن هناك بشر عقولهم ساكنة لا تتحرك وإن تحركت فهي تتحرك بصورة الجري في المحل، لكن الله تجاهلها لأنها فعلٌ دون حركة فعلية ودون نتاج فكري، ولهذا نجد الله قد ذكى في الإنسان خاصية العقل الديناميكي المتحرك دون غيرها، وهي العقل بصيغة الفعل المضارع الحاضر، مع التركيز على المراد في سياق الخطاب الفعلي الآمر، وليس مجرد قصص قرآني.

فالأمر لا ينحصر في أنَ الله وهب الإنسان العقل كي يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، لأن مجرد إدراك الحقائق في حد ذاتها هي أيضا حالة من السكون، وإنما ورد فعل العقل والإشارة إليه ومشتقاته بالأفعال والجمل وأشباه الجمل، جميعها وردت في سياق تعديل المسار وسياق والتطور والتغير والتقدم للأمام؛ أي تحسين وضع الإنسان في حياته، سواء كان ذلك بأن أمرنا الله بتدبر الكون والمخلوقات، أو أمرنا باتخاذ العبر والعظة من سير الأولين، أو أمرنا بتعديل مساراتنا العقائدية في الحياة. ولن نسهب في إيراد وتعداد الآيات، فالقارئ النبيل أولى بتقليب صفحات المصحف وزيارة الآيات الكريمة.

لكن هناك إشكالية ظهرت نتيجة رشح القومية العربية على غيرها من الشعوب؛ وهي أن العقلية العربية أدبية، بينما الشعوب الأخرى حضارية علمية عملية تطبيقية مثل المصريين، وكما أكدنا بداية أن القرآن نزل باللغة العربية تحديدا ليتحدى العقلية العربية الأدبية اللغوية بالفطرة، لكن القرآن لم يقف عند حدود العرب وتحديهم في لغتهم بإعجازه اللغوي بل شمل كافة شعوب الأرض في نفسٍ واحد ؛ ذلك لأن القرآن ليس نصا أدبيا لغويا بحتا وإنما مادة علمية مصوغة في سياق بلاغي لغوي، وهذا معناه أن القرآن لا يحمل إعجازا بلاغيا فقط وإنما إعجاز علمي عقلي يطال جميع الشعوب المدنية العلمية والحضارية، ولهذا كرر الله لفظة العقل بصيغة الفعل المضارع مراتٍ عديدة ليربط بين الحقائق العلمية التي بني عليها النص القرآني والمنطق العقلي الذي بني عليه العقل البشري،

وبما أن الله ذكر لفظة العقل ودلالاتها ولفظة الفهم ودلالاتها ولفظة العلم ودلالاتها، واحتفى بالميزان العقلي العلمي برغم أن القرآن نص بلاغي، لكنه قال عن الشعر ما يثبت نظريتنا السابقة، فقال تعالى : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ(٢٢٦)/ الشعراء.. فقد وصف الله الشعراء بأنهم في كل وادٍ يهيمون، والمقصود أنهم يكتبون شعرا في كل شيء وفي كل مقال وفي كل مقام سواء كان الفخر أو الهجاء أو المدح أو النفاق الملازم تقريبا لأغلب الشعراء مع خلو الشعر من أي منطق عقلي علمي...

بينما قال عن المنطق العلمي : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)/فاطر.. وهذا ما يعني في الجملة أن الله ذم المبدأ الشعري وأردف بالسبب، ومدح الله المنطق العقلي العلمي في سياق لا يمكن أن يفهمه العرب، لأنه تناول الحديث عن آية من آيات الخلق وسر من أسرار التكوين الفسيولوجي للكون في سورة "فاطر" ، وبطبيعة الحال فهذا الخطاب لا يمكن أن يستوعبه عقل أدبي شعري، بل إن العقل الأدبي حتما سيقف عند حدود الصياغة البلاغية للنص دون إدراك مكنونه العلمي.

ولذلك لم نجد على مدار التاريخ أي تناقض بين العلم الحديث بفروعه وبين محتوى النص القرآني، لكن هذا الشق الأخير (المنطق العلمي في القرآن) ليس من سمات العرب وليس العلم حرفتهم، إنما هم حرفتهم بلاغة النص فقط، وبالتالي لا يجوز الاعتماد على العقلية العربية في تفسير القرآن لأنها عقلية أدبية لا تستوعب حكمة النص القرآني، هي فقط بإمكانها أن تستوعب وتتذوق بلاغته، إنما منطقه العلمي فلا شأن للعرب به، فمنهم من اتبع نهج البلاغة في تفسير القرآن، ومنهم من ابتع نهج اللغة البناء اللفظي والموقع النحوي والإعرابي للكلمات، ومنهم من اتبع سياق العبارة مع حكايات ومرويات العرب واليهود التاريخية وغير ذلك دون أن تصل عقولهم بالاشتراك على منهج علمي يضم الجانب اللغوي والمنطق العقلي العلمي في فهم النص القرآني.

ولذلك ظهرت إشكاليات كارثية في تفسير القرآن، ربما لم تستوعبها الشعوب التي اعتنقت الإسلام تحت سطوة وسيادة العرب، لأنهم أن ذاك فكروا بالعقلية العربية، وتقمصوا العقلية العربية وتسربلوا بثوب القومية العربية على اعتبار أن العرب هم أصحاب لغة القرآن وهم الأقدر على فهمها وتناسوا أن

للقرآن منطق عقلي علمي خارج عن إرادة العرب وأنه ليس محصورا في فن الصياغة اللغوية البلاغية لأنه بذلك يكون نصا أدبيا محضا، بينما بالفعل فالقرآن ليس نصا أدبيا وإنما مادة علمية صيغت ببلاغة لغوية معجزة للعرب وبمنطق علمي معجز لكافة الشعوب، ولذلك ليس من المنطق الصحيح إسناد تفسير القرآن وفهمه إلى أصحاب اللغة الأدبية الشعرية، وبخاصة لسببين؛ الأول هو أن النبي محمد عليه السلام ترك النص القرآني دون تفسير، ولو كانت حدود النص القرآني تنتهي عن حدود الصياغة اللغوية البلاغية لفسره النبي وانتهى الأمر وأصبح بذلك معروفا أو لغزا محلولا للعرب. أما السبب الثاني فهو أن العرب عقلية أدبية سائلة، شعرية فوضوية بالمنطق العلمية، حربية متوحشة فكريا وسلوكيا، فهم ليسو أمناء على الرسالة، ولذلك لا يمكن الوثوق بمروياتهم بذات المنطق المتبع في القرآن، لأننا كما ذكرنا لم ولن نجد أي تناقض في القرآن مع أي حقيقة علمية كشفها العلم الحديث في أي عصر، فأبسط العقول وأعقدها في ذات الوقت تعترف بحجية القرآن، حتى من لم يؤمنوا به لم يستطيعوا التعليق عليه، إنما جاءت أسباب الملحدين والمنفرين جميعها بالاستناد إلى الأحاديث التي (صححها) رواة الأحاديث دون أن تكون صحيحة، لأن الرواة ليس ثقة في كافة الأحوال، وطريقة التوثيق ليست علمية ولا منطقية،

ولذلك خلت كثير من المرويات من المنطق العلمي الذي كاد أن يهدم الإسلام إذا بنيناه على هذه المرويات، مثل أحاديث شرب بول البعير للشفاء من الأمراض، وأحاديث إرضاع الكبير كي يصير محرم للمرأة، وأحاديث مشروعية السبي وجماع النساء في ميدان الحرب وخطف الأطفال والشباب والبنات واستعبادهم وبيعهم في أسواق النخاسة، وأحاديث غمس الذبابة في كوب اللبن إذا سقطت فيه بحجة أن بها جناح يحمل الداء والآخر يحمل الدواء. ! برغم أن الله لم يتبع المنطق العلمي في إقناع العرب وإنما اتبع فقط الحجج والبراهين التي يفهمونها، وبالطبع لم يكونوا يفهموا الفحص المجهري لجناح الذبابة، ولا معنى أنها تحمل داء في جناح ومضاد حيوي له في الجناح الآخر، بل إن هذه الروايات لو قالها النبي للعرب وقتها لكانوا جميعا انقلبوا عليه ولن يستطع أن يثبت لهم، وبذلك يكون النبي قد هدم دينه بنفسه لأنه جاء لهم بدين لا يستطيع إثباته، وهو لم يُبعث ليأمرهم بأن يؤمنوا به لمجرد أنه مشهور بينهم بالصادق الأمين، وإنما أتاهم بالحجة والبرهان الذي يفهمونه بيّنا لا يستطيعون التعليق عليه.. وحتى المنطق العلمي الذي جاء به القرآن ورد في سياقات استفهامية إعجازية وفي حدودهم العقلية فقط مثل

قوله تعالى : أفلا يَنظرُونَ إلى الإبلِ كَيفَ خلِقتْ (١٧) وَإلى السَّماءِ كَيفَ رُفِعت(١٨) وَإلى الجِبَالِ كَيفَ نصِبَتْ (١٩) وَإلى الأرضِ كَيفَ سُطِحَتْ (٢٠) فذكِّرْ إنمَا أنتَ مُذكِّرٌ (٢١)/ الغاشية..

فالقرآن يقول لهم كي تؤمنوا بوجود الله فلتنظروا كيف خلق معدات الإبل، ومعدات الإبل تحديدا مركبة تركيبا ثلاثيا معقدا بخلاف سائر الكائنات والعرب يعرفون ذلك جيدا، وقد خاطبهم الله خطابا علميا لكن في حدود ما تستوعبه عقولهم، حتى أن العرب في عز إبداعهم الشعري وعبقريتهم اللغوية لم يكونوا يعرفون من قواعد الحساب أبعد من العدد ألف، ولهذا التزم القرآن حدودهم المعرفية حينما قال: ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر". بينما مروياتهم تقول أن في جناح الذبابة مكروب مجهري وفي الجناح الآخر غدة مجهرية تفرز مضاد حيوي إنزيمي، وعلى الجميع أن يصدقوا ذلك دون نقاش موضوعي حتى.. ! لأن الذبابة إذا حطت على الجسد فلن تترك له مكروبها هي وحدها وإنما كافة الميكروبات التي حملتها من مقالب القمامة ومجاري الصرف الصحي وروث المواشي وغير ذلك كثير.. فالفرق شاسع بين الخطاب القرآني العلمي الذي اعتمد المنطق العقلي لكل مجتمع ولكل عصر، والخطاب المروياتي غير المنطقي.. وغير ذلك في جميع آيات القرآن لا نجد حقائق علمية واضحة وصريحة تتحدى العقل العربي لأنهم بطبيعة الحال عقلية أدبية ولن يتمكن النبي من إثبات الحقائق الكونية لهم، ولم يكلفهم الله بتعمية عقولهم والسير خلفه دون فهم ودون وعي إنما أعطاه الحجة والبينة بقدر ما تستوعبه عقولهم، إنما العرب فيما بعد رحيل النبي حاولوا أن يقنعوا الشعوب الأعجمية بأن الإيمان هو أن تصدق كل ما لا تفهمه وكل ما نقله إليك العرب ولا تعقله بمجرد أن أرفق به اسم النبي نقلا عن فلان ابن فلان إلى الجد التاسع للراوي فلان الأخير هذا ! وفي الحقيقة يكون المؤلف هو العرب والمخرج هم العرب ثم علماء الحديث بعد مائتي عام من التأليف والتعديل والإخراج الشفوي!..

وكانت هذه وسيلة اتبعها العرب (كأداة سياسية) في إحكام السيطرة على الشعوب التي سطوا عليها بتعمية عقولهم واحتوائهم بالعاطفة الدينية وإخضاعهم كليا كمرحلة من مراحل التوطين السياسي بالتسليم للعرب، ورفع شأن العرب بأنهم حملة الإسلام وجعلهم شركاء في النبوة والرسالة باعتبار دورهم القناة الأمينة. بينما المصريون منذ فجر التاريخ كانوا حريصين جدا على تدوين علومهم ومعارفهم فهل كان من المتوقع أن يهملوا ثروة نبي؟ ويتركونها تتناقل شفويا إلى ما لا نهاية؟ فها هو الحكيم المصري يحث على طلب العلم؛ مبينًا شرف أن يكون الإنسان كاتبًا؛ فيقول: " أعد نفسك لتكون كاتبًا وحاملا لقلم المعرفة، إنها أشرف مهنة وأجدر وظيفة تليق بك وترفع من شأنك وتقربك

من المعبودات، إن ما يخطه قلمك سيعيش أبد الدهر، تعلم كيف تحرك أصابعك القلم وكيف يحرك عقلك أصابعك، فلا يخط قلمك إلا الحكمة والمعرفة وما ينفع الناس، إن مما يخطه قلمك هو أعظم ميراث وأثمن من إرث في الأرض ناحية الشرق أو مقبرة ناحية الغرب -"!.. ويبين لنا الحكيم «آنى»،- من خلال وصيته لابنه - مدى احترام المصري القديم للمتعلم، وإنصاتهم لحديثه، إذ يقول: إذا كنت راسخا في العلم، فإن الناس ستعمل بكل ما تقوله لهم، ادرس العلم وضعه في قلبك، يطيب كل ما تقول". [٨]

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى نقطة سواء نتفق عليها وهي أن القرآن نزل على محورين، كما القطار الذي يسير على قضيبين، المحور الأول لغوي بلاغي يتحدى العقلية العربية الأدبية الشعرية، والمحور الثاني لأصحاب العقول والعلوم من شعوب الحضارات المدنية، ولذلك لا يجوز إسناد تفسير القرآن للقومية العربية لأنها عاجزة عن إدراك مضمونه كليا، غير أن القومية العربية ليست أمينة في نقلها للرسالة، فقط القرآن لم يتمكنوا من العبث به نصا وكتابة لأن النبي تركه بينهم نصا كاملا ومنظما مسطورا ومكتوبا ومنسقا مرتبا ومرقما سوره وآياته.. بينما المرويات التي صنعها العرب فصارت مثل نبات الهالوك يتطفل على جذر النبات الأصلي فيمتص فحواه ويعدمه مضمونا ويحل محله ويكمل مسيرته في النمو حتى يصل إلى مرحلة أن يستظل النبات الأصلي بظل الهالوك المتطفل، وهذا ما أوضحه حرفيا الإمام البخاري حين بدأ في جمع الروايات والأحاديث كي تكون حافظة وضابطة لتفسير القرآن !، وبدأت المرويات العربية الشفوية تتوالد وتتزايد بمرور الزمن خلال مائتي عام بطريقة الصناعة المحلية الأصيلة وتحمل ماركة القومية العربية في التأليف والإخراج، وإن حاول المحدثين إسناد التأليف إلى النبي والإخراج إلى العرب.. هذه المرويات تضاربت في كثير من معانيها ومضامينها ولن يتمكن من فك لغزها إلا الشق المتبقي من القرآن وهو محور المنطق العقلي العلمي.

وفي هذا الشأن سنتعرض لإشكالية طالما لم يحسم أمرها العلماء وتركوها كالمعلقة، وتتلخص هذه المسألة في موضوع التقويم الذي اعتمده الإسلام في الشعائر والعبادات والصوم والحج وتحديد الأشهر الحرم والأعياد، فهل اعتمد الإسلام على النظام التقويمي الذي كان سائدا عند العرب أم سار عليه

٨- مقال للدكتور حسين دقيل بعنوان : " من أخلاق المصريين القدماء ج(٧).. احترام العلم والعلماء " منشور على موقع ساسة بوست بتاريخ : 23يونيو، ٢٠١٨ على الرابط : https://www.sasapost.com/opinion/respect-for-science-and-scientists/

٢٢ سنة ثم ابتدأ نظاما تقويميا جديدا في حجة الوداع. وهل هو تقويم قمري أم تقويم شمسي؟ أم نظام يقوم على الدمج بينهما؟

التقويم القمري

الغريب حقا أن العرب حتى عصر نزول الإسلام كانوا عباقرة في الشعر بلغاء لدرجة الخيال وبلهاء وبلداء جدا في مبادئ الحساب لدرجة أنهم لم يكن لهم تقويم ثابت يحسبون عليه أعمارهم حتى بالسنين.. وقد استخدم العرب عبر فترات تاريخهم الطويل قبل الإسلام أسماء للأشهر أخذت أسماءها من طبيعة التغيرات المناخية بما يعني ارتباطها بالتقويم الشمسي، فالعرب لم يكن عندهم نظام ثابت للتقويم ولا نظام للحساب وأرقام عربية خاصة بهم، وإنما كل مادتهم العلمية اقتبسوها من جيرانهم، الأرقام اقتبسوها من الهنود والتقويم اقتبسوه من اليهود وحروف الكتابة اقتبسوها من السريان أو من الخط المسند وهكذا.. ولم يؤرخوا لمجتمعهم بأنفسهم وإنما كتب عنهم غيرهم.. وخلاصة ما ورد في بعض الكتب التاريخية أن العرب قبل الإسلام كانوا يستعملون الشهور لكنهم لم يعتمدوا تقويما خاصا بهم يؤرخون به أحداثهم، وإنما اعتمدوا في تأريخهم لأحداث حياتهم الهامة على حوادث تاريخية متناثرة، مثل عام الفيل وعام بناء الكعبة وعام انهيار سد مأرب باليمن، وعام وفاة كعب ابن لؤي، وحرب الفجار وغيرها.. وكان العرب يتداولون ثقافتهم وتاريخهم شفويا ودون كتابة وتدقيق. فأول نصٍ مؤرخ بالأبجدية العربية هو نقشٌ بثلاثة لغاتٍ (ليس في بلاد العرب وليس بيد العرب) وإنما في منطقة الزبداني في سوريا عام ٥١٢ ميلادية...

بينما اهتم أجدادنا المصريون القدماء بكل ما له علاقة بالعلم والكتابة والتدوين والحساب، سواء كان الأدوات المادية (حروف الكتابة والألوان وصناعة الورق) أو كانت النظم المعرفية مثل جداول الحساب والهندسة الفراغية والمستوية، وكذا نظم التقويم الشمسي والقمري وعدد الأيام وشهور السنة وفصولها بل وصلوا إلى تقسم الفلك السماوي إلى مناطق زمنية تتغير خلالها السماء على مدار السنة، فلم يكتفوا برصد الملامح البيئية على سطح الأرض ونوعية النباتات والمحاصيل والمناخ والأمطار والرياح والحرارة التي تقسم السنة إلى الفصول الأربعة، إنما رصدوا تغيرات السماء ذاتها على مدار السنة وعرفوا أن البيئة السماوية أيضا تتغير فوقهم بشكلٍ دوري وبحركة دائرية، فقاموا بتقسيم السماء إلى ١٢ منطقة زمنية، وحددوا ملامح كل مساحة زمنية، والأبراج هي تقسيمات للمشهد السماوي الذي تتغير وتتابع مشاهده مثل الشريط السينمائي على مدار السنة. وعدد الأبراج على ١٢ برجا، وهي تغطي شريطا دائريا من الخريطة الكبرى للسماء. وتحمل الأبراج أسماء معينة ولكل منها زاوية رصد

محددة، والشمس تمر ببرج واحد في كل شهر شمسي وتسمى الشهور الشمسية.. ويتم حساب الشهور الشمسية بناءً على مراقبة بروج السماء الاثني عشر الرئيسية التي تمر بالأرض خلال دورتها السنوية حول الشمس، وتظهر هذه البروج فوق سطح الأرض بالعديد من الأشكال التي تميّزها عن بعضها البعض، وتبدو لنا في حركتها الظاهرية كأنها تمر باثني عشر برجا، وتعرف باسم منازل الشمس، حيث تبقى في كل واحد منها الشهر، ثم تعود في نهاية السنة الشمسية إلى البرج الذي بدأت منه، وهذه البروج هي: الدلو، والحوت، والجدي، والثور، والحمل، والسرطان، والأسد، والجوزاء، والميزان، والقوس، والعقرب، والجدي. وقد اختلفت النظرية من حضارة لأخرى لكنها في النهاية قامت على ذات الأساس، فقد نقلت الحضارة الرومانية أسس النظرية للخريطة الفلكية من الحضارة البابلية، بينما استقلت الحضارة المصرية بنظريتها الفلكية الخاصة بها ورسمت الخريطة الفلكية باختلاف عن نظيرتها الرومانية ذات الأصل البابلي.



وكانت الشهور عند الفراعنة تبدأ مع بداية فصول السنة، والفصول ناتجة عن الحركة الفلكية للأرض حول الشمس، وهي أربعة وكل فصل ثلاثة أشهر، والشهر إما ٣٠ أو ٣١ يوم حسب تقسيم الفصول، وكل شهر ٣ أسابيع، وكل يوم عدد من الساعات والدقائق. ورسموا ذلك بكل دقة في خريطة الأبراج الفلكية على سقف معبد دندرة (في عهد الاحتلال اليوناني)، والمعبد مبني بأيادي مصرية ومهندسين مصريين ومنقوش بفرشاة رسامين وأزاميل نحاتين مصريين وبلغة أجدادنا الفراعنة، وحتى لا يقول العرب أن اليونان هم من علمونا، سنجد دائرة البروج الأوربية القديمة مختلفة في أساسها عن دائرة البروج الفرعونية... وكان أجدادنا المصريون الفراعنة يستخدمون نظام الكبس

في ضبط تعداد السنة الشمسية ذاتها لأنهم حسبوا دورات الفصول الأربعة فوجدوا أن السنة تعادل ٣٦٥ يوم وربع، فقاموا بإضافة يوم إلى شهر توت كل أربع سنوات كي ينزل الفيضان في نفس الموعد كل سنة وبالتزامن مع ظهور نجم الشعرى اليمانية تجاه الشرق بعد السادسة صباحا لمدة خمس دقائق في اليوم الأول من كل سنة شمسية..

ونجم الشعرى اليمانية أسمه "سبدت" عند قدماء المصريين ويطلق عليه الآن اسم نجم سيريوس بالإنجليزية (Sirius) . وقد لاحظ قدما المصريين أن يوم توافق شروق الشمس مع شروق الشعرى اليمانية هو حادث نادر وفريد من نوعه لا يتكرر إلا مرة واحدة كل ١٤٦٠ سنة، وجعلوا منها عيدا أطلق عليه عيد (شروق سبدت) وهو ما سجله سنورينوس الكاتب الروماني الذي أكد أن هذا الحادث يوافق غرة توت عام ١٣٩ بعد الميلاد، وأصبح هذا العام بمثابة نقطة أساسية ثابتة في التاريخ. وبحسبة بسيطة يمكننا العودة بالزمن للوراء لنعرف أن هذا التوافق حدث فعلا في ثلاثة أعوام هي ١٣١٨ قبل الميلاد، و ٢٧٧٦ قبل الميلاد، وعام ٤٢٣٦ قيل الميلاد .. وهكذا استمر التقويم الفرعوني منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد، وما زال ساريا حتى يومنا هذا، حيث يتم إضافة يوم من شهر فبراير كل أربع سنوات وهي السنة الكبيسة ليصبح شهر فبراير فيها ٢٩ يوم... وكان المصريون يصنعون المسلات الفرعونية المشهورة في العالم ليس باعتبارها أعمدة للفخامة الملكية أو مجرد نصب تذكارية، إنما كانت لها وظائف فلكية أخرى، كانوا يستخدمونها كـ مزولة أو ساعة دقيقة لحساب الوقت، وقد صنعوا رأسها مدببا رباعي الأضلاع كما أضلاع الهرم بالتمام وبدرجات حسابية ونظرية هندسية دقيقة جدا لتساعدهم في تحديد الفصول الأربعة وبداية كل فصل، والاتجاهات الأربعة، حتى أن ضلع الهرم الأكبر يشير إلى زاوية القطب الشمالي بدقة بالغة.



... نعود إلى شبه جزيرة العرب.. وموضوع التقويم عندهم بكل بساطة واختصار[٩] كان العرب قبل الإسلام بعدما اضطروا لاستخدام التقويم يتبنون التقويم القمري والشمسي متداخلين لأنهم يعدون الشهور مع دوران القمر وتغير منازله مع الليالي، ويعتبرون اكتمال السنة مع دوران الفصول الموسمية (الصيف والربيع والخريف والشتاء) والمعروف أن التقويم القمري في حقيقته تقويم شهري وليس تقويم سنوي، بمعنى أن القمر في دورته يعطي شهرا من الهلال إلى المحاق ولا يعطي سنة، فلا تجد علامة معينة تدل على اكتمال أو تجدد سنة قمرية، وإنما تتكرر الشهور القمرية بصورة متماثلة إلى ما لا نهاية ودون أي علامة فارقة بين الشهور وبعضها.. بعكس الشمس التي تعطي يوما ليل مظلم ونهار مضيء، وتعطي سنة (فصول أربعة مختلفة مناخيا) وتعطي تقسيما شهريا للزمن لكن التقسيم الشهري الشمسي لم يكن معروفا عن العرب بسبب جهلهم، (هكذا وبمنتهى البساطة حتى يستوعب الجميع، لأن الأرض عند دورانها حول نفسها أمام الشمس تقلب الليل والنهار فتعطي بذلك الأيام، ثم بدوران الأرض حول الشمس تعطي شهورا شمسية (البروج) وتقلب الفصول الأربعة وبذلك تعطي سنة كلما تكررت الفصول) أما الأشهر القمرية فهي مجرد تعداد لليالي التي يستغرقها القمر في دورانه حول الأرض من الهلال إلى المحاق، وهو يكمل دورة كاملة كل شهر تقريبا، وبطريقة منفصلة تماما عن التقويم الشمسي..

٩ـ منقول عن أبحاث عديدة مع التصرف، ومنها مقال للأستاذ علي سعداوي ومقال للدكتور محمد شحرور و المفكر نيازي عز الدين وأبحاث أخرى.

ولذلك تجد الأشهر القمرية تدور على السنة الشمسية، بمعنى أننا لو حسبنا ١٢ شهرا قمريا سنجدهم أقل من سنة شمسية بفصولها الأربعة.. وبفارق ١١ يوما في كل سنة شمسية؛ لأن الشهر القمري أقصر من الشهر الشمسي بيوم تقريبا، ولأن السنة القمرية ليست حقيقية وإنما مجازا جعلوا كل ١٢ شهر قمري سنة (فقط للحساب) لأن القمر لا يعطي سنين وإنما شهور فقط متماثلة وراء بعضها دون أي فارق يميزها، ويبقى عنصر التمييز الوحيد ناتج عن أثر التغيرات المناخية الشمسية على سطح الأرض، وهذا ما يعني حتمية تثبيت الشهور القمرية مع هذه الملامح البيئية والتغيرات المناخية الشمسية على سطح الأرض وإلا انسلخ التقويم القمري مع نفسه مثل سهم ضاربٍ في الظلام بلا ملامح... لأن السنة القمرية حسابية وليست فلكية، أما السنة الشمسية فهي سنة حقيقية فلكية ناتجة عن دوران الأرض حول الشمس، لذلك استبعد أجدادنا الفراعنة القمر تماما من نظام التقويم واعتبروه مجرد سراج منير لليالي، واعتمدوا في كل نظمهم الحسابية الفلكية على الشمس، أما بعض الأمم الأخرى قامت بحساب الشهر وفقا للقمر وحساب السنة وفقا للشمس؛ لأن القمر ليس له سنة ولم يعرفوا أن للشمس شهر فلكي صحيح، فأخذوا من القمر الشهر ومن الشمس السنة ليؤسسوا تقويم لهم يعدون به الأيام والسنين..(وهذا بالطبع ليس العرب وإنما شعوب أخرى لأن العرب عقلية أدبية ولا تجهد نفسها في تكملة ما ينقصها من حاجات، بل تعتمد على الاستهلاك فقط سواء استهلاك طعام وسلب ونهب وخطف نساء جاهزة للنكاح وأطفال جاهزة للاستعباد أو حتى استهلاك المعرفة الجاهزة).. هذه الشعوب الأخرى (على الأرجح السريان) استخدمت الشهر القمري كتكملة للسنة الشمسية، فأصبح عندهم سنة شمسية تنقسم إلى شهور قمرية، فنتج عن ذلك فارقا بين الأشهر القمرية والسنة الشمسية، بمعنى أن كل ١٢ شهرا قمريا ينقص عن السنة الشمسية ١١ يوما. لأن السنة الشمسية تساوي ٣٦٥ يوما ، والاثنا عشر شهرا قمريا تساوي ٣٥٤ يوما فقط.

ولتعويض هذا النقص وضعوا نظاما يسمونه " نظام الكبس" وهو مختلف من شعبٍ إلى أخر، وكان اليهود أكثر من ضبط هذه المسألة يعملون بنظام الكبس بطريقة دقيقة وهي إضافة ٧ شهور إلى كل وصلة زمنية مكونة من ١٩ سنة، أي حساب(٧ شهور x٣٠ يوم = ٢١٠ تتم قسمتهم وتوزيعهم على ١٩ سنة فيكون نصيب كل سنة ١١يوم، فتكون السنة (١٢ شهر قمري + ١١يوم) = سنة شمسية كاملة). وبذلك تتساوى السنة الشمسية مع السنة القمرية التي يحسبون لها ١٢ شهرا فتكون السنة شمسية والشهر قمري وهو نظام بالغ الدقة والوضوح ويجعل الشهر القمري ثابتا في نفس الموعد كل سنة. كل

ذلك الجهد والتعب من أجل تقسيم السنة إلى شهور فكان هذا أمرا صعبا لأنهم لم يعرفوا أن الشمس تقسم الزمن إلى شهور فلكية وهي البروج التي عرفها المصريون القدماء وسهلت عليهم كل هذا العناء ما جعلهم يستبدون القمر من حسابات التقويم.

وكان العرب قبل الإسلام بل وأثناء الإسلام يطبقون نظاما مشابها لنظام الكبس اليهودي، ولكن بطريقة ساذجة إلى حدٍ ما وعلى أرجح الأقوال أنهم كانوا يضيفون شهرا كل ٣ سنوات كما يقول المسعودي، وذلك بسبب جهلهم بطريقة الكبس عند اليهود، ويذكر البيروني أن العرب بدؤوا في تطبيق نظام الكبس قبل الإسلام بمائتي سنة، وطبعا استمر هذا النظام حتى عصر البعثة، وينتج عن نظام الكبس عند العرب ثبات الأشهر القمرية، وهذا هو السبب الذي طبقوا من أجله نظام الكبس، وهذا هو لب موضوعنا وبيت القصيد، لأن الشهور القمرية أصبحت ثابتة ومتوافقة مع الأشهر الشمسية، ولذلك نجد أن شهر رمضان اسمه مشتق من الرمضاء وهي شدة الحر لأنه كان يأتي كل سنة في فصل الصيف (سبتمبر) هذا كان ي عهد النبي، كما أننا إذا حسبنا السنة الهجرية الآن سنجد أن رمضان هو الشهر التاسع في السنة الهجرية، وكان قبل الإسلام وأثناء حياة النبي محمد كل شهر هجري يأتي في موعده كل سنة، رمضان في الصيف وذو الحجة في الشتاء وربيع في الربيع..إلخ. وبذلك يكون اسمه رمضان على مسمى، كما أننا سنجد شهر الربيع الأول والربيع الثاني يأتي كل سنة متوافقا مع الربيع من حيث الاسم وموضوعه والظرف المناخي الناشئ عنه (موسم الربيع)، فالعرب كانت تسمي الربيع لارتباع الغنم والإبل عند اخضرار الأرض بعد هطول المطر، وجمادى هو شهر الحصاد وجماد الحبوب في سنابلها، وشوال (الشهر العاشر وكان موعده ثابت يعادل أكتوبر) وسمي بهذا الاسم لأنه يأتي في موسم تزاوج الحيوانات حيث قال العرب (الناقة اللاقح التي تشوِلُ بذنبها للفحل) واسم الشهر مشتق من الفعل(شالت، شال، شوال، شوال، شيال.. وذي القعدة بسبب القعود عن الإغارة، وذي الحجة يناسب موسم الحج السنوي ، وصفر : سمي بذلك لإصفار مكة من أهلها (أي خلوها من أهلها بعد خروجهم للإغارة بمجرد انتهاء شهر المحرم)

وقيل : سَمَوا الشهر صفرا لأنهم كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صِفرا من المتاع (أي يسلبونه متاعه ويتركونه صفر اليدين ... إلخ) ، هذه هي أصل المسميات الحقيقية وهذا هو المنطقي وهو الصحيح. وكانت أشهر السنة الشمسية والقمرية مرتبة بحيث أن المحرم (يبدأ بالقمر المولود فى ديسمبر) وجمادى الأولى (يبدأ بالقمر المولود فى يناير) وجمادى الثانية (يبدأ بالقمر المولود فى فبراير) وربيع الأول (يبدأ بالقمر المولود فى مارس) وربيع الثاني (يبدأ بالقمر المولود فى أبريل) وصفر (يبدأ بالقمر

المولود فى مايو) ورجب (يبدأ بالقمر المولود فى يونيو) وشعبان (يبدأ بالقمر المولود فى يوليو) ورمضان (يبدأ بالقمر المولود فى أغسطس) وشوال (يبدأ بالقمر المولود فى سبتمبر) وذو القعدة (يبدأ بالقمر المولود فى أكتوبر) وذو الحجة (يبدأ بالقمر المولود فى نوفمبر).

وكانت الأشهر الحرم مُعظمة في شريعة إبراهيم عليه السلام منذ القدم، واستمر ذلك باقيًا، فكان العرب قبل الإسلام يعظمونها ويحرمون القتال فيها، وهي أربع أشهر من التقويم العربي وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب تسمى "الأشهر الحرم"، وهذه الأشهر الحُرم يوضع فيها القتال، وكان الهدف من هذا التقليد هو تمكين الحجاج والتجار والراغبين في الشراء من الوصول آمنين إلى أماكن العبادة والأسواق والعودة بسلام، فكان العرب يقعدون فيها عن القتال والإغارة ويقيمون فيها أسواقهم بعكاظ وغيرها ويحجون إلى الكعبة وهم آمنون فى سفرهم وإقامتهم من الغارات والسلب وقطع الطريق. فشُرعت الأشهر الحرم لتأمين الناس من شرورهم لأنهم قوم يقتاتون على الإغارة على القوافل التجارية والأدبية وقوافل الحجاج القادمة من كل حدبٍ وصوب. وظروف تحريم هذه الأشهر والأحداث الدورية المتكررة عليها من مواسم الحج والعبادة والتجارة والأسواق، كل ذلك يؤكد أن هذه الأشهر كانت تأتي في ذات المواعيد كل عام بالتلاؤم مع نظام التقويم الشمسي الذي يتحكم في المواسم والفصول ورحلات الصيف والشتاء التجارية.. لكن ما حدث بعد ذلك كان كارثة.. لأن العرب بطبعهم أمة جهل أمة أدب وليس علم، ومن السفاهة أن تسند لها مهمة ضبط علم.. من الممكن أن تسند للعرب مهمة ضبط بيت شعر، إنما ضبط نظام تقويم حسابي دقيق فهذا مستحيل.. هذه الكارثة تتلخص في نظام آخر فوضوي أدخله العرب على نظام الكبس، فبعدما كان الكبس لضبط التقويم القمري وتثبيت الشهور مع فصول السنة ومن ثم ثبات الأشهر الحرم مع أسباب تحريمها ومواقيت الحج والعبادة والتجارة، جاؤوا بنظام "النسيء" ليحرروا الأشهر الحرم عن مواعيدها وأسبابها فتفتح لهم فسحة وباب للكسب والرزق من نهب القوافل التجارية وقوافل العبادة والحج والإغارة عليهم في مواسمهم الثابتة سنويا، فاخترعوا فكرة تأجيل صيام شهر رمضان مثلا إلى شوال كي يتفرغوا في رمضان للسلب والنهب!

والغريب العجيب أن نجد بعض الأساتذة العاشقين للدفاع عن أخطاء التراث كمجنون ليلى يقولون بأن التقويم العربي قبل الإسلام كان قمريا وأن الأشهر أخذت أسماءها بالفعل من البيئة والظروف لكن ذلك كان فقط في وقت التسمية أي بدأ رمضان في الرمضاء وربيع في فصل الربيع للمرة الأولى فقط ثم

تحرك بعد ذلك ولم يعد شهر ربيع يأتي في فصل الربيع كما بدأ وإنما تحرك نتيجة اختلاف السنة الشمسية عن السنة القمرية ! لكنهم لم يفسروا لنا وضع الأشهر الحرم، فهي أصلا من طابعها أن تظل ملازمة لأسبابها، بمعني المحرم يأتي في فصل شتاء وتم تحريم القتال فيه لتأمين قوافل الحج والتجارة والعبادات وغير ذلك أي تشريع الأشهر الحرم كان لتحريم وتجريم الإغارة في أوقات ومواسم معينة من السنة تظل ثابتة كل سنة، فإذا تحرك شهر المحرم إلى فبراير ثم مارس ثم إبريل، هل تتحرك معه صفة الحرمة ؟ وهي المقصودة من تحديد الشهر في مواسم التجارة والعبادات؟ هل تتحرك معه مواسم الحج والتجارة ومواعيد ورود القوافل التجارية والأدبية؟ فما الفائدة من التحريم إذن؟ ليكون القتال حرام سنة واحدة ثم ٣٢ سنة حلال حتى يعود الشهر إلى معاده الأصلي؟ ! ثم إذا كانت الأشهر تتحرك تلقائيا فلماذا ابتدع المشركين نظام النسيء؟ لماذا قاموا بتحريك وترحيل الأشهر الحرم عن مواضعها طالما هي تتحرك أصلا وتبتعد عن مواسمها ومناسباتها طالما أن أشهر التحريم تتحرك بعيدا عن مناسباتها الموسمية؟ غير أنه توارد عنهم قولهم: «شهر رجب شهر للزرع، وشعبان شهر السقي للزرع، ورمضان شهر حصاد الزرع.«.

وهذا ما يؤكد أن الأشهر كانت تتوالى مع المواسم وفي ذات المواعيد كل عام ولم تلتقط أسماءها وتتحرك عبر الزمن إلى ما لا نهاية، أي أنها لم تحمل أسماءها من مناسباتها في المرة الأولى عند صدور قرار التسمية فقط لتنفرط وتنطلق بعد ذلك بعيدا عن مناسبات التسمية، وإنما كانت تتكرر في ذات مواعيد التسمية، وإلا كان العرب أطلقوا على الشهور مسميات مختلفة عن ظروف البيئة ومواسمها، كانوا أسموها بأسماء الآلهة أو الشخصيات القومية التاريخية عندهم طالما هي لا تتعلق بظروف الواقع والزرع والحصاد والمطر.. ذلك لدليلٍ آخر هو أن تحريم الأشهر الحرم لم يأت من مخيلة العرب وإنما من الديانة الحنيفية الإبراهيمية، وقد أكد النبي عليه السلام احترام ذات الأشهر وذات المواعيد عندما قال في حجة الوداع "... السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات" "ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمَادى وشعبان." ومن الملاحظ أن النبي سمّاه تعيينا "رجب مُضر" باسم القبيلة الوحيدة التي كانت تحترمه قبل الإسلام على شريعة إبراهيم.. والقرآن جاء في الأيام الأخيرة وأقر هذا التحريم صراحة وأقر بأن التلاعب فيه زيادة في الكفر حينما قال: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ...). فهو لم يبدأ عملية تشريعية جديدة ويضع لها أحكاما جديدة، إنما اكتفى بالتأكيد

على حرمة هذه الأشهر وتوضيح حدودها وأن التلاعب فيها زيادة في الكفر. غير أن اليهود أيضا كانوا يعانقون هذه الأشهر بالتقويم الشمسي المكبوس عندهم.

فيقول الألوسي في تفسيره : النسيء؛ والمراد به تأخير حرمة شهر إلى آخر، وذلك أن العرب كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر فيستحلون المحرم ويحرمون صفرا، فإن احتاجوه أيضا أحلوه وحرموا ربيعا الأول، وهكذا كانوا يفعلون حتى استبدال التحريم على شهور السنة كلها... وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة لظروف وأسباب تحريمها ومواسمهما، ولو زادوا في عدد شهور السنة بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراما أيضا..

فالعرب بطبيعتهم الشعرية وعقليتهم الأدبية الفوضوية لم يلتزموا حتى بنظام الضبط الذي اقتبسوه من اليهود لضبط تقويمهم وتثبيت الأشهر الحرم في مواعيدها الدورية مع مواسم الحج والتجارة ليأمن الناس شرورهم، فكانوا يشعرون بالحرمان من القتال والإغارة والسلب والنهب في هذه الشهور الأربعة ويشعرون أنها طويلة جدا لا يستطيعون الصوم طوالها عن القتل والسلب والنهب !! ولذلك عمدوا إلى تأجيل (تأخير-تنسئ) الأشهر الحرم التي حلت وهم مشتاقون للقتال، فيقومون بتأجيل الشهر والشهرين إلى ما بعده، وإن لم تكف السنة فيمددونها إلى ثلاثة عشر شهرا وأربعة عشر شهرا... وهكذا حسب احتياجهم للحرب والقتل والإغارة.. فكان العرب أصحاب حروب وغارات فشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها وقالوا: إن توالت ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئا لنهلكن، وكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه ويستحلون المحرم.. كانوا يتحايلون على الشرع بذات الطريقة التي اتبعها أهل السبت من بني إسرائيل الذين نسخهم الله. والخلاصة أنهم تلاعبوا في التقويم على محورين؛ الأول (تأجيل حرمة شهر إلى ما يليه وهذا هو ما يسمي النسيء) والثاني (توسعة السنة إلى أكثر من ١٢ شهر وقد تصل ١٥ شهر كي تستوعب عدد الشهور التي أجلوها قبل ذلك) وهنا لا بد يقع كارثة على نظام التقويم القائم على الكبس لتثبيت مواعيد الشهور، فقد قاموا أصلاً بزيادة عدد الشهور أي هدم التقويم وهدم نظام الكبس المعمول خصيصا لضبط التقويم!

ولذلك جاء القرآن ليضبط البوصلة من جديد، على ذات المحورين ويعيد التأكيد عليهم فيما فرضه في شريعة إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ... ((أي نفهم ضمنيا أن عدد الشهور

١٢ شهر فقط بينهم أربعة حرم، وليس ١٥ شهر بينهم ٤ حرم)) وفي الآية التالية حرم النوع الثاني من النسيء، فقال:(٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)/التوبة.

وبذلك أبطل الله ما كان يفعله كفار قريش من تمديد السنوات بزيادة عدد الشهور وترحيل حرمة الشهور إلى غيرها لتواطئ مناسبات وفرص الإغارة لديهم.. ومن الملاحظ أن هذه الآيات نزلت ضمن سورة التوبة في أواخر حياة النبي عليه السلام، وجاءت الآيات ضمن سياق الحديث المفصل عن الكفر والكافرين والعذاب والمعذبين والنفاق والمنافقين ودرجاتهم وأحوالهم وصفاتهم وسلوكياتهم، وبالتالي فقد جاءت تتميما للقرآن وتحصينا للعقيدة ضد كل ما ساد المجتمع العربي من فساد فيما قبل، وبالطبع لم يكن النبي محمد مقصودا بهذه الآيات في فعله هو، بل كان المقصود بها سلوك الشرك الذي اتبعه العرب فيما كانوا يحلون ويحرمون الأشهر الحرم ويؤجلون حسب حاجتهم للإغارة.. أما النبي محمد فقد أقام وأصحابه كل شعائرهم الدينية وفقا لنظام الكبس عند العرب مع ضبطه ودون نسيء، وصام هو وأصحابه تسع سنوات شهر رمضان في مواعيده الدورية الثابتة بالتعديل والضبط على التقويم الشمسي.. وحج اثنين وعشرين عاما وفق هذا الضبط.

ونقف هنا وقفة سريعة ربما عبرها الفقهاء بغمضة عينٍ فأدت إلى كارثة نعيشها إلى اليوم منذ أكثر من ألف عام، ألا وهي توقف نظام الكبس وبالتالي انفصال التقويم القمري بذاته مستقلا عن التقويم الشمسي بينما التقويم القمري ليس تقويما وإنما فقط تواتر للشهور، وكان النبي يضبطها بالكبس كي تعادل السنة الشمسية وتعود الشهور القمرية في مواعيدها الدورية كما كان رمضان في الرمضاء وربيع في الربيع وكلٌ في موعده.. إنما ما حدث أن العرب بعد رحيل النبي توقفوا عن نظام الكبس، أو ربما كسلوا يضيفوا شهر كل ٣ سنوات أو نسوا موعد الإضافة في غمرة الفتن والصراعات السياسية لأنهم ليسو أمة حساب وضبط، خاصة بعدما أبطلوا فكرة الأشهر الحرم ولم يعد هناك أشهر حرم وصارت كل أوقات السنة إغارة وقتل وسلب ونهب، وقالوا أن آية تحريم القتال في الأشهر الحرم تم نسخها (برغم أنها نزلت قبيل وفاة الرسول) لكنها ربما نسخت نفسها بعد وفاته كي تفتح لهم طرق القتال على مصراعيه ! وبمجرد أن أبطلوا الأشهر الحرم واشتغلوا قتل في الناس ليل نهار بصفة عرضية مستمرة، فم تعد هناك فائدة ترجى من ضبط وكبس الشهور والتأكد من مواعيد الأشهر

الحرم لأن السنة كلها صارت حلال، ومن هنا توقفوا عن نظام الكبس وبدأ عد شهور القمر بصورة مستمرة، وفصلوا التقويم القمري وجعلوه مستمرا ما أدى إلى تناقض مواعيد الشهور مع مواعيدها الأصلية الموسمية، فأصبح رمضان في الشتاء وربيع في الخريف وجماد في الربيع ..إلخ. ثم بدأ المفسرون في محاولة لإعلاء كعب الصحابة وتحصينهم عن الخطأ فنسبوا الخطأ للنبي نفسه ! يا الله !!

قالوا أن هذه الآيات التي وردت في سورة التوبة آخر حياة النبي جاءت فاصلة لما قبلها عما بعدها ! ولاغية لنظام التقويم القائم على الكبس وبعضهم أنكر وجود الكبس من الأساس برغم أن تسمية الشهور العربية حتما تدل على ثباتها ووجود الكبس، وقالوا أن النبي قام بتعديل التقويم بعد هذه الآيات وكأن النبي وأصحابه حجوا ٢٢ سنة خطأ وصاموا تسع سنوات من عمر دعوته في شهر خطأ ليس هو رمضان ويحج في الشهر الخطأ ليس هو ذو الحجة، قالوا أن القرآن جاء في السنة الأخيرة ليصحح له الخطأ فيقول له " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِندَ اللهِ اثنَا عَشَرَ شَهرًا فِي كِتَابِ اللهِ..." ! يا الله .. هل إلى هذه الدرجة تصوروا أن النبي يصوم تسع سنوات خطأ ويأتي القرآن في السنة الأخيرة ليوبخه بهذا الخطاب ؟ ألم يكن من الأولى وضع التقويم الصحيح مع بداية فرض الصيام حين قال الله "كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم" ؟ هل يتركه الله تسع سنوات يصوم ويحج في مواعيد خطأ ثم يقول له إن صيامك وحجك كان خطأ يا محمد ! وما عليك إلا تعديل التقويم من اليوم ! .. وهل يترك الله نبيه يحج خطأ مع المشركين بنظام النسيء ٢٢ سنة ثم يقول له في نهاية العمر أن النسيء زيادة في الكفر ؟ ومبدئيا لا يمكن أن يتحدث الله إلى نبيه بهذه الخطاب ويصف صلاته وحجه وصيامه بأنه زيادة في الكفر بعد هذه الرحلة الدعوية، إذن كان النبي لا يتبع موضوع النسيء، فماذا كان يتبع ؟ هل كان يتبع نظام الكبس ؟.

أو لنتساءل هل جاء القرآن حرم النسيء وحرم الكبس معا ؟ أم حرّم النسيء بنوعيه ؟ أم أن النبي كان يحج ويصوم على نظام العد القمري الحالي دون كبس منذ البداية ؟ ولم تعدل هذه الآيات مساره لأنه كان صوابا من البداية؟ (في هذا الفرض الأخير، هذا النظام -التقويم الهجري الحالي بدون كبس- لم يكن موجودا أصلا، فما كان موجودا في المجتمع العربي منذ البداية هو التقويم الأصلي (شهور قمرية + كبس = سنة شمسية) وأدخل عليه المشركون نظام النسيء. هذان النظامان فقط ولا ثالث لهما. إذن الاحتمال القائم إما أن يكون النبي صام وحج وأصحابه ٢٢ سنة بنظام التقويم مع الكبس أو بنظام النسيء (واحد منهما فقط ولا ثالث لهما)، وهذان احتمالان، والصواب منهما أن النبي كان يصوم

ويحج وأصحابه بالتقويم العربي الأصل بنظام الكبس لأنه من غير المتصور أن يكلف الله نبيه بالصوم وفق نظام خاطئ ثم يتركه يستمر على الخطأ طول عمره الدعوي ثم يصحح له الخطأ في السنة الأخيرة... بل إن خطأ العرب كان واضحا جدا ولا يمكن القول بأن النبي قد سار معهم قبل نزول هذه الآيات لأن النص القرآني ذاته يثبت بحقهم تلاعب لغرض واضح وليس تبعية نظام يخل بشريعة الله دون وعي، وكما يقول ابن كثير (كانوا يحلون صفرا عاما ويحرمون المحرم عاما و يحرمون صفر عاما ويحلون المحرم عاما فذلك هو النسيء) [١٠].

غير أننا على قناعة كاملة بأن القرآن ليس نصا أدبيا وإنما مادة علمية بحتة صيغت بأسلوب بلاغي، ما يعني أننا حين نتفكر في قول الله إنما النسيء زيادة في الكفر، لم يتحدث عن النسيء باعتباره شهر أو مدة زمنية محددة وإنما (علمية تحايل على حدود الله) فلم يذكر النسيء كشهر في الآية كما ذكر رمضان (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان...." مع الوضع في الاعتبار أن الكبس كان نظام ثابت يتم بإضافة شهر كل ٣ سنوات بانتظام ودون تلاعب، وهذا ما يجعلنا نقرأ في الآية بعدها عن نظام الكبس وإنما مقصودها عملية تحايل متقطعة أو غير منتظمة، فالآية تقول أن الكفار يحلونه عاما وهذا وجبت صحته، ويحرمونه عاما وهنا يقع موطن الكفر، فهم بهذا يواطؤا ما حرم الله. فالآية لم تقل أن إحلاله وإحرامه كلاهما خطأ بل فقط عند إحرامه ليواطئ عدة الأشهر الحرم. وهذا يعني أن من الواجب علينا إحلاله كل عام. أي أن القرآن رأى فيما يفعلون فوضى وخلط بين الصواب والخطأ بالتبادل وليس كل التقويم الذي يتبعونه خطأ وحرام، إنما فيه النوعين وعلينا ضبط الأمور، إذن الآية قصدت تحريم النسيء (تأجيل الأشهر الحرم لغرض اقتناص فرص الإغارة) دون تحريم ضبط التقويم بالكبس لأن ذلك كان من شؤون المجتمع العلمية الراسية التي أقرها القرآن ضمنا بعدم إثبات حرمتها أو عدم التعرض لها.

نعود للآيات الكريمات مرة أخرى؛ قال تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ

١٠ ـ د. أحمد خلف – عن كتاب البداية والنهاية لابن كثير، المجلد الثالث الجزء الخامس الصحيفة: ١٧٨، طبع دار الريان للتراث القاهرة ـ ١٩٨٨ . في مقال بعنوان: النسيء العدد السابع – منشور بتاريخ في الجمعة ٠٨ فبراير ٢٠٠٨م على موقع أهل القرآن

زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)/التوبة.

المفسرون قالوا أن الآية الأولى تأمر بوقف نظام الكبس الذي صام وحج عليه النبي طوال عمره لأن الله قال أن عدة الشهور اثني عشر في كتاب الله. وقالوا أن الآية الثانية " إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.." هي تحريم للنسيء الذي ابتدعه العرب المشركون، وبذلك أبطلوا الكبس والنسيء.. واستمرت هذه الكارثة من عهد الصحابة إلى يومنا هذا ! وبعضهم قال أن النسيء هو الكبس ! بما يعني تحريم الاثنين في خطاب واحد، بينما النسيء يعني التأخير والإرجاء والترحيل كمن يقوم بتأجيل صيام رمضان إلى شوال دون عذر.. هذا هو النسيء أما الكبس فهو زيادة شهر معدود جملة واحدة نهاية كل ٣سنوات وقبل بدأ العد في السنة الجديدة لضبط التقويم، وليس بغرض تحريك الأشهر الحرم، فلا يمكن أن ينصرف الكبس إلى معنى النسيء لا بالمعنى ولا المبنى، لا بالفظ ولا بالفعل، إنما الفقهاء والمفسرون قالوا النسيء هو التأخير وهو الكبس أيضا ! فحرموا كليهما وبذلك وضعونا في نظام نسيء قرشي من نوع جديد استمر ١٤٠٠ سنة حتى يومنا هذا ! نسيء جديد يقوم على تعجيل الأشهر الحرم بمعدل ١١ يوم كل سنة، فإذا صومنا رمضان هذا العام في موعده، فالسنة القادمة نصومه قبل موعده بأحد عشر يوما والتي تليها قبل موعده باثنين وعشرين يوما، وهكذا إلى أن يعود إلى موعده الأصلي مرة كل ٣٣ سنة !

أصبحنا نصوم في مواعيد خطأ ونحج في مواعيد خطأ فقط نسميها بمسميات صحيحة (شعبان ورمضان وذو الحجة لكنها ليست في مواعيدها الصحيحة بل إنها تتغير لتدور على كل فصول السنة ! بينما الحقيقة أن الله حرم النوعين من النسيء في الآيتين؛ ففي الآية الأولى حرم زيادة السنة إلى ثلاثة عشر شهر وأربعة عشر أو خمسة عشر شهر (يتخللها أربعة حرم فقط)كما كان يفعل مشركو قريش. وفي الآية الثانية حرم النوع الثاني من النسيء وهو ترحيل الأشهر الحرم عن مواضعها ودون إضلال في العدد، فالسنة ١٢ شهر كما هي وبها أربعة حرم ولكن أحد الأشهر الحرم تم تبديله مع شهر آخر ، هذا هو الصنف الثاني من النسيء.. وبذلك الآيتان تكملان بعضهما في منع زيادة شهور السنة (مع تثبيت عدد الأشهر الحرم) ومنع تبديل الأشهر الحرم.

غير أننا لو بصمنا بسلامة التقويم الهجري الحالي، فستكون هناك ورطة وقع فيها الرواة والفقهاء بشأن رواية صيام يوم عاشوراء (اليوم العاشر من شهر المحرم) (بغض النظر عن كون هذا اليوم عيد فصح أو غفران، فالمقصود في هذه الفقرة أنه يوم صيام اسمه عاشوراء)؛ بعد أن وجد النبي اليهود يصومونه

بقولهم أنه اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون، (البخاري ٢٠٠٤ –مسلم ٢٦٥٩، ٢٦٥٨)، ونحن نعرف أن اليهود يحسبون تقويمهم بنظام الكبس الدقيق جدا، بإضافة ١١,٠٥ يوم لكل سنة قمرية.. لأن التقويم الأصلي العبري هو نظام تقويم شمسي، وكذا التقويم(الغريغوري) الميلادي تقويم شمسي، واليهود لا يعرفون نظام تقويم قمري وإنما حساباتهم كلها على التقويم الشمسي وإن استخدموا الشهور القمرية في تقسيم السنة ثم يضيفون لها مدة الكبس المكملة كي تعادل السنة الشمسية، وما زالوا حتى اليوم، فيجعلون الشهر القمري ثابتا في نفس الموعد كل سنة بالتقويم الشمسي، (وهذا ما اعتبره الفقهاء المسلمون خطأ وقاموا بتحريمه)، فلماذا أخذ النبي عاشوراء من اليهود وهي على تقويمهم المكبوس؟ ولماذا لم يقل النبي لليهود أو على الأقل لأصحابه أن هذا اليوم ليس يوم عاشوراء لأن حساب اليهود به نسيء أو كبس؟، فإذا سلمنا بكلام الرواة والفقهاء بأن النبي ألغى نظام الكبس مع النسيء، فلماذا لم يلغ عاشوراء في ذات الوقت برغم أنها على نظام الكبس؟ وعندما قرر مخالفتهم خالفهم ليس في التقويم وتعداد الأيام، وإنما قال نصوم التاسع والعاشر من ذات الشهر الذي يصومون فيه العاشر؟ أي أن النبي كان يصوم رمضان كل عام بالتزامن مع تقويم اليهود المكبوس ويصوم معهم العاشر من محرم في ذات اليوم الذي يصومون فيه عاشوراء كل سنة ودون خلاف عن اليهود ودون ترحيل لهذا اليوم مع أنهم يكبسون كعادتهم. ولو كان النبي قد قام بتعديل تقويمه القمري في السنة التاسعة كما يقولون فلماذا لم يلغ صيام عاشوراء بعدما تبين خطأه ؟ إنما هو لم يتعرض لعاشوراء التي تتبع نظام كبس اليهود... والغريب أن المسلمون ما زالوا يصومون يوم عاشوراء حتى الآن لكن بحسابات مختلفة عن اليهود، أي أننا اليوم نصوم عاشوراء وهمي، يلف ويدور على جميع شهور السنة بينما عاشوراء الأصلي اليهودي ثابت ! ، أما المسلمون فيتغير اليوم في كل سنة وأصبح عاشوراء اليهودي في وادي وعاشوراء الإسلامي في وادي آخر، برغم أن النبي أخذه منهم وقال أنا أولى منكم بموسى!.. ثم إذا كان الله قد حرم النسيء وفهمه المفسرون على أنه (كل زيادة أو ترحيل في الأيام أو أشهر السنة القمرية بما في ذلك الكبس لأن مشركي قريش كانوا يتلاعبون بالأشهر الحرم ويحلونها عاما ويحرمونها عاما) فهل كان اليهود يكبسون لذات الغرض؟ أم لضبط التقويم العربي على تقويمهم العبري الشمسي؟

في الواقع لم يحدث أي تعديل للتقويم في عهد النبي وإنما أحدثه العرب والرواة والفقهاء في خيالهم بعد رحيله، لأن النبي كان يصوم ويحج طيلة السنوات التسع على الوجه الصحيح بضبط التقويم القمري على التقويم الشمسي بنظام الكبس المعروف في عصره، وإنما جاء خطاب القرآن في هذا السياق في سورة التوبة وفي سياق تشخيص ظاهرة نفسية عقلية تسود المجتمع العربي وهي والنفاق والتقلب

وعدم الثبات على مبدأ، فذكر الله في معرض حديثه عن الشرك والنفاق موضوع النسيء وتحليل ما حرم الله من الأشهر الحرم، وأنه زيادة في الكفر، وموضوع النسيء كما شرحناه سلفا مختلف تماما وكليا عن نظام الكبس الذي ابتعه اليهود والنبي، فالنسيء فوضى التأجيل والإرجاء حسب الحاجة إلى قتال ونهب وسلب، وأما الكبس فهو نظام ضبط حسابي فلكي دقيق... إنما المفسرون صدقوا على كلام الصحابة والرواة بعد رحيل النبي وقالوا أنه في السنة العاشرة توقف الكبس، وقالوا أن النسيء والكبس كلاهما تلاعب في التقويم وكلاهما حرام، ولذلك أوقفوا نظام الكبس وفصلوا التقويم القمري عن ضبطه الشمسي فأصبح عاقرا إلى اليوم، ولم يتأملوا لحظة هل يكون نظام الكبس مخالفا لقول الله " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ..." ؟ وهل يمكن أن يخاطب الله نبيه بهذا الخطاب بعدما قضى عمره الدعوي كله على هذا النظام؟ يقول له إن ما فعلته يا محمد على مدار تسع سنوات صيام واثنين وعشرين عاما حج أنت وأصحابك هو خطأ فادح ومخالف لكتاب الله؟ هل يتحدث الله في شأن أبي لهب ويترك نبيه محمد يصوم خطأ ويحج خطأ؟ ... والغريب أن العرب والمفسرين يؤكدون ذلك ويقولون أن النبي غير التقويم بعد حجة الوداع وترك نظام الكبس حينما قال " «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم؛ ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان». واعتبروا ذلك عدول من النبي عن نظام الكبس وانتهاء ووقف له..

وهذا الحديث الذي قاله النبي عن استدارة الزمان لا يعني عدوله عن نظام الكبس أبدا وإنما ما حدث أن بعض قبائل العرب كانت تحرف الأشهر الحرم بأنظمة مختلفة وتصادف عند حجة الوداع أن كان حجهم مع حج النبي في الوقت الصحيح، ولهذا قال النبي استدار الزمن أي انضبط التقويم عند الجميع وما علينا إلا أن نسير عليه، كمحاولة منه لوضع حد النهاية لفوضى النسيء ومن يتمسكون بتراتبها.. ولأن موضوع زيادة ١١ يوم على ١٢ شهر القمرية لجعلها مساوية للسنة الشمسية ليس مخالفا لكتاب الله لأن الشمس هي من الناموس الكوني الذي خلقه الله في الطبيعة وهي أيضا من كتاب الله، غير أن قول الله " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ..." يقصد به إبطال النوع الفاضح من النسيء الذي ابتدعه العرب حينما أقبلوا مرة على ترحيل الأشهر الحرم عن مواعيدها، ومرة أفضح حينما زادوا شهور السنة إلى ثلاثة عشر وأربعة عشر وأحيانا خمسة عشر لتتسع للأشهر الحرم التي أجلوها من أجل القتال والنهب والسلب.. فالأمر أوسع من حصر كلام الله في الأحد عشر يوما التي ضبط

بها النبي صيامه وحجه على مدار اثنين وعشرين عاما، إنما قول الله إن عدة الشهور اثني عشر شهرا يقصد بها تحريم ما فعله العرب من زيادتها إلى ثلاثة عشر وخمسة عشر..إلخ..

غير أنه عندما نزلت الآية لم يكن هناك تقويم قمري أصلا ليقول عنه الله إن عدة الشهور ١٢ شهر، التقويم الذي كان موجودا في هذا الوقت تقويم شمسي يتم تقسيمه شهور بأداة خارجية عنه هي القمر، وتقويم تعني عد السنوات بالفصول الشمسية (وصلات زمنية متساوية كل وصلة فيها فصول أربعة). ولا يمكن صرف معنى الآية إلى أنها أمر ببدء تقويم جديد سنوي على أساس كيان ليس فيه سنة وهو القمر، ويكون الأمر بكلمة (عدة الشهور) التي تعني سنة. لأن كلمة سنة تخص الشمس وحدها، وكلمة عدة الشهور تعني سنة. أما القمر فلا يوجد له سنة وعلى من يستطيع تحديد ملامح السنة القمرية أن يقدمها.

بل إننا من المنطق العلمي الذي تعلمناه من القرآن ذاته نجد أن سياق الآية يقطع حتما ويلزم بتطبيق نظام الكبس على التقويم القمري لضبطه؛ لأنه عندما يقول الله أن عدة الشهور اثني عشر، فهذا معناه أن الله يقول السنة ١٢ شهر عند الله، أي نطق كلمة سنة موجزة في عبارة "عدة الشهور"، فكلمة العدة هنا مقصود بها السنة، وكلام الله هنا ليس أمر وإنما إخبار بحقيقة كونية موجودة في الكون الطبيعي الذي هو كتاب الله عندما خلق السماوات والأرض. فالنص القرآني ليس أمرا بتقسيم الزمن إلى وصلات كل وصلة ١٢ شهر، وإنما إخبار وإعلام بشيء موجود في الكون عند بداية الخلق، وطالما كان إخبارا بحقيقة كونية موجودة إذن علينا أن نبحث عن هذه الحقيقة ونتحقق من وجودها لا أن نقوم بتنفيذ هذا الإخبار بيدنا، كما لو قال الله أنه يخلق الإنسان أطوارا (نطفة فعلقة ثم مضغة ثم عظاما...إلخ. فهذا إخبار عن حقيقة موجودة في كتاب الخلق وليس معناه أمر يجب أن ننفذه بمعرفتنا .. وهذا يختلف كليا إذا قرأنا قول الله " خذ من أموالهم صدقة..." لأن هذا فعل أمر معناه وجوبية وقابلية التنفيذ بمعرفتنا، وعلينا أن نبحث عن المقدار ونحدد القيمة الشرعية للزكاة، أما إذا قال الله " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" فهذا معناه إخبار عن حقيقة كونية موجودة عند بداية الخلق وغير قابلة للتقدير بمعرفتنا، وهذا ينبغي فهمه في ضوء الطبيعة والحقائق الفلكية التي تقول بأن السنة هي من صنع الشمس وهي عبارة عن أربعة فصول واثني عشر شهرا. وبالمنظور العلمي الفلكي فالقمر ليس له عدة شهور (وصلة زمنية أو دورة فلكية تتكرر كل ١٢ شهر) ولا يصنع سنة أصلا أي ليس له دورة فلكية مكونة من ١٢ شهر قمري

عندما تنتهي تتكرر، إنما القمر يعد شهور متماثلة وتتكرر إلى ما لا نهاية دون أن يعدد سنوات، كما خط الإنتاج الذي ينتج كرات متماثلة بمعدل واحدة كل دقيقة ودون توقف.. هكذا القمر يصنع شهور متسلسلة متماثلة متواصلة باستمرار. وقول الله أن عدة الشهور اثني عشر شهرا لا يعني أن نقوم نحن بتقطيع الزمن القمري إلى وصلات متماثلة بحيث تكون كل وصلة ١٢ شهر لأن ذلك معناه أننا صنعنا عدة شهور بمعرفتنا مماثلة للتي أخبر عنها الله وليست التي أخبر عنها الله، لأن التي أخبر عنها الله مقطعة جاهزة ولها علاماتها ودلالاتها الثابتة كحقيقة كونية منذ خلق الله السموات والأرض.

أما السنة فهي تقويم شمسي فلكي وطالما ربط الله السنة بالشهر فيكون قد ربط الشمس بالقمر، لا أن نصنع للقمر سنة من وحي الخيال ثم نقول عليها أنها في كتاب الله، لأن القمر في مساره الفلكي لا يعد سنوات إنما يعد شهور فقط متماثلة. غير أننا لو عدنا لتقويم أجدادنا المصريين الفراعنة لوجدنا أن الشمس تعطي سنة وتعطي شهور كذلك، حيث تتواتر الأبراج السماوية الاثنا عشر على مدار العام كاملة بالتمام والكمال، والمصريون يقسمون السنة إلى ١٢ شهر شمسي هي شهور السنة القبطية الحالية، فإذا قلنا أن الشمس هي من كتاب الله ، فسنجد السنة الشمسية ١٢ شهر شمسي (١٢ برج)، وهذا ما يعني أن الله حينما قال إن عدة الشهور اثنا عشر شهرا فكلامه معادلة رياضية تطابق حقيقة فيزيائية كأساس وإخبار عنها وليس أمر للبشر بصناعة سنة قمرية بمعرفتهم، وإذا قمنا بتكملة ١١ يوم على ١٢ شهر قمري لتكون سنة شمسية فكيف يكون ذلك نسيء؟ بل إن ذلك هو الذي يتوافق مع أسباب فرض حرمة الأشهر الحرم، وهي أسباب موسمية شمسية.

ويقول تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)٥/يونس، أي أن الله ربط علم عدد السنين والحساب بربطه حركة الشمس مع القمر، لأن الشمس تعطي التقويم السنوي الموسمي والقمر يعطي التقويم الشهري المعروف للجميع. وطالما قال الله أن عدة الشهور ١٢ عندما خلق السماوات والأرض فهذا يقطع بأن هذا التعداد معلق على حركة هذه الأجرام والأفلاك السماوية (بحركة فيزيائية علمية) وليس مجرد حسبة نظرية نكررها كلما عد القمر ١٢ دورة ونقول بذلك أنه أكمل سنة، بينما القمر لا يعد سنوات هو فقط يعد شهور تتكرر وتتماثل إلى ما لا نهاية، والسنة تعقدها الشمس فقط. وليس غريبا أن يبدأ صيام الشهر برؤية الهلال بينما يبدأ صيام اليوم برؤية ضوء الفجر وينتهي صيامه بغروب الشمس وليس ظهور القمر . فالصيام نفسه معلق على الظاهرتين الفلكيتين معا لأنهما مرتبطتان دائما

في حياتنا، وكذلك نصلي بتوقيت الشمس في كل يوم وكل صلاة.. أما الغريب فهو أن القمر وحده يعجز عن أن يبني تقويما صحيحا بمفرده، ولو فرضنا أن شعبا من الشعوب بنا على القمر تقويم فما هي الفائدة منه ؟ هل يعرف مواعيد المطر من هذا التقويم القمري؟ هل يعرف مواعيد الرياح والزرع والحصاد؟ هل يعرف مواعيد البرد ودرجة الحرارة؟ هل يتحكم القمر في أي شيء في حياتنا؟ هل سيعرف الأشهر الحرم؟ بالأسباب الموسمية التي شرعت تحريم هذه الأشهر؟ فأسباب تحريم الأشهر الأربعة كلها أسباب شمسية تتكرر في مواعيد دورية مع فصول السنة، ولا علاقة لها بالقمر إنما القمر هو أداة في الوصول لها... فقط سيعرف من التقويم القمري موجات المد والجذر البحري كل شهر على الشواطئ! لأن القمر في الأساس تابع من توابع الأرض مثله مثل الكويكبات الصغيرة التي تدور حول الكواكب التسعة السيارة، فالقمر يدور حول الأرض كعاكس ضوئي فقط، بينما الشمس هي المتحكمة في حياتنا كاملة، في العمل والراحة والنوم والحركة والزراعة والمناخ وفصول السنة وتعاقب الليل والنهار..إلخ.

فالقمر وتقويمه ليس غاية دينية في حد ذاته وإنما وسيلة وأداة لإدراك الحياة، الحياة في الأشهر الحرم بتحريم القتال، مع دعم هذه الأداة بتكملة تقويمه بالكبس لمن لا يعرف الشهر الشمسي. وفيما عدا ذلك فلا فائدة تتعلق بتقويم قمري سوى الفراغ العقلي الذي عاشه العرب ١٤٠٠ سنة في وهم و هم يعتبرون أن الحياة جعلت من أجل العبادات والشعائر، بينما هذه الشعائر والعبادات ركن من أركان الحياة، فتحولوا من العمل والحركة والنشاط الشمسي إلى الفراغ والسكون القمري، تركوا كل النشاط الشمسي؛ (الحركة والعمل والبناء والإنتاج والفكر والإبداع) وناموا في كنف النشاط القمري (الليل والسكون والزهد والنوم والخمول العقلي)، فالشمس هي أصل الحياة، وما القمر إلا ظلها الساكن.

فالنبي لم يعدل تقويمه بعد نزول هذه الآيات وإنما استمر في صيامه وحجه على الوجه الصحيح لأن هذه الآيات لم تكن موجهة للنبي كأمر لتنفيذه، بل إننا عندما نعيد قراءة الآية الأولى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) نلاحظ بأن الآية ليست أمرا بتعديل التقويم وتوقيت الصيام والحج أبدا، إنما هذه الآية جاءت لتخفيف العبء عن المسلمين ورفع الحرج عنهم، لأن الشق الثاني من هذه الآية يفسر السبب

ويضع العلة، فقول الله " فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " يعني أن الغرض من تفصيل ما سبق كان هو التخفيف عن المسلمين بألا يظلموا أنفسهم بالامتناع عن القتال في الأشهر الحرم إذا تعرضوا لهجوم الأعداء، أي أنها أشهر حرم فعلا لكن لا تظلموا أنفسكم فيهم، بل لهم أن يقاتلوا المشركين كافة كما قاتلوا المسلمين كافة، وبالعدل ولا تظلموا أنفسكم، وهذا التفصيل الأخير هو الغرض والسبب لما قبله. إذن مجمل الآية لم يتضمن أمر بتعديل تقويم ولكن فقط (تعليق على زيادة المشركين شهور للسنة + تخفيف على المؤمنين إذا تعرضوا للقتال في الأشهر الحرم أن يدافعوا عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة حتى وإن كانوا في الأشهر الحرم، وهذه رخصة من الله كما رخصة الإفطار للمريض في رمضان). لكن المفسرين القدامى ذهبوا بعيدا جدا عن المعنى المراد ولذلك اختلفوا كثيرا في تفسير عبارة " فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ" بعضهم قال لا تحرموا جميع شهور السنة، واجعلوا الأشهر الحرم أربعة فقط! لأنهم على كلامه لو جعلوا كل شهور السنة حرم يكونون بذلك قد ظلموا أنفسهم بحرمان أنفسهم من القتال على مدار السنة ! وأما الآية الثانية " إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ..." إنما هي إنذار وتحذير للعرب الذين ما زالوا يصرون على النسيء وترحيل الأشهر الحرم وزيادة عدد شهور السنة إلى ١٤ و١٥ شهر حسب الطلب.. وكما أوضحنا أن النسيء شيء والكبس شيء آخر مختلف عنه.

لكن الصحابة حرفوا كل شيء بعد رحيل النبي وأوقفوا نظام الكبس ونسخوا الأشهر الحرم كاملة، ألغوها إلغاء كامل من حياتهم وحياتنا وجعلونا مثل كفار قريش في الجاهلية بل أضل سبيلا، لأن الجاهليين في قريش كانوا يؤخرون الأشهر الحرم فنزل قول الله" إنما النسيء زيادة في الكفر" بينما الصحابة بعد رحيل الرسول لم يؤخروا الأشهر الحرم وإنما ألغوها كاملة ونحن خلفهم مثل القطعان... فأصبحوا يحاربون الروم وكل بلاد الدنيا في كل شهور السنة خلال ملحمة الفتوحات ولم يحترموا شهرا ولا يوما .. ثم قالوا بأن آيات الأشهر الحرم تم نسخها كلها أي وقفها لصالحهم طبعا، فلم ينسئوها كما فعلوا أسلافهم في الجاهلية، بل أبطلوها بالكلية فأصبحوا أضل سبيلا من عرب الجاهلية، برغم أن هذه الآيات قائمة مضمونا في كافة الشرائع السماوية وبخاصة شريعة إبراهيم عليه السلام وأعاد الله التأكيد عليها في القرآن ليذكرهم بها، فكيف يقول الصحابة أنها منسوخة؟ هل لمجرد أن النبي رحل عنهم نسخوا كل شيء في حياتهم وانقلبوا على أعقابهم ! حتى الفقهاء انقلبوا خلفهم !.. وكذا آيات الرحمة والحكمة والموعظة الحسنة نسخوها كاملة ١١٤ آية لصالح سيوفهم كي تلتهب في القتل والنهب والسلب.. فكل ما عطل السيف أزالوه من الوجود، حتى القرآن نفسه.. ولم

يكن ذلك غريبا على العرب.. فهم كعادتهم يكرهون النظام ويفرون إلى الفوضى، مقتنعين ومقنعين أنفسهم بأنهم أهل اللغة وبإمكانهم السيطرة على المفاهيم وتفسير آيات القرآن، وتجاهلوا أو لم يدركوا أن القرآن ليس نصا أدبيا بليغا فارغا من مضمونه وضوابطه العلمية، بل هو مادة علمية في سياق بلاغي يسير كما القطار على محورين متلازمين، المحور الأول لغوي ملكه العرب، والمحور الثاني علمي ملكه غير العرب..

فإذا تم اعتماد التقويم الصحيح بإضافة شهر كل ٣سنوات قمرية يصبح شهر رمضان كل عام في الشهر التاسع الميلادي أي سبتمبر كما كان في عهد الرسول، حيث يتساوى الليل والنهار في نصفي الكرة الجنوبي والشمالي، ويصوم الناس عدد ساعات واحد في جو لطيف مقبول للجميع، ويصبح شهر ذي الحجة في شهر ديسمبر حيث يكون الجو مناسبا جدا للحج، وتوافق الأشهر الحرم موسم توالد الطيور، أما أننا نحتفل اليوم بمولد النبي محمد في فصل الربيع ثم بعد مرور عدة سنوات يدور ونحتفل به هو في فصل الصيف ثم يعود للخريف ومنه للشتاء برغم أنه مولود في الربيع ! بل إننا نتساءل كما الكثيرين، كيف يكون الرسول قد هاجر مرة في الصيف ونحتفل بهجرته في الشتاء ؟ هل لمجرد أن السلف قالوا هكذا ؟.. وكيف تصوم مجموعة بشرية ١٠ ساعات وأخرى تصوم ٢٠ ساعة بنفس اليوم؟ ألا يتنافى هذا مع عدل الله؟ لماذا لا نجد من يطرح مثل هذه التساؤلات من المفكرين و المهتمين؟ فقط تركنا الأمر لرجال الدين وهم لا يفكرون. فهل سنظل نقف عاجزين عن تصديق أن يحج الملايين لأكثر من ألف عام في غير مواعيد الحج، ويصوم الملايين فى غير ميعاد صيامهم ؟.. والمشكلة ليست في مون هذه الملامين تصوم خطأ وتحج خطأ في غير المواعيد، بل إن المشكلة أن التقويم المواعيد التي نسير عليها هي عبارة عن نسيء مجرم شرعا كما نسيء قريش القديم الذي قال عنه الله "إنما النسيء زيادة في الكفر" !

فالعرب عندما دخلوا مصر ولم ينقلوا إلينا الإسلام وإنما نقلوا ثقافة قريش وعقلية قريش، هجروا الإسلام وأورثونا النسيء الذي حذرهم منه الله !.. وهكذا استمر التقويم الهجري في مصر وهو أول مظاهر الاحتلال المعرفي العربي الرسمي لمصر، لأن النبي لم يكن يتبع هذا التقويم إنما وضعه عمر الخطاب بعدما عجزوا عن تمييز السنوات عن بعضها. فتقول المصادر أنه فى خلافة عمر الخطاب، أرسل خطاب إلى أبى موسى الأشعري مؤرخًا فى شعبان، فرد يقول: يا أمير، تأتينا الكتب، وقد أرخ بها فى شعبان، ولا ندرى أي شعبان هذا، هل هو فى السنة الماضية؟ أم فى السنة الحالية؟. لأن العرب لم يعرفوا

نظام عد السنوات كما أجدادنا المصريين الفراعنة الذين رسموا الخرائط الفلكية على جدران المعابد وحددوا طول السنة الشمسية ب ٣٦٥ يوم وربع يوم ولذلك كبسوا السنة الرابعة كي يسير التقويم صحيحا، إنما العرب كانوا متأخرين جدا في أي ميدان علمي، فقط عباقرة في كل ما هو أدبي بلاغي، إنما العلم والحساب لا يفقهون فيه شيء إطلاقا.. ومن هذه الحادثة اتفقوا على ترقيم السنوات كي يميزوها عن بعضها لأول مرة في التاريخ، بمعنى أنهم كان متأخرين عقليا عن المصريين الفراعنة بخمسة آلاف عام كاملة !!

في الوقت الذي كان المصريون يسجلون تواريخ ميلاد ملوكهم على الحجر المصقول باليوم والشهر وحساب السنة ٣٦٥ يوم وربع منذ خمسة آلاف عام. وفي الصور يظهر حجر باليرمو عبارة عن لوحة حجرية كبيرة من سبعة أجزاء متبقية تعرف باسم "الحوليات الملكية للدولة القديمة"، وهي مصقولة جيدا من البازلت الأسود ومنظمة ومسطرة عرضيا، وتحتوي اللوحة على قائمة بأسماء ملوك مصر من عصر الأسرة الأولى بعد توحيد مصر السفلى ومصر العليا بدءا من جدنا الأول الملك نارمر إلى بداية عصر الأسرة الخامسة، وتسجل أحداثا هامة في كل سنة من سنين حكمهم. والحجر محفوظ في المتحف الأثري الإقليمي في باليرمو بإيطاليا، وبقية اللوحة موجودة في متاحف القاهرة ولندن.. بينما العرب تعثروا في تحديد الشهر وهل هو من العام الحالي أم العام السابق ! وهذا ما يعني أن نظام العد لم يكن معروفا إطلاقا حتى عهد عمر الخطاب ! ثم اتفقوا على اعتبار الهجرة هي بداية التاريخ، باعتبارها أعظم حدث في تاريخ البشرية التي عرفه العرب !



حجر باليرمو

برغم أن الهجرة لم تكن أعظم حدث فعلي في الإسلام، لأنها كانت مجرد عملية هروب من القتل، فإذا كان الإسرائيليون يحتفلون بعيد الفصح اليهودي -عيد عبور بني إسرائيل للبحر الأحر خارج مصر إلى سيناء- ونجاتهم من الغرق ومن ملاحقة فرعون، فهذا قد حدث بمعجزة إلهية لهم ولهذا احتفلوا به. أما هجرة النبي محمد فكانت عملية هروب عادية وتخفي في الصخور والجبال حتى تمكن من الهرب بنجاح، وكانت عادية لأنها لم تحدث فيها معجزات خارقة، إنما حيلة ذكية وتوكل على الله وستر منه، ثم كوّن جيشه وعاد لمكة مرة أخرى لتكون تحت عينه، أي أن النصر ونهاية الحدث كان في فتح مكة وليس في الهجرة منها. إذن الهجرة في حياة النبي ليست حدثا عظيما إنما هي حدث عادي اضطراري، وكان أعظم الأحداث في حياة النبي هي ليلة القدر والتي بدأ فيها نزول الوحي على النبي محمد، والتي قال عنها الله: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)/القدر. وكان من الأولى أن يتخذ العرب ليلة القدر بداية للتاريخ الإسلامي الحقيقي لأن الله قال صراحة أنها أفضل من ألف شهر، أو أول تاريخ بدأ فيه الوحي على النبي لأنه أعظم حدث للإنسانية بالطبع، لكن العرب تركوا الدين ونظروا إلى الهجرة باعتبارها حدث سياسي رتب إنجازا سياسيا هو تكوين دولة في المدينة والتي بدؤوا منها يحكمون.. إنما في الواقع ومن المنظور الإسلامي فإن حدث نزول الوحي أعظم من حدث الهجرة، كما أن حدث ميلاد النبي أعظم من حدث الهجرة، فلماذا ترك العرب حدث ميلاد خير البرية، وحدث بدء الوحي، وتمسكوا بحدث الهجرة برغم أنها ما كانت إلا حدث عارض فرعي متوسط بين أحداث الوحي التي استمرت قبل وبعد الهجرة؟ ذلك لأن العرب لم يهتموا بمسألة الدين وإنما أخذوا منه ما يخصهم وهو السياسة، فوجدوا في حدث ميلاد خير البرية قيمة غير مهمة، وحدث نزول الوحي قيمة غير مهمة، برغم أن هذان الحدثان هما ما ترتب عليه وجود الإسلام في العالم وهذا الكتاب القرآن الذي عاش وسيعيش بين أيدينا وأجيالنا إلى يوم نلق الله، وإنما المهم عند العرب كان هو الحدث الذي ترك لهم دولة يحكمونها.. ومن هذا الحدث – الهجرة- بدؤوا يعدون السنوات، ولكن السنة ليست سنة وإنما ١٢ شهر من شهور القمر !

وكما سبق وبينا أن القمر لا يعطي سنوات ولا أيام وإنما فقط يعطي شهور متتابعة متماثلة إلى ما لا نهاية دون أي فارق بينها، فليس هناك حد فاصل أو علامة تدلنا على دخول سنة جديدة، ولو نسينا الشهر الحالي مثلاً هل نحن الآن في رجب أم شعبان، فلا يمكن أن نعرفه إلا إذا نزل كائنٌ فضائي

وأخبرنا أننا كنّا في شهر كذا قبل أن ننساه ! لأنه ليس لأي شهر علامة تميزه عن الآخر، وليس هناك سنة تتجدد لها أي علامة تميزها عن غيرها أو حتى علامة تماثلها في السنة السابقة عليها، إنما الزمن يسير بالنسبة للقمر مثل الطمس بلا أي إشارات.. فالمشكلة تكمن فى التقويم حيث لا يوجد شيء اسمه سنة قمرية من خلق الله وإنما هي من بدع البشر ومن اختراع البشر ولا علاقة له بأي حدثٍ فلكي، فالشهر يكون قمريا لارتباطه بميلاد هلال جديد والسنة دائما شمسية حيث هي فترة دوران الأرض حول الشمس. لكن المجتمعات القبلية دائما ما تميل إلى استخدام التقويم القمري لأنه الأسهل والأنسب لهم في حركة تنقلاتهم الليلية في الصحارى ودون اتجاهات، ما يجعل القمر محورا لحياتهم. وقول الله تعالى "هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب..." معنى ذلك أن الله خلق الشمس كأساس وهي التي تصنع النور وتصنع اليوم (ليل ونهار) ونحن نستخدم القمر في عد الأيام التي هي من صناعة الشمس، وكذلك نستخدم القمر في عد السنوات التي هي أيضا من صناعة الشمس، لأن القمر فلكيا وفيزيائيا هو تابع من توابع الشمس في كل شيء.

وقد دخل هذا التقويم العربي الأملس مصر مع دخول العرب، وعلمونا العمل به أكثر من ألف عام دون وعي أنه هو النسيء الذي قال عنه الله "إنما النسيء زيادة في الكفر" ، فهذا التقويم الهجري ما هو إلا زيادة في الكفر دون أن ندري، بينما لم يكن النبي يستخدمه إطلاقا، إنما هو من إبداعات العرب (العلمية) ولأن العقلية العربية أدبية بحتة فجاء إبداعها العلمي الاضطراري عاقرا.. إنما النبي عليه السلام كان يستخدم التقويم الشمسي والسنة عند النبي كانت ٣٦٥ يوم وربع كما كانت عند أجدادنا المصريين الفراعنة، وكل الفرق أن النبي استخدم القمر في معرفة فواصل الشهور عن بعضها لأنه لم يكن يعرف الشهور الشمسية التي عرفها المصريون الفراعنة قديما، وكان المعروف عنده وعند العرب هو فصول السنة الشمسية فقط، فاستدل على الشهور بحركة القمر عوضا عن نقص المعلومات الدقيقة عن الشهور الشمسية التي اكتشفها الفراعنة والبابليين والإغريق والصينيين وغيرهم من شعوب الحضارات.

****



الإضاءة الأخيرة

متلازمة الاحتلال العربي

مسقط رأسي؛ بين الدين والتاريخ وعلم النفس

لقد ارتبط أبناء الشعوب المفتوحة على يد العرب ارتباطاً تبعيا بالعقلية العربية والقومية العربية، كما ارتباط الطفل بالأم.. وجاء ارتباطها تبعيا نابعاً من متلازمة سيطرة العرب على مقاليد الحكم والسلطة وسيادة الأمر والنهي في هذه البلاد ما جعلهم الآباء الروحيين لأبناء هذه الشعوب، وصارت قوميتهم هي السيد، بينما قوميتهم في الأصل قومية غجرية غير عادية وغير إنسانية، فأصبحت الشعوب تتبنى مبادئهم دون وعي كما الطفل الذي يتبنى مبادئ أمه ويدافع عنها دون وعيٍ بجريرتها، فقط لأنها هي من أرضعته الدين وعلمته الكلام واللغة.. وأطعمته ثقافتها.. هي من سيطرت عليه وأرشدته وتحكمت في تصرفاته وسلوكياته منذ الصغر حتى وإن استغلته اقتصاديا.. ولم يحن الوقت بعد لبلوغه سن الرشد..

تعريف؛ من هم العرب؟ وما علاقة الدين بالتاريخ؟ وما علاقة الدين بعلم النفس؟ وما علاقة التاريخ بعلم النفس؟ وما علاقة العرب بعلم النفس؟

فهذه العناصر الثقافية جميعها تشترك مجتمعة في كونها "ثقافة وفكر" يمكن إدخالها جميعا أو بعضها في معادلة كيميائية تفاعلية لإخراج منتج واحد هو "مواطن مصري" أو مواطن شامي" أو مواطن عراقي".. ونظرا لأن علم النفس يخبرنا بأن العقل الذي يسكن جماجمنا هو صانع الفكر والمشاعر بداخلنا، ولذلك يشكل ويمثل نتاج أدمغتنا التأثيرات النفسية لنا، فأفكارنا ومشاعرنا تحمل ملامحنا وظروفنا النفسية في طياتها وتعبر عن وجداننا طول الوقت وتحمل عنوانه. فالإنسان ليس صفحة بيضاء طول الوقت خالية من الفكر والمشاعر، بل إن عقل الإنسان هو مصنع دائم العمل على إنتاج الفكر والمعاني والمشاعر إنتاجا ذاتيا داخليا محلي الصنع في أدمغتنا.. بالإضافة إلى أنه يتلقى مادة خارجية جاهزة "ثقافة وفكر" مصنوعة ومجهزة خارجيا قد يتلقاها من أساتذته ومن آبائه ومن غيره من الشعوب، وهنا يحدث الالتقاء والتفاعل بين المنتج المحلي الذاتي والمنتج الخارجي الوافد، وقد يتفوق ويسود أحد العنصرين على الآخر، فيصير هذا الآخر تابعا للأول كما تبعية الطفل للأم.. فعندما يزيد معدل النتاج الخارجي الوافد على معدل الإنتاج الذاتي، يسود عليه ويفرض عليه التبعية له ويتحكم فيه.. وعندما يزيد معدل الإنتاج الذاتي يتفوق ويسود على الإنتاج الخارجي الوافد ويتحكم فيه.. هذا الطفل يظل تابعا مرتبطا بأمه طالما عجزت أفكاره عن مجاراة أفكار الأم والسيادة عليها، طالما زاد ما يتلقاه عما ينتجه هو ذاتيا، فتظل أفكار الأم سائدة عليه ومسيطرة عليه فكريا وسلوكيا، ودون وعي منه فسيولوجيا بما يحدث، بل إنه يكون على قناعة كاملة، ولن يدر أن قناعته إنما استمدها من أمه لعجزه هو.. ولن يتمكن من الاستقلال إلا بعد وصوله سن الرشد، فتتمكن أفكاره الذاتية المحلية الصنع من السيادة على ما هو وافد" إليه من الخارج.. ثم إذا وصل سن الرشد تحدث حالة مراهقة واضطرابات نتيجة محاولات الاستقلال الشخصي بالفكر والمعاني والمشاعر الذاتية الصنع.. ثم بعدها يستقل بشخصيته... وهكذا الشعوب الطفلية التي سيطرت عليها شعوب أخرى أقوى سيادة وسيطرة فتعاملت معها بفلسفة "أطلفة الشعوب" أرضعتها الفكر والثقافة وسيطرت على سلوكها خلال مرحلة الفتوحات وسيادة الحكم العربي.. فاستمر أبناء هذه الشعوب في الخضوع تلقائيا لتعليمات وسياسة القومية العربية، حتى بعد وفاتها.. صارت الأب الروحي لأبناء هذه الشعوب، ليس بصورتها في الحاضر ولكن بطعم النوستالجيا التاريخية، واستمرت فلسفتها ومبادئها مغروسة في نفوسهم أجيالا طويلة.

ذلك لأن الاحتلال العربي لهذه الشعوب قد اختلف عن كل الاحتلالات السابقة لسببين؛ الأول أنهم تلفعوا بعباءة الدين، وما له من أثرٍ نفسي وميولا غريزية لدى الشعوب في التدين، فلعب العرب على الوتر الحساس في نفوس الشعوب، وأجادوا استغلال هذا الوتر بفاعلية جعلت الشعوب تتنازل عن إرادتها وقوميتها وهويتها وتتقمص الهوية والقومية العربية من أجل الدين. أما السبب الثاني فهوي يعود لكفاءة العقلية العربية ذاتها، لأن العقلية العربية غير عادية، وحرفتها هي الكلام والغناء والشعر والتلحين، وبالتالي تمكنت هذه العقلية من احتواء الآخرين والسيطرة علهم بقدرتها على التحايل والإقناع الملتوي، وهذه القدرة نابعة من القدرة الشعرية العربية، فهي قد تفوقت على شعوب العالم في تطويع اللغة لصياغة أفكارها ورؤاها في ضفائر كلامية عجيبة، ومن سمات هذه القدرة أيضا احتواء الآخر والتلاعب بفكره وعقله وتطويع الأفكار والمعاني بما يخدم مصلحة المتحدث، وهي ذات القدرة التي تمكنوا بها من التحايل على نصوص القرآن وتطويعها لفظيا بما يخدم طموحاتهم الاستعمارية والتوسعية، وقد ظهر ذلك في صياغة مصطلح غزوة على معارك النبي، ومصطلح فتح على معارك الصحابة، ومصطلح جزية على الخراج والإتاوات وصياغة نظرية الخلافة والحكم بالحق المقدس باسم الله، ونظرية أيقونية الصحابة ونظرية الجهاد...إلخ. فالعقلية العربية في الأساس متمكنة من التحايل والتطويع، حتى وصل بها الأمر لإقناع أبناء الشعوب التي سيطرت عليها بأن احتلال أوطانها إنما هو من أجلها ومن أجل الدين وعليهم أن يسلموا أنفسهم من أجل الله والدين، وبذلك هدموا فكرة الوطن في نفوس هذه الشعوب لصالح الدين وفي الأصل لصالح سيادة القومية العربية... وفي المقابل لم نجد من العرب عالمٌ في الدين ولا في العلوم الطبيعية.. فقط وجدنا شعراء وخطباء وخلفاء وولاة وأمراء.. إلخ.

وهي ذات الفلسفة التي اتبعوها بشأن المرأة في محاولة سيطرة الرجل عليها وتطويعها وإخضاعها عنوة بالحق الإلهي المقدس، ولذلك نجد الكثير من المرويات والمأثورات العربية في هذا الشأن مثال؛ (35 باب حق الزوج على المرأة)... حديث عمرو بن الأحوص -1/281 عن أبي هريرة قال: : إِذا دعا الرَّجلُ امْرأته إلى فِراشِهِ فلمْ تأْتِهِ فبَات غضْبانَ عليْها؛ لعنتها الملائكَة حتى تصْبح (متفقٌ عليهِ).. وفي رواية لهما :إذا باتتِ المرْأة هاجرَة فِراشَ زَوْجها لعنتها الملائكَة حتى تصْبح... وفي رواية: قالَ :والذِي نفْسِي بيدِهِ، ما مِن رَجلٍ يدْعو امْرأته إلى فِراشِهِ فتأبى عليْهِ إلا كانَ الذي في السَّماء ساخِطا عليْها حتى يرْضى عنْها... -2/282 وعن أبي هريرة أيضًا: أنه قال :لا يحلُّ لامْرأةٍ أنْ تصُوم وزوْجها شاهِدٌ إلا بإِذْنِهِ،

ولا تأذنْ في بيْتِهِ إلا بإذْنِهِ (متفقٌ عليهِ)، وهذا لفظ البخاري...إلخ.. وفي صحيح مسلم «الإمام جُنة يقاتل من ورائه ويتقى به» و «إِن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمْضِيَ فيهِم اثنا عشر خليفة» مسلم. وفي صحيح البخاري «يكون اثنا عشر أميرًا...كلهم منْ قريشٍ»." اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة"..

وهكذا عاشت العبودية في العقل والضمير الجمعي كما البكتريا التي تسكن معداتنا دون أن نشعر بها.. ثم نفاجأ بأنها كانت تمتص غذائنا طول العمر ثم قتلتنا في النهاية ... ليس النساء فقط هم من اقتنعوا بهذا الفلسفة الخضوعية لرجالهم المصريين من أمثال الست كريمة وسي السيد، وإنما العقلية المصرية الجمعية اقتنعت بخضوعها للعرب بذات الفلسفة، وليست المشكلة في أن هذه الفلسفة خطأ وظلم للمرأة، إنما المشكلة الأكبر أن المرأة ارتضت واستسلمت واقتنعت بأن هذا الاغتصاب الزوجي حق إلهي ومشروع، فقد فقدت الجرأة على حماية حقوقها والمطالبة بها، فقدت ثقتها بذاتها أمام سيدها وغلبتها روح الخضوع والطواعية ولم تجرؤ على التفكير فيما إذا كان هذا حق أم لا.. وهكذا استعبدتنا العرب بمروياتهم وليس لدينا الجرأة على استجوابهم من أين أتوا بها !

ونعود مرة ثانية لتعريف العرب، نقول العرب هم شعوب تسكن منطقة الوطن العربي المتصلة جغرافيا، وتتكلم لغة واحدة هي العربية وتدين بدين واحد هو الإسلام.

هذا التعريف خطأ؛ لأن العرب هم مجموعة القبائل التي تسكن شبه الجزيرة العربية فقط وعددهم لا يتجاوز ١٠٪ من المصريين، وتاريخهم لا يتجاوز ١٠٪ من تاريخ المصريين، وقوميتهم وتاريخهم تنفر منه كل شعوب العالم بسبب رائحة الدماء الكريهة، بينما تاريخ المصريين صار علما تطلبه الشعوب. أما حينما نصف الشعوب العربية اليوم، فهم شعوب عربية من المنظور السياسي فقط، وليسو عرب من المنظور القومي، بل وحينما نصف العرب اليوم من المنظور السياسي سنجد أنهم مجموعة الشعوب المتناحرة تتكلم لغة واحدة، وتدين بدين واحد، يعيشون في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي، منقسمون إلى ٢٢ كيان سياسي هم مجموع دول الوطن العربي، وفي المجمل، فهؤلاء في الأصل ليسو العرب ولكنهم الشعوب التي احتلهم العرب من أبناء شبه الجزيرة، فخلال العصر العباسي لم تكن مصر تتحدث اللغة العربية، كان المصريون يتحدثون لغتهم الفرعونية، وكان الفلسطينيون يتحدثون لغتهم، والمغاربة والجزائريون يتحدثون لغتهم الأصلية، وهذه هي أصول

القوميات. فكيف ترك المصريون لغتهم وثقافتهم وتحدثوا وفكَروا بالعقلية العربية طوعا وكَرها؟، وكيف أصبحت المعرفة الرديئة غذاءً للعقول الذكية؟ ولماذا تقمصت الشعوب المسلمة شخصية العرب والكاريزما العربية وتبنت مبادئها وأفكارها ودافعت عنها؟ هذه هي آثار متلازمة الاحتلال العربي التي وصفها ابن خلدون ببراعة، أو هي حالة الخضوع الإرادي، حتى وإن رحلت سلطة الاحتلال العربي عن هذه الأوطان فعليا، لكن شعوبها مازالت متأثرة ومتشبثة بالعقلية والثقافة العربية، فالعقلية العربية هذه سماتها النفسية والفكرية على مدار تاريخها، لأنها عقلية بدوية متمردة، تنفر بطبيعتها من فكرة الحضارة.

وأما علاقة الدين بالتاريخ فقد نشأت نتيجة محاولة العرب تقديس تاريخهم وجعله خلفية للدين، برغم أنه مهما كانت عظمة هذا التاريخ فهو في النهاية تاريخ وليس دين، لأن الدين نزل من السماء أما التاريخ فقد نبت من الأرض، نبت من العقلية التي اقتنعت به، وليس ذلك مبررا لربطه بالدين حتى وإن تم على الوجه الصحيح دينيا، فيظل تاريخ.. أما علاقة علم النفس بالدين فمنشأها أن علم النفس يرتكز على صناعة الأفكار، فالأفكار والتصورات التي تمتلئ بها عقولنا ليست كلها من قراءة الكتب، وإنما أغلبها نابع من داخل أدمغتنا ذاتها، أي أن الإنسان عقله يخلق له أفكار وتصورات معينة سواء كانت حقيقية أو وهمية، فهي نابعة من داخل عقله، ومن ثم تختلط بالدين فتصبح أفكار بعض الناس دينا لهم وللآخرين. وأما علاقة علم النفس بالتاريخ فهي تنشأ من كون المزاج النفسي ليس ثابتا وإنما متقلبا متموجا، بمعنى أنه أحيانا تصبه لوثة أو حالة مزاجية يهوى على أثرها العيش في الماضي ويتنافر مع الحاضر، وبما أن الماضي التاريخ مندمج ومنصهر في الدين، وكل ذلك ينصهر في بوتقة علم النفس فتصبح لدينا إشكالية معقدة متعددة الركائز، ونصبح بذلك عاجزين عن التفرقة بين ما هو مادة تاريخية، وما هو مادة دينية، وما هو مزاج نفسي... هذا بالإضافة إلى أن العقول أنواع، منها ما يهوى صناعة أفكاره ذاتيا ومن داخل عقله "صناعة محلية"، ومن الناس من يخشى صناعة أفكاره بذاته ويكتفي باستهلاك أفكار الآخرين "خضوع وتبعية" والكارثة أنه يستهلكها على غير وجهها الصحيح وإنما يستهلكها بطريقته هو. لأن مزاجنا النفسي هو ما يحدد طبيعة الأفكار التي نتبناها ونستهلكها..

١. وبداية، فالحديث عن دخول العرب مصر وما إذا كان فتحا أو احتلالا، ليس مسألة تاريخية، وإنما حكم على التاريخ ينصرف أثره على الحاضر؛ لأن نتائج الحكم على التاريخ تسري بأثر فوري على

الحاضر، فإذا قلنا بأن عمرو العاص احتل بلادنا كي يعلمنا الدين فنحن نقر للسعودية اليوم بأن تحتل مصر كي تعلمنا المذهب الوهابي، وفي المقابل تستولي على كل الدخل القومي من ضرائب وثروات وقناة السويس والأهرامات يتم إضافتها إلى عائدات النفط لديهم لدعم الدولة الإسلامية.. لأن حال العرب اليوم ليس أفضل مما كان عليه أسلافهم من الصحابة والتابعين.. غير أن شخصية عمرو العاص لا تختلف كثيرا عن شخصية سمو الأمير بن سلمان، فكلاهما نبت من ذات السلالة.. وإذا اعترفنا بشرعية حكم عمرو العاص لمصر فنحن نعترف اليوم بشرعية حكم الأمير بن سلمان لحكم مصر، وإذا اعترفنا بشرعية قتل عمرو العاص لعبد الله ابن أبي بكر في مصر، فنحن نعترف بشرعية قتل سمو الأمير بن سلمان الصحفي السعودي جمال خاشقجي في تركيا.

٢. إن الشعب المصري لن ينهض ليبني حضارة عصرية إلا إذا أدرك الكارثة العقلية التي أصابته بالانبطاح على مدار ألفي عام نتيجة خضوعه للعرب والثقافة العربية والفكر العربي والعقلية العربية ونتيجة تقمص الشخصية العربية وفلسفتها، فنحن إلى الآن لم يدرك شعبنا أن العرب اعتدوا على وطننا حينما حكموا بلادنا عنوة وحصلوا منا الضرائب والخراج عنوة ليصدروه إلى شبه الجزيرة، بل إننا نشاركهم في الجريمة ضد وطننا وأهلنا، للأسف ما زلنا نعتنق تاريخهم الدموي القذر ومذابح بني أمية وبني العباس وغيرهم من القبائل العربية المجرمة، نعتبر تاريخهم تاريخنا وندرسه لأطفالنا في المدارس، مع أنهم مجرمون وليس من شعبنا ولا من جنسنا ولم نكن نحن المصريين نتحدث لغة العرب خلال عصر الأمويين والعباسيين، ولم يترجموا هم نسخة من القرآن إلى اللغة الفرعونية التي نتحدثها ليثبتوا أنهم جاؤا لينشروا الدين، هم فقط ترجموا ديوان الخراج ليضمنوا النهب والسلب واستنزاف اقتصادنا الوطني، ولم يقوموا بأي مشروعاتٍ وطنية في مصر ولم يحفروا ترع ولا قنوات ولم ينشئوا جسرا واحدا، فقط أنشأوا معسكر الفسطاط ليكون مقرا لجنودهم، وحفروا قناة سيزوستريس بين الفسطاط والسويس لتنقل الخيرات والمحاصيل والأموال من القاهرة إلى مكة والمدينة.. ورغم كل ذلك ما زلنا نعتبرهم فاتحين وأنهم جاؤا إلينا بالخير كل الخير وهو الدين!

٣. فهل ترجموا هذا الدين للمصريين؟ بالطبع لا، فكيف نقول نحن أنهم جاؤا إلينا بالدين ونحن لا نعرف عنه شيئا ولا نتحدث لغته؟ غير أن من يأتي لينشر دين، فكان ينبغي عليه أن يتواضع للناس ويتودد إليهم ويبسط لهم الكلام ويترجمه لهم حتى يفهموه، ويتقرب منهم وفي مجالسهم ويأوي

إلى ركن في المسجد أو غيره من الأماكن العامة ، لكن العرب لم يفعلوا ذلك، إنما هم حكموا بلادنا عنوة ونهبوا ثرواتنا فقط ولم يعلمونا شيئا من الدين.. وإذا لم ينتبه المثقفون والمفكرون إلى هذه الكارثة العقلية، فلن ينهض الشعب المصرية من ثباته الطويل، والأمر ليس محصورا في إصدار حكم على التاريخ، وإنما يرتكز على الأثر النفسي العام، فكيف لشعب أن يمجد المعتدي عليه إلا إذا كان هذا الشعب منبطحا على المستوى العقلي الجمعي؟ وسواء اعترف جيلنا الحالي بهذه الكارثة أو لم يعترف، فحتما ستأتي الأجيال القادمة بعد عشرات أو مئات السنين لتعيد النظر في الأمر وتقدير الموقف الوطني العام، وإعادة الإجابة حول تساؤل (هل دخول العرب وطننا كان فتحا أم احتلالا؟)

٤. إن كارثة فترة الفتوحات ليست فقط في الخسائر البشرية التي وقعت فيها بالملايين من مصر إلى شمال إفريقيا إلى الأندلس إلى الشام إلى العراق إلى الفارس إلى الهند، مع ضآلة الأعداد التي اعتنقت الإسلام خلال حقبة هذه الحروب في حدود ٢٪ فقط من هذه الشعوب، ليست الكارثة في حجم الضحايا والقتلى والجرحى والسبايا والمشردين من الأطفال والنساء مقارنة بنسبة الـ٢٪ الذين أسلموا، ولكن الكارثة في الآثار والتشوهات الفكرية التي استمرت حتى اليوم في الفكر الديني الإسلامي.. فقد تشوه الدين بفعل ارتباطه بالتاريخ العربي، وصيرورة أفعال العرب وممارستهم الإجرامية دينا للشعوب بفعل الفقهاء الذين عانوا من الإصابة بمتلازمة الاحتلال العربي، وهي مشتقة على مدى أوسع من متلازمة ستوكهولم التي تجعل الضحية يؤمن طوعا بأفكار المعتدي عليه ويتعاطف ويتضامن معه، وانتقلت أعراض هذه المتلازمة مئات السنين بين الأجيال وراثيا، حتى باتت حالة من الخضوع الإرادي، ما أخرج أجيالا من العلماء من أبناء هذه الشعوب متفقين جمعيا على الخضوع للعرب مهما كانوا مجرمين، وظلوا يتفقهون في تاريخ العرب ويجعلونه دينا لشعوبهم باعتبار العرب هم أسياد هذه الشعوب، بينما في الواقع هم لا يتجاوزون حفنة من جرذان الصحراء والجراد الصحراوي الذي هب على المدن في غفلة وحط على رؤوس الجميع ومص دماءهم وهم غافلون. وهذا ما قد يفسر لنا كارثة الإجماع التي استمرت على مدار ألف وأربعمائة عام ولم تستطع الأجيال الجديدة كسرها باعتبار إجماع علماء الأمة هو دليل إثبات للأحكام الشرعية، ودعامته إجماع الأمة وعلماءها، بينما الحقيقة أن هؤلاء العلماء إما من أبناء العرب الذين اكتسحوا شعوب العالم بالسيوف، فهم مقتنعون بما يفعلون وإلا ما فعلوا، وإما أن يكونوا من أبناء الشعوب المكسورة تحت سطوة الجيوش العربية فهم خاضعون للعرب لا إراديا بفعل متلازمة ستوكهولم العربية، فهم مثل

الرهينة المجبور على التفكير بعقلية الخاطف المحتجِز المعتدي. فإرادتهم ليست حرة وليست خالية من عيوب الإرادة.

٥. ولن تفيق هذه الشعوب من متلازمة الاحتلال العربي هذه إلا بعد مرور مئات أخرى من السنوات، فعندما يفيق أبناء هذه الشعوب من متلازمة الاحتلال العربي، هنا فقط يبدأ الاعتراف بأن مرحلة الفتوحات هذه لم تكن إلا جرائم حربٍ شنها العرب ضد الإنسانية لتأمين قوت يومهم لأنهم ليسو من شعوب الحضارات التي تدمن العمل والبناء والإنتاج، ولا عمل لهم ولا مصدر دخل إلا السطو والنهب. وقد سيطرت هذه العقلية بفلسفتها العاطلة على جميع الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت سطوتهم وتلقت ثقافتهم وآمنت بها واقتنعت بممارساتهم ودافعت عنها فيما بعد كأثرٍ مباشر لمتلازمة الاحتلال.

٦. ولا يغرنا القول بأن متلازمة ستوكهولم تصيب الأفراد المذعورين فقط الواقعين تحت سطوة الاختطاف أو الاحتجاز كرهائن أو التهديد والقمع من قبل غيرهم. فمتلازمة ستوكهولم تحدث على المستوى الفردي (شخصين تعرضا للاختطاف معا وأصيبا بذات الأعراض النفسية) فهل ممكن أن يصاب بها مجتمع بأكمله بذات الأعراض إذا تعرض لذات الظروف وعلى مدار حقبٍ زمنية؟ فهذا ما يعتبر مدخلا للتعميم بالنسبة لجميع أو أغلب الأشخاص الذين تعرضوا لذات الظروف.. وقد جاء ارتباط علم النفس بالعلوم البوليسية ليكشف لنا عن متلازمة ستوكهولم التي تصيب الأشخاص المحتجزين كرهائن بنسبة ٨٪ منهم يعانون ذات الأعراض، وينقلبون على أنفسهم أو كأنهم يعادون أنفسهم ويؤمنون بأفكار المعتدي عليهم ويتعاطفون معه ويتضامنون معه ويدافعون عنه لفترة نتيجة الصدمة النفسية التي تعرضوا لها، ويأتي هذا التعاطف والتضامن مع الجناة بسبب فضلهم في منح الضحية والمنّ عليه بـ" سر الحياة" كأن يعطيه شربة ماء أو وجبة تنعشه من الموت جوعا وعطشا في ظل ظروف الارتهان القهري هذا.. فمن شأن الدراسات الاجتماعية وعلم الاجتماع النفسي إذا تطرق على الشعوب ووضعيتها وظروفها النفسية الجمعية تحت الاحتلال أن يخرج بنتائج تفسر لنا متلازمة الاحتلال؛ فليس ببعيد أثر الجيوش وقوات الاحتلال والاستعمار على الشعوب ذاتها بالعقلية الجمعية، فهي تمارس ذات الفعل على الشعب، وتحتكر حركته وتتحفظ عليه وعلى أملاكه وتكسر إرادته وتتصرف فيه كيفما شاءت، فمن الطبيعي أن يصاب أبناء هذه الشعوب

بمتلازمة الاحتلال، خاصة إذا استمر هذا الاحتلال حقبة زمنية طويلة مع التأكيد على فاعلية " سر الحياة "

٧. فنحن لا نعتبر عمرو العاص بطلا إلا لأنه تفضل علينا بالدين، مهما كانت جرائمه، ومانعنا عن انتقاده مانع ديني أدبي نابع من "سر الحياة " الذي أخذناه منه، وكذلك كافة الصحابة، فلا تربطنا بهم أي صلة قومية أو فعلية سوى كونهم تفضلوا علينا بالدين وهو "سر الحياة" لدينا، ولذلك تجدنا لا نحب حتى الحديث في أخطائهم مهما كانت موضوعية وواضحة، نعمي عقولنا عنها عمدا احتراما لهم، ونجد علماءنا وفقهاءنا يمنعوننا من الخوض في تاريخهم وأحداث الفتنة الكبرى التي قتلوا بعضهم بعضا فيها، فهناك مانع أدبي لدينا نفسي على مستوى العقل الجمعي، هو ذات المانع الذي جعل رهائن ستوكهولم يتعاطفون ويتضامنون مع الجناة لمجرد أن منحوهم شربة ماء اعتبروها سر الحياة، فقط لأنهم ما زالوا يعيشون في جو الارتهان والاحتجاز ولم يخرجوا بعد من هذا الجو النفسي ولم يدركوا بعد أن شربة الماء حق لهم وحقهم أن تصل إليهم بالسلام ودون ارتهان أو احتجاز أو احتلال أو تفضل عليهم أو منة، ولن يدركوا ذلك إلا بعد التحرر الكامل من جو الارتهان وظروفه وأثره النفسي، ليس فقط تحريرهم أو خروجهم من بوابة البنك ونطاق الاحتجاز وإنما بعد فترة لذوبان وتلاشي الأثر النفسي. وإذا كانت متلازمة ستوكهولم فردية من حيث الأطراف (المعتدي والمعتدي عليه الرهينة)، فإنها جماعية من حيث الاحتلال (الجيوش المعتدية والشعوب المتعدى عليها). وهذا ما يعني أن أجيال الشعب المصري والشعوب التي تعرضت للاحتلال العربي ستتحرر تدريجيا عبر مئات السنين من آثار هذه المتلازمة النفسية، وليس بمجرد زوال الاحتلال العربي فعليا من الناحية السياسية والعسكرية، خصوصا أن الأثر النفسي لها استمر فاعلا أكثر من ألف عام، وبالتالي سيكون زوال هذا الأثر تدريجيا من نفوس هذه الشعوب خلال مئات الأعوام أخرى.

٨. والغريب في هذه المتلازمة يظهر بجلاء في أبناء هذه الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية وشهدت مجازر غير إنسانية خلال عملية الفتح على يد العرب.. كانت دماء هذه الشعوب رخيصة جدا بالنسبة للعرب ولا تساوي ظفر بعير مما سيحصلونه من غنائم، والأغرب من ذلك أن كتب وسجلات تاريخهم الوطنية تذكر مجازر أكثر بشاعة مما ذكرته المراجع العربية الإسلامية، خاصة على يد خالد ابن الوليد الذي تحولت البلاد على يده حرفيا إلى " سلخانة "، ومع ذلك نجد أبناء هذا الشعب وأغلبهم من الشيعة، يكرهون خالد ابن الوليد ليس لأنه ارتكب جرائم

حرب غير إنسانية في بلادهم وبحق أجدادهم وأبناء شعبهم، إنما يكرهونه فقط لأنه ناصر أبي بكر الصديق ولم يناصر علي ابن أبي طالب ويتهمونه بأنه قتل مالك ابن نويرة وزنا بامرأته. وينسبون له عدة سلوكيات أخرى إجرامية لكنها مع ذلك تقع في نطاق الحوادث الفردية، مقارنة بالمجازر الجماعية التي ارتكبها خالد الوليد في بلادهم خلال عملية الفتح التي ذبح في واقعة واحدة منهم سبعين ألف فارسي كما تقول المراجع العربية الإسلامية وهي واقعة "نهر الدم"، حيث أمر بذبحهم جميعا بعد تطويقهم بجيشه بحركة " الكماشة" وصب دماءهم في النهر ليختلط بالماء ويسير إلى القرى والمدن فيرعب ويرهب باقي الشعب كي يستسلم بسهولة... ومع ذلك نجد أبناء الشعب الفارسي يعتبرونه مجرم (مجرم فقط وليس مجرم حرب)، مجرم بسبب هذه الوقائع الفردية، ولا يتهمونه بارتكاب جرائم حرب فعلية ومجازر جماعية ارتكبها بحق شعبهم وأبناء وطنهم والإنسانية وليست جرائم فردية !! ونحن نتساءل هنا إذا كان الشيعة قد نبذوا خالد وأخرجوه بالمرة من إطار القدسية الأيقونية واعتبروه مجرم، فلماذا امتنعوا عن اتهامه بارتكاب جرائم حرب بشعة بحقهم واكتفوا باتهامه بارتكاب جريمة قتل مالك ابن نويرة والزنا بامرأته ؟ مع أنه قتل أبناء شعبهم وسبى نساءهم وأطفالهم بالجملة ! كما تقول مصادرهم التاريخية الوطنية ومصادر العرب أيضا...

٩. إن ذلك بالطبع نابع من إصابتهم بمتلازمة ستوكهولم العربية، هذه المتلازمة التي تقحم أفكار المعتدي داخل عقل الرهينة المعتدى عليه وتجعله يؤمن بها ويشعر في نفسه أنه كان يستحق العقاب أكثر من ذلك وأنه كان واجبا عليه من الأصل الخضوع لإرادة سيده المسيطر، فوضعية وظرف الهزيمة التي منيت بها هذه الشعوب مع وضعية انتصار العرب لا يعبر أبدا عن حرية إرادة، بل تسيطر عليها حالة من الانهزامية وشعور عميق بعيد المدى بتفوق وتميز المنتصر.

١٠. وإلى اليوم ما زالت هناك إشكالية في الحكم لدى المصريين؛ المسيحيين منهم يقولون أنه احتلال، بينما المسلمون يقولون أنه فتح، فأين الحقيقة؟ وما السبب في هذا الاختلاف، إذا كان المصريون مسلمون ومسيحيون يرتبطون في الأصل بروابط أسرية واحدة؟ أي كان المجتمع المصري كله أسر مسيحية، وكانت قناعتها كاملة أن دخول العرب مصر هو احتلال بديل عن الاحتلال الروماني لكنه أصبح أشد وطأة ببلادهم وأكثر قسوة بهم، وكلما انسلخ فرد من إحدى هذه الأسر المصرية المسيحية واعتنق الإسلام انقلبت قناعته وصار يقول بأن دخول العرب مصر كان فتحا!، أليس هذا اشتقاقا من متلازمة ستوكهولم؟ فما السبب في تغير هذه القناعات، إذا كان الفعل في الأصل واحد

ولم يتغير!! ثم أين الحقيقة من منظور الوطن؟ فأجدادنا أصحاب الوطن وقتها قالوا أنه احتلال وعانوا وصرخوا منه في أرجاء الدنيا، فكيف يأتي أحفادهم اليوم ليقولوا أنه فتح؟

١١. والإشكالية تزداد تعقيدا حينما يصرح الأنبا بيشوي مطران دمياط الأسبق، بأن «المسلمين ضيوف على مصر»، ونظم الدكتور محمد سليم العوا سلسلة لقاءات جمعها في كتاب «محاضرات في الفتح الإسلامي لمصر»، حاول فيه أن يثبت أن عددا من الصحابة الأقباط الذين أسلموا قبل الفتح كانوا ضمن جيش عمرو، وأنهم كانوا حلقة الوصل بينه وبين الأهالي المصريين في محاولة منه لإثبات أن المصريين استقبلوا الجيش العربي بالورود وأغاني ثنيات الوداع .. بينما الخطأ الكارثي عند الطرفين أنهما تحدثا باسم الدين في حين تحدث العرب باسم القومية العربية.. ولم يدرك العوا أنه ((احتلال عربي وليس إسلامي))، فلم يكن دخول جيش عمرو لنشر الدين أصلا أي أن تسمية الفتح الإسلامي هي خدعة خدع نفسه بها د. العوا ، لأن من جاء لينشر الدين ما كان له أن يركب على حكم البلاد ألف عام، وأن يضع على حكمها أعراب وأتراك وفارسيين ويحرم المصريين من حكم بلدهم... غير أنه إذا حاول أن يثبت أن الصحابة الأقباط هم من توسطوا بين جيش عمرو والأهالي في مصر الذين تعاونوا معه، فهو يثبت غش وخداع العرب وخيانتهم للوعد إذ أنهم لم يصونوا ذلك وأذاقوا المصريين مرارة الصحراء والقمع ووأد الثورات وختم المصريين على قفاهم وجمع الجزية والخراج والجمارك..إلخ. ولم ينشروا الدين سوى بمعدل ٢٪ خلال ١٠٠ سنة، ومشكلة د. العوا أنه يؤمن بفكرة الجهاد ونشر الدين بالجيوش لهذا لم يستح تسميته "فتح إسلامي" بينما خطأ الأنبا بيشوى أنه لم يدرك كذلك أنه ((احتلال عربي وليس إسلامي))، وأن العرب هم الضيوف على أرض مصر، بينما المسلمين هم أبناء مصر ذاتها.. فكلاهما لم يستوعب أن المشكلة تكمن فقط في أن الإسلام دخل مصر بالطريق الخطأ.. وبين هذا وذاك ذاب منظور الوطن.

١٢. فالمنظور الوطني يقول بأن شخصا أجنبيا هكسوسيا أو عربيا من القبائل المجاورة دخل مصر وحكمها عنوة خلال حقبة معينة واستأثر بعائدها القومي ونشر فيها ثقافته، إذن هو بالمنظور الوطني احتلال عربي لمصر، وهكذا سار المسيحيون في مصر لأنهم لم يستفيدوا من هذا الاحتلال، بل عانوا من ويلاته، بينما المسلمون استفادوا منه فأطلقوا عليه فتحا.. أي أنه في الأصل احتلال لكنهم أعطوه الشرعية نظرا للفائدة التي حققوها من وراءه، وهي (الدين)، وحدث ذلك بعد أن تقمصوا

الشخصية العربية. فجميع الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال من قبل غيرها بالتأكيد استفادت من ثقافة هذا المحتل، وليس شرطا أن تكون الثقافة ذاتها معيبة، فنحن استفدنا من الاحتلال الفرنسي كثيرا من الوعي، والجزائر استفادت من الاحتلال الفرنسي الكثير من الفكر حتى أصبح نصف الشعب الجزائري يتحدث اللغة الفرنسية ويتبني الثقافة الفرنسية رغم أن الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يتجاوز ١٣٠ سنة فقط، فهل لو كان قد استمر ١٣٠ سنة أخرى وتحدث جميع الجزائريين بالفرنسية، فهل يتحول هذا الاحتلال ليصبح فتحا فرنسيا؟

١٣. وفي الواقع قد تحوز الجريمة على شرعية دستورية في بعض الأحوال، فهناك حالات من جرائم القتل تعتبر حقا مشروعا برغم أنها لا تفقد وصفها، فيظل فعل القتل جريمة، لكنه مشروع في حالة الدفاع عن النفس، وإذا لم يكن هناك ما يبرر الجريمة فاستوجبت العقوبة، ونحن نتساءل عن مبرر لاحتلال العرب لمصر، هل كان دفاعا عن أنفسهم؟ هل مجرد استفادة المصريين منهم بالتعرف على الدين يعتبر مبررا مشروعا لاحتلال مصر؟ فجريمة القتل تعتبر حقا مشروعا إذا كانت دفاعا شرعيا بشرط ألا تتجاوز حدود الدفاع المشروع، لكن هل أن تقديم الدين للمصريين يستوجب احتلال أرضهم؟ واغتصاب سلطة الحكم فيها وقمع الثورات على مدار ٤٠٠ سنة؟

١٤. وبالتالي، فإن المنظور الفئوي متناقض ومختلف، الفئة المسلمة من المصريين تقول أنه فتح والفئة المسيحية من المصريين تقول أنه احتلال، والمنظور الوطني يقول أنه احتلال عربي لمصر، وهذا ما من شأنه أن يضع المصريين المسلمين في لحظة خيانة تاريخية للوطن إذا قبلوا اقتحام بن سلمان لمصر مقابل نشر الدين الوهابي، فنحن نخون أنفسنا دون أن ندري، ونخون وطننا دون أن ندري!، لأن الوطن لا يمكن تسليمه لأجنبي مقابل أن يعلمني دينه أو استفيد من ثقافته، فلماذا تنازل المسلمون عن حقيقة المنظور الوطني؟ وبلغة عصرية؛ لماذا تنازل المصريون عن وطنهم لصالح السعوديون؟، هل أن ذلك من أجل أن يعلمنا السعوديون دينهم؟ لكن هل هذه الفائدة تجعل الاحتلال فتحا؟ وتجعل الباطل مشروعا؟ بالطبع لا ولكننا كالرهينة المحتجزة والذي أنعم عليه الخاطف بشربة ماء، فاعتبر أنه منحه سر الحياة، ونسى أن شرب الماء حق أصلي متاح له في كل وقتٍ وحين دون رقابة أو إذن من أحد، لكن في هذا الظرف تحديدا " ظرف الاحتلال" تعتبر شربة الماء منح لسر الحياة، فهل احتل العرب بلادنا مقابل تعليمنا دينهم ولغتهم؟ أم أنهم جاهدوا أجدادنا كي يحصلوا منهم الجزية والخراج، وهل تنازل المسلمون عن حرية وطنهم مقابل دينهم؟ أولم تكن هناك وسيلة لاعتناق الدين

دون احتلال الوطن؟ وهل يحق لكل داعية ذهب لتعليم الناس دينهم أن يسكن بيوتهم عنوة؟ ويخاطبهم بلغة أجنبية عن لسانهم؟

١٥. الواقع أن الأمر مرتبط بعدة عوامل قاتلة، لأنها مغروسة في نفوسنا غرس العقيدة الإيمانية في القلوب، مع أنها محض مسألة تاريخية لكنها أخذت قدسية العقيدة الإيمانية في نفوسنا وذلك بسبب ارتباط تاريخ العرب بالدين، فمن العوامل التي تجعل الحكم في ذلك أمرا أثقل على النفس من هموم الجبال، هو أننا على قناعات أخرى عقائدية ذات صلة، مثل قناعتنا الخاطئة بفرضية الجهاد في سبيل الله بالحرب لنشر الدين، وقناعتنا بشرعية الحروب الهجومية وأنها في سبيل الله، وقناعتنا بشرعية تحصيل الإتاوات من غير المسلمين تحت مسمى الجزية والخراج، وقناعتنا بأن الصحابة هم خير من عرفوا الدين من النبي ونحن نستبعد أن يكونوا قد وقعوا في خطأ مثل هذا، وقناعتنا أن المسيحيين في مصر هم فئة معادية للإسلام أو أعداء للدين وأعداء لله، وقناعتنا بأنه لولا دخول عمرو ابن العاص مصر لما عرفنا الله ولا الإسلام.. مع أن ذلك كله خطأ، وهو فقط فلسفة العرب التي نشروها في بلادنا وروجوا لها بصبغة دينية لا تقبل الجدل ولا النقاش، وسيطرت علينا متلازمة الاحتلال العربي إلى اليوم حتى تركنا أصلنا وجذورنا وتبنينا ثقافتهم ولغتهم وقوميتهم.. ولسنا وحدنا، بل جميع الشعوب التي خضعت لسيطرتهم كذلك. أليست دراسة تاريخ أهلنا الفراعنة وحضارتهم أولى من دراسة تاريخ الأمويين والعباسيين الذي ذبحوا بعضهم بعضا كما الخراف في عيد الأضحى؟

١٦. لكننا ونظرا لأننا أصبنا بمتلازمة ستوكهولم العربية فأصبحنا نؤمن بأفكارهم وأقوالهم وطريقة تفكيرهم، ونقدس تاريخهم وشخصياتهم القومية، لدرجة أننا رفعنا شخصيات عربية وهم الصحابة فوق الرسل والأنبياء، فإذا ذكر عمر وأبي بكر وعثمان عفان وجلت قلوبنا واشتقنا أن نعود إلى عصرهم، وإذا ذكر يحيى وعيسى وذكريا وموسى وصالح ويونس وإلياس واليسع وداود وسليمان وذا الكفل وشعيب ويعقوب عليهم السلام، لا نكاد نعرف عنهم شيئا، ويبقى إيماننا بهم مجرد تسليم نظري، برغم أن الله ذكرهم في القرآن وعرفهم بأسمائهم وصلى عليهم كما صلى على نبيه محمد، ولم يذكر الصحابة ولم يشر إلى أشخاصهم في القرآن، لكننا رفعنا شخصيات العرب درجات فوق الأنبياء والرسل، وبرغم أنهم جاهدوا أقوامهم أكثر مما جاهد الصحابة حول رسول الله، لكننا صنعنا من الصحابة العرب أيقونات مقدسة أكثر قدسية من أنبياء الله ورسله الذين أوصانا الله بهم

واشترط الإيمان برسله جميعا ليصح إيماننا ، فقال: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)/البقرة، بما يعني أن الله احتفى برسله وأنبيائه أكثر من احتفائه بشخصيات الصحابة، وذكرهم بأسمائهم وصفاتهم وتصرفاتهم وقرن الإيمان بالله بالإيمان برسله وأنبيائه بينما تجاهل شخصيات الصحابة، لكننا اعتبرنا الصحابة أركان في التشريع الديني ورفعناهم فوق الرسل والأنبياء، وليس ذلك نابعا من ضعف إيماننا ولكن من شدة تأثير العرب علينا ثقافيا واندماج القومية العربية في الدين، جعلنا نرفع أيقوناتهم وشخصياتهم القومية فوق أنبياء الله ورسله، ونجعل من سلوكهم تشريعا دينيا ! ومن دولتهم دولة إسلامية، ومن تاريخهم تاريخ إسلامي!

١٧. أما الكارثة الخاصة بالتنوير وتجديد الفقه فهي لا تتعلق بالفقه في ذاته لا بالموضوعات الفقهية والفتاوى القديمة، إنما هي متعلقة بمنبع هذه الفتاوى ومصدرها الرئيس، الذي يتمحور حول طريقة وصول الإسلام لمصر، فإذا اعترف الأزهر أن دخول العرب مصر كان احتلالا، فإن كل العقبات ستنهار فورا، لكن اصطلاح الفتح العربية أصبح على ذات الدرجة من قدسية اصطلاح "غزوة " برغم أن معارك النبي لم تكن غزو.. ومن شبه المستحيل أن يتنازل الأزهر عن نظرية الفتح والفتوحات والجهاد ودخول البلاد عنوة بالقوة لنشر الدين، برغم اعتراف الأزهر رسميا بأن الجهاد في الإسلام هو جهاد " دفع " فقط أي في حدود الدفاع الشرعي.

١٨. وهنا يظهر التناقض لدى رجال الدين، إذ كيف نقول أن الجهاد في الإسلامي دفاعي، وفي ذات الوقت نقول أن دخول العرب لمصر كان جهاد وفتح؟، وكيف نقول أن معارك النبي كانت دفاعية وفي ذات الوقت نسميها غزو؟ إن مجرد الاعتراف حقيقة بأن الجهاد دفاع فقط، فهذا ما يعني حتما أن الفتوحات كانت هجوما وعدوان على الشعوب، وأن اصطلاح الفتح سبة كبيرة في حق الوطن وأن اصطلاح الغزو سبة كبيرة في حق النبي، لكن الأزهر لن يعترف بذلك وسيظل يدرس تاريخ الفتوحات العربية بمسمى الفتوحات الإسلامية والجهاد رغم اعترافه بأن الجهاد دفاعي فقط...!! أما مسألة اعتراف علماء الأزهر بأن الفتوحات كانت جرائم حرب وعدوان فهذا مستحيل حدوثه على الأقل في الجيل الحالي من العلماء والطلاب؛ لأن فقه الأزهر يقوم في أغلبه على تقديس الشخصيات التاريخية التي أتت بالإسلام إلى مصر، فكيف يمكن إقناعهم بأن هذه الشخصيات جاءت بطريقة غير شرعية؟.. أو أن الإسلام شرعي لكنه جاء إلينا بطريقة غير شرعية؟ من خلال احتلال بلادنا؟

ففي الحقيقة أن وجود الإسلام في مصر وانتشاره شيء مختلف عن دخول العرب، ومختلف تماما عن شرعية حكمهم لمصر ألف عام بحجة تعليم أهلها هذا الدين، لكن الأزاهرة مقتنعين وخاضعين لمتلازمة ستوكهولم العربية، وبالتالي فلا يرون شرعية لدخول الإسلام بلدا سوى بالطريقة التي دخل بها العرب البلاد وأنها أعظم الجهاد حتى وإن قالوا بأن الجهاد دفاعي فقط، فتظل قناعتهم بأن عمرو العاص جاهد في سبيل الله !، وهذا من آثار الصدمة والانتكاسة التي أحدثها دخول العرب في المجتمع المصري والتي جعلتهم يقدسون جرائم العرب باعتبارها بطولات ! كما كان الرهائن في بنك ستوكهولم يعظمون من بطولات الخاطفين ويعتبرونهم أبطال حقيقيين وذوي مبادئ وقيم.. هكذا صار العرب آباء روحيين وتقدست أفعالهم وتصرفاتهم وصارت نموذجا وقدوة مثالية بغض النظر عن مدى مشروعيتها.

١٩. في حين أننا لو تدبرنا الأمر مع المعطيات التي أقر بها الأزهر حتى الآن، وهي أن الجهاد في الإسلام دفاعي فقط وليس هجومي، فهذا معناه أن دخول عمرو العاص مصر بجيشه لم يكن جهاد وإنما عدوان هجومي، وعلى فرض أنه جاء لينقذ المصريين من ظلم واضطهاد الرومان، فقد أذاقهم ظلم وقسوة العرب وجشعهم في تحصيل الأموال وسبي النساء وخطف الأطفال، فإذا كان قد جاء ليمد يد العون للمصريين ويحررهم من ظلم الرومان فلماذا لم يعد بجيشه إلى الصحراء؟ بعدما أمن دخول الدعاة؟ لماذا استمر في تحصيل خراج من المصريين وتصديره إلى خارج بلادهم؟ ولماذا عاد لمصر مرة أخرى بعد عشرين عاما بجيش قوامه ستة عشر ألف مقاتل خلال فترة حكم محمد ابن أبي بكر لمصر؟ هل جاء ليفتح مصر مرة أخرى؟ أم ليغتصب حكم مصر من صحابي ابن أكبر صحابي؟.. غير أنه في الواقع جاء لمصر بغرض احتلالها والاستقواء على الرومان وليس لنشر دين.

٢٠. إن مجرد اصطلاح الفتح العربي لهو نوع الاستسلام نابع من ضعف الانتماء لهذا الوطن وضعف شعور الثقة بالنفس وارتضاء الانقياد والاستسلام، لهو تخاذلٌ عن كرامة هذا الوطن، وفقدان عزة النفس والإرادة، لأن من لديه عزة نفس وكرامة لا يقبل أن يدخل عليه أحد بيته عنوة، ولا يقبل أن يفرض عليه أحد دينه حتى وإن كان هذا الدين صحيحا فلا إكراه في الدين، ومن لديه عزة نفس وكرامة وانتماء لهذا الوطن لا يقبل القول بأن دخول العرب مصر كان فتحا وجهادا، إذ كيف يغتصب مني شخص وطني كي يعلمني الدين؟ ثم كيف يأتي ليعلمني الدين بلغة أجنبية لا أفهمها؟ ولم يترجمه هو إلى لغتي! فإذا كان قد حمل إلى الدين صحيحا فلا بد أن يدخل من باب

مشروع وبطريقة مشروعة لا أن يقفز من الشباك عنوة أو يكثر الباب عنوة أو أن يحتل البيت عنوة ليفرض ضريبة على كل داخل وخارج إلا إذا كان قد فهم دينه خطأ أو استغل دينه في نهب أموال الناس واغتصاب حقوقهم. كان على العربي إذا زعم أنه جاء لينشر الدين أن يجلس في بلدنا مثل الضيف بأدب.. يتحدث بأدب ولطف يتودد إلى الناس، ويلطف بهم كما كان يفعل النبي في مكة والمدينة... لا أن يحتل البلد كلها ألف عام ويحصل الخراج والجزية ليعتاش منه أهله وقبيلته في شبه الجزيرة.. فالنبي عندما هاجر إلى المدينة لنشر الدعوة لم يفرض على أهلها خراج؟ فلماذا فرضه العرب على المصريين؟ هل كان ذلك أجرتهم عن الانشغال بالدعوة ونشر الدين؟ إنما استحباب الأزهر تسمية ذلك بالفتح، فذلك محض استسلام لسطوة العرب وانبطاح في الإرادة، فلا يمكن أن أسلم بيتي لعربي مقابل أن يعلمني الدين، ولا يمكن أن أسلم بيتي حتى لأخي بحجة أنه يعلمني الدين وهو يحكم بيتي ويتحكم في الداخل والخارج والمصروفات بغير إرادتي، إلا إذا كانت إرادتي معيبة "بلغة القانونيين" أو إذا كان الشخص سفيها يسلم حقوقه للآخرين يتحكمون فيه وفي مقدرات بيته. لأن حرية العقيدة قرينة بحرية الوطن والمصير السياسي، فنحن تلقينا العقيدة الدينية في ظروف احتلال وغصب للإرادة، فلم تكن إرادتنا حرة حرية كاملة، ولذلك تسرب إلينا كثير من الملوثات العربية مندمجة في الدين دون أن ندري، واعتبرنا أن كل ما تلقيناه من العرب هو الدين، بينما في الواقع هو دين مطبوخ في المطبخ العربي.

٢١. كان العرب لا يتعدون عشرات زهيدة من القبائل البدوية يركبون البغال والحمير ويرعون الغنم، كغيرهم من شعوب السطو مثل المغول والهكسوس..إلخ، فغالبية من تعرضوا لجيوش العرب وصفوها بالوحشية وليس البطولة.. بالفظاظة وليس النبل والتسامح.. لكنهم نجحوا كما المغول في السيطرة على حضارات عظيمة، كما عادة أن تنجح مجموعات بسيطة من الجناة في السطو المسلح والسيطرة على البنوك الكبرى التي تحوي آلاف من الموظفين وتفرض عليهم أوامرها وسلطانها، وتتحفظ عليهم كرهائن، هكذا فعل العرب، كانت مصر مستعمرة عربية، كانت بالسبة لهم هي واحة الغلال، مارسوا علي أهلها كل أنواع الظلم والتعالي جيلا بعد جيل، لدرجة أننا اليوم صرنا جزء من قوميتهم، وصارت دولتنا تحمل اسمهم " جمهورية مصر العربية" وهذا خطأ لأن الواقعي أن تكون الدولة "جمهورية مصر المستعربة" منذ ألف عام، وهو التاريخ الذي بدأ المصريون فيه يتحدثون اللغة العربية، ويتقمصون العقلة العربية الأدبية النظرية ويغرقون عقولهم بالثقافة

العربية شعرا ونثرا عندما بدأ تأسيس الأزهر، وعندما قامت الدولة مستقلة عن الحكم العربي اختارت لها اسما نكرة وعلى استحياء نجد (كلمة جمهورية؛ نكرة ـ وكلمة مصر؛ نكرة – أما كلمة العربية؛ معرفة) ..

٢٢. حتى الإنجليز فهموا أنها نكرة وترجموها كذلك (the Arab Republic of Egypt) لأن مصر من أقدم المستعمرات العربية في الشرق بعد العراق وإيران ودمشق، وكانت مستعمرة عربية ثم استعربت في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، وقد عاد الإيرانيون إلى لغتهم الأصلية وقوميتهم، بينما بقي المصريون نكرة ما عدا انتسابهم للعرب جاء معرفا بالألف واللام. فالصحيح أن تكون " الجمهورية المصرية" لتعيد استنبات جذور الحضارة المصرية من جديد بطابعها وملامحها المصرية، بينما نحن اليوم ١٠٠ مليون مصري أو تفوق أعدادنا عدد سكان السعودية أضعافا مضاعفة، وأصولنا مصرية فرعونية وليست عربية، فكيف ينتسب أبناء الفراعنة المائة مليون إلى أبناء قبائل الصحراء العشرة مليون ! بل إن العرب أصلا يرفضون انتسابنا لهم، لأنهم يفتخرون جدا بأصولهم وأنسابهم القرشية، حتى أنهم لم يقبلوا سيدنا إسماعيل وذريته من بعده، فلم يعتبروهم عرب، لأن إسماعيل ووالده إبراهيم عليهما السلام لم يكونا من أصلٍ عربي، وإنما كان إبراهيم شاميا وابنه إسماعيل من أم مصرية، ولهذا أطلق العرب على ذريتهم (العرب المستعربة) أي الذين ليسو عرب... غير أن هناك اختلافات جذرية بين كلا الشعبين المصري والعربي، فالعرب قبائل أما المصريين والشاميين والعراقيين فهم شعوب مدنية، ووحدة المجتمع المصري هي الأسرة، بينما وحدة المجتمع العربي قبلية، حتى دولهم عبارة عن قبائل، ونظام الحكم قبلي يقوم على العصبية القبلية وليس حقوق المواطنة المتساوية، والمادة الوراثية للنسيج المصري ممتدة في عمق التاريخ إلى أجدادنا الفراعنة بنمطٍ علمي عملي تطبيقي، بينما جيناتهم ومادتهم الوراثية قادمة من عمق الصحراء بملامحها وبنمطٍ أدبي نظري.. والمبادرة العربية عسكرية أما المبادرة المصرية علمية، والنشاط العربي الرئيس هو الإغارة والهجوم، بينما النشاط المصري الرئيس هو العمل والبناء والدفاع.

٢٣. بينما للأسف ما زال العلم المصري يحمل صورة النسر شعارا للدولة، وربما كان هذا النسر شعارا ملائما لحقبة عبد الناصر والقومية العروبية، فقد وضعه الضباط في العلم المصري بعد يوليو ١٩٥٢ للإشارة إلى صحوة مصر العسكرية وإعادة تأهيل الجيش المصري وميلها إلى التخلص من الاستعمار وتحرير أراضيها، وقد تعرضت مصر في هذه الحقبة لسلسة من الحروب صبغت الدولة والحس الوطني

العام بطابع العسكرية، بداية من (حرب ١٩٤٨، وجلاء الاستعمار الانجليزي ١٩٥٦والعدوان الثلاثي ١٩٥٦، ونكسة ١٩٦٧، وحرب الاستنزاف ١٩٧١ وحرب أكتوبر ١٩٧٣، ومعاهدات كامب ديفيد ١٩٧٩) فربما كان النسر ملائما لهذه الحقبة، مع الألوان الكئيبة للعلم (الأحمر: لون الدم والتضحية، والأسود: لون قلوب الأعداء، والأبيض: لون السلام)، لكنه لم يعد هذا التشكيل ملائما كشعار للجمهورية المصرية، فلا نحن بحاجة مستمرة إلى نزيف دماء وتضحيات، نحن بحاجة إلى العمل والبناء والإنتاج، ولا نحن بحاجة إلى الخشية من قلوب الأعداء السوداء، نحن بحاجة إلى العمل والبناء والإنتاج بقلوبنا الخضراء، ولهذا من الضروري تحديث العلم كشعار للدولة وتغيير هذه الألوان لأنها عبارة عن شعار عسكري بحت يصلح أن يكون شعارا للجيش فقط وليس شعارا لدولة مدنية تسعى للعلم والعمل والبناء والإنتاج وبناء نهضة وإحياء حضارة، وأصبح من الضروري تغيير النسر، ليس كشعار فقط للعلم ولكن كشعار للدولة يظهر في الخاتم الرسمي لها، لأن النسر في حد ذاته هو كائن صحراوي بري شرس وليس مدني، وهو يحمل دلالة عسكرية بحتة وليست مدنية، وهو طائر جارح يقوم غذاءه وطعامه وحياته على الافتراس وليس العمل والبناء والإنتاج، وقد ظهرت الكثير من الأصوات عقب ثورة ٢٥ يناير تنادي بضرورة تغيير العلم المصري وشعار الدولة ليعبر عن آمال وطموحات الشعب، ولهذا من الضرورة الحيوية تغيره من العلم وتغيير شعار الدولة وخاتمها الرسمي ليصبح بدلا من النسر تمثال نهضة مصر أو زهرة اللوتس، أو لماذا لا يكون الهرم شعارا للدولة بدلا من هذا النسر !.

٢٤. فمصر كي تنهض لا بد أن تنفض غبار الصحراء العربية أولا، ولا بد أن تزيل عن عينها غشاوة الغبار الثقافي الأدبي النظري الذي وضعه عليها العرب، فمصر ليست دويلة عربية عباسية أو أموية كما يقتنع الأزهر، إنما هي دولة وشعب وحضارة ضارية في عمق التاريخ، لا يبدأ تاريخ مصر مع تاريخ العرب، فالعرب يبدأ تاريخهم الفعلي بحدث البعثة النبوية، وما قبل ذلك لم يكن لهم تاريخ، إنما فوضى وهمجية، بينما مصر يمتد تاريخها لأكثر من ٣٦ ألف عام قبل الميلاد.

٢٥. فقد ورد في بردية تورين التي تعود لعهد رمسيس التاني (أسرة١٨-دوله حديثة) أن تاريخ مصر يرجع إلي عصور أقدم بكثير من عصر الملك " مينا نعرمر" آخر ملوك الأسرة (٠) وأول ملوك الأسرة الأولي . (حوالي ٣٣٠٠ ق.م)، وتقول بردية تورين أن مصر كان يحكمها قبل عصر الملك مينا مجموعة من

الملوك عرفوا باسم "شمسو حر" (اتباع حورس) . وقد حكم الـ" شمسو حور" مصر لمدة ١٣٤٢٠ سنة قبل عصر الأسرات الذي بدأ بمينا حوالي ٣٣٠٠ ق.م. وفيما قبل حكم الشمسو حور كان نظام الحكم في مصر ذا مسحة دينية تمثل في رموز إلهية (نترو) لمده ٢٣٢٠٠ سنة . طبقا للبردية المذكورة. وفي قبو معبد دندرة يوجد نصوص تعرف باسم " نصوص إنشاء معبد دندرة " أو (النص التأسيسي أو قرار الإنشاء) جاء فيها أن التصميم الهندسي لمعبد دندرة عثر عليه في عصر الملك بيبي التاني " أسرة ٦" في مدينة منف مسجل علي قطعة من الجلد، ومكتوب عليها أن هذا التصميم يعود لعهد الشمسو حور . وهذا يعني ببساطة أن المصري القديم (خلال عصر الأسرات) لم يكن يرى أن تاريخ مصر يبدأ بعصر الأسرات بل قبل ذلك بكثير، إنما عصر الأسرات هذا الذي يحوي ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد، فهذا هو عصر التدوين (التأريخ) وليس بداية نشأة الدولة والحضارة المصرية، بل هناك مرحلة أقدم هي مرحلة التاريخ العتيق، لأن الحضارة تبدأ من الصفر أما عملية التدوين والتأريخ فهي مرحلة تقدمية لاحقة ومن مظاهر الحضارة.. ومن العجيب أن التصميم الهندسي العبقري لمعبد دندرة يكون معروفا للمصريين في عصر الشمسو حور أي قبل بدأ عملية التأريخ ! فتاريخ مصر الحقيقي أقدم من عصر الأسرات بـ ٣٦ ألف سنة علي الأقل! .. والمصري القديم حرص علي ربط تاريخه الأحدث بالتاريخ القديم، وكان ينظر للتاريخ العتيق " الأقدم " باعتباره الأصل الذي استلهم منه رموز حضارته، وظلت ذكري العصر العتيق في وعي المصري القديم إلى العصر البطلمي الذي شيد فيه معبد دندرة . (المرجع : كتاب أسرار الحضارة المصرية ـ لوسي لامي ص ١٧٥)

٢٦. وفي الواقع لا يمكن فصل الماضي المصري عن الحاضر المصري باعتبار أن الحضارة الفرعونية القديمة هي حدث فردي إعجازي لن يتكرر.. بل العكس تماما، فلا بد أن يتكرر وبنمطٍ مختلف شكليا حسب الزمن؛ لأن العنصر البشري لم يتغير، أو بمعنى أدق، فالمادة الوراثية للفراعنة لم تفنى، وإنما أخذت قسطا من النشاط والازدهار عبرت خلاله عدة آلاف عام، صعدت تدريجيا إلى قمة الحضارة وهبطت تدريجيا كما موسم الصيف.. ثم دخلت في مرحلة سكونٍ شتوي طال ثلاثة آلاف عام، أو لنقل أن المنطقي أن يعادل فصل الصيف فصل الشتاء من حيث المسافة الزمنية، ولأن العقل بطبيعته موجي وليس ساكن، فهو يعمل بطريقة موجية متبادلة كما فصول الصف والشتاء، وهذا ما يعني حتما أن تنتهي حقبة البيات الشتوي هذا ويحل صيف جديد نجد فيه أحفادنا أبناء الفراعنة

القدامى هم فراعنة جدد. فمن حكمة الله تعالى أن كل كائن على وجه الأرض ينشط ويسكن ثم يتجدد نشاطه مرة أخرى وهكذا إلى يوم القيامة.. فعلينا أن نبذل قصارى جهدنا في إعادة استنبات جذورنا من جديد، ليس بالفخر بأجدادنا الفراعنة ولكن باستغلال تاريخهم في معرفة قدراتنا وإمكاناتنا الساكنة وإعادة تنشطيها وتنمية الحس الوطني الذاتي بما يساهم في تنمية الوعي الجمعي وإيقاد جذوة العزة والثقة بالنفس والإرادة الذاتية ومن ثم القدرة على البناء..

٢٧. ففي الأصل كان المصريون شعبا ودولة وحضارة، وقتما كان العرب مجرد قبائل بدوية رعوية على حفنة من الحرافيش المطاريد يعيشون في الصحارى على أطراف دولتنا العظيمة.. لم يتوقع جدنا العظيم تحتمس الثالث أن هؤلاء الأعراب القاطنين لمستعمرة صحراوية على حدود دولته قد يحكموا دولته يوما ما وتصبح دولته وشعبه العظيم جزءا من قوميتهم البدوية... فلم تكن مصر دولة عربية ولم تتحدث اللغة العربية إلا بنهاية العصر العباسي عندما آلت الدولة العربة إلى السقوط، ومع ذلك تركنا أصولنا وجذورنا وعظمة حضارتنا وأجدادنا ودولتنا وشعبنا واستسلمنا لأن نكون جزء من مجتمع عربي صحراوي بدوي بدائي لا يعادل سوى قرية من قرى مصر الكبرى ! وصارت مشاعرنا تنصرف إلى ماضي العرب وكأنه الوجه الأمثل للحياة، صارت نوستالجيا البيئة العربية تتملك مخيلاتنا (خلفية ثقافية متعلقة باللغة – خلفية تاريخية تم إقحامها على بالدين) وتحولت العقول المصرية من الثقافة العلمية إلى ثقافة أدبية صفراء هي نتاج العقلية العربية نتيجة لمرحلة الثبات والسكون العقلي التي مر بها الشعب المصري بعد مرحلة الازدهار الحضاري الفرعوني قبل التاريخ. فالحضارة العربية لم تختلف كثيرا عن الحضارة الهكسوسية التي سيطرت على مساحات واسعة من العالم عسكريا وسياسيا ومع ذلك لم تترك أثرا لها في التاريخ، ظهرت ورحلت بسرعة خاطفة كما يظهر ويرحل الحرافيش، فلا ينبغي أن تكون البيئة العربية هي معين الثقافة والمعرفة وغذاء للعقل المصري لافتقارها إلى الإنسانية والرقة والرقي وافتقارها إلى الجانب العلمي لأنها عقلية أدبية خالية من دعائم الحضارة.

٢٨. وبرغم ذلك فقد جاء الفقهاء وتفقهوا في تاريخ العرب وليس في الدين ومبادئه، ولذلك قال القرطبي (والمسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له جاز له قتله) (تفسير القرطبي ٣٣٨/٥) أما ابن كثير فقال (قد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس)(تفسير ابن كثير ٦/٢)، أي أنه حتى لم يعترف بحق الإنسانية في الحياة، وهذا بالطبع نجده

عند جمهور العلماء والفقهاء المسلمين، ليس لأنهم مسلمين ولكن لأنهم من أبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت سطوة العرب فأصيبوا بمتلازمة الاحتلال العربي وانتقلت وراثيا بين الأجيال ما جعلهم يؤمنون بفكر العرب وثقافتهم وممارساتهم مهما ابتعدت عن الإنسانية. فهذا الدين العظيم جاء من السماء لعلاج القومية العربية المريضة بكثير جدا من الأمراض، لكنها بمجرد رحيل النبي نقلت العدوى إلى الشعوب المجاورة لها، وأقنعتهم أنها تنقل الدين نظيفا من العدوى. فيحنا ننظر بمسقطٍ رأسي بين الدين والتاريخ سنرى كوارث فكرية عقائدية وانحرافات سلوكية لا نظير لها في تاريخ البشرية، فالعرب جعلوا الدين الإسلامي أكثر ثقافات الشعوب إجراما، فالشعوب بوجه عام لها ثقافات اجتماعية وعادات وأعراف وتقاليد، قد يكون بعضها خطأ، وهكذا العرب لديهم أعراف وتقاليد كثير منها خطأ بل وسلوكيات إجرامية نابعة من طبيعة الشعب العربي الوحشية، فهي أبشع سجل إجرام اجتماعي في تاريخ الشعوب، لكنها مع ذلك لم تسكن في حدود وصفها أعراف وتقاليد لمجتمع من المجتمعات، بل اندمجت في الدين الإسلامي فأصبحت تشريعا للمسلمين، خصوصا تلك الشعوب التي اعتنقت الإسلام خلال مرحلة السيادة العربية.

٢٩. **فهناك كارثة تقف عقبة حائلة بين الإسلام والشعوب.. بين الإسلام والحياة أو قدرته على التعايش، ليس بسبب جمود أحكامه ولكن بسبب ارتباطها بالتاريخ العربي، فالدين الإسلامي الآن صار أغلب أحكامه الفقهية مستمدة من مادة تاريخية بحتة، فبدلا من أن يعمل الفقهاء مؤرخون أو المؤرخون فقهاء، اندمج العقل وصار التأريخ فقها في عصرنا. وذلك كله نتيجة خضوع الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية خلال حقبة الفتوحات للسيادة العربية، وتأثرهم بمتلازمة الاحتلال العربي جيلا بعد جيل، ما جعلهم يؤمنون بأفكار العرب ويشرعونها دينا لشعوبهم، ليس بقناعة عقلية منطقية وإنما استجابة لمتلازمة نفسية شكلت قيدا على عقولهم غصبا عنهم، حتى صارت كتب التاريخ العربي مادة ثرية للفقه الديني لدى هذه الشعوب، ومن أمثلة ذلك نعثر على كتاب "الأحكام السلطانية "[١١] من تأليف أبي الحسن الماوردي، ويختص هذا الكتاب في مواضيع سياسية، أي أنه عبارة عن تقرير صحفي أو عمل تأريخي سياسي، لكنه حصل على قدسية دينية، فصار دستورا للسياسة الشرعية يدرس في الجامعات والمعاهد الدينية، وهكذا عرف الكتاب بين فقهاء**

[١١] ـ الكتب على الرابط التالي بصيغة PDF :
https://ia802803.us.archive.org/6/items/FP171606/171606.pdf

الدين باعتباره مادة خصبة للفقه والفتوى، مع أنه كتاب تاريخ ولا صلة له بالدين إطلاقا.. يقول القاضي أبو الحسن الماوردي في خطبة الكتاب أنه قسمه إلى الأبواب التالية:

١. الباب الأول : في عقد الإمامة.
٢. الباب الثاني : في تقليد الوزارة.
٣. الباب الثالث : في تقليد الإمارة على البلاد .
٤. الباب الرابع : في تقليد الإمارة على الجهاد .
٥. الباب الخامس في الولاية على المصالح.
٦. الباب السادس : في ولاية القضاء.
٧. الباب السابع : في ولاية المظالم.
٨. الباب الثامن : في ولاية النقابة على ذوي الأنساب.
٩. الباب التاسع : في الولاية على إمامة الصلوات.
١٠. الباب العاشر : في الولاية على الحج.
١١. الباب الحادي عشر : في ولاية الصدقات.
١٢. الباب الثاني عشر : في قسم الفيء والغنيمة.
١٣. الباب الثالث عشر : في وضع الجزية والخراج.
١٤. الباب الرابع عشر : فيما تختلف أحكامه من البلاد .
١٥. الباب الخامس عشر : في إحياء الموات واستخراج المياه.
١٦. الباب السادس عشر : في الحمى والأرفاق.
١٧. الباب السابع عشر : في أحكام الإقطاع.
١٨. الباب الثامن عشر : في وضع الديوان وذكر أحكامه.
١٩. الباب التاسع عشر : في أحكام الجرائم.
٢٠. الباب العشرون : في أحكام الحسبة.

٣٠. هكذا كما نرى في عناوين فصول هذا الكتاب، فهو كتاب تاريخ الدولة العربية يشرح نظام الحكم والوزارات وقيادة الجيوش وتحصيل الضرائب وغيرها من النظم الإدارية التي اتبعها العرب في حكم دولتهم، وقد أدر المستشرق الفرنسي فانيان حقيقة هذا الكتاب، وكونه كتاب تاريخ عربي

يستخدمه المسلمون اليوم في تشريع أحكامهم الدينية، فقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ليساهم مع المسلمين في القضاء على الإسلام وإقناع العالم بأن التشريعات الدينية للمسلمين مصدرها التاريخ العربي الدموي القميء، خاصة أنه وجد بين طيات هذا الكتاب ما يتحدث عن عنصرية العرب وتعاليهم على الناس بالأنساب والأعراق التي فاحت رائحتها وطغت على العنصرية النازية، ووجد فيه أيضا ما كان يفعله العرب قديما من خطف النساء والأطفال واسترقاقهن، وقد اعتبروا ذلك من الحقوق المشروعة لهم طالما لم تكن هذه النساء مسلمات.

٣١. وكانت أحدث النتائج هي قتل شاب مغربي متدين لفتاتين من السواح النرويجيين بعد اغتصابهم.. كل ذلك بناءً على فتاوى علماء الإسلام الذين تفقهوا في تاريخ العرب ونزعوا كل إنسانية عن الدين.. هذه الحضارة العربية الوحشية التي قتلت العلم والعلماء وتشدقت بالدين.. قتلت الطبري وصلبت الحلاج وحبست المعري وسفكت دم ابن حيان، ونفت المنمر وأحرقت كتب الغزالي وذبحت السهروردي وطبخت أوصال ابن المقفع في قدرٍ ثم شويت أوصاله أمامه ليأكل منها قبل أن يلفظ أنفاسه بأبشع أنواع التعذيب والقهر، وذبحت ابن الجعد ابن درهم وعلقت رأس أحمد ابن نصر ودارت به في الأزقة، وخنقت لسان الدين ابن الخطيب وأحرقت جثته وكفرت علماء الفيزياء والكيمياء والطبيعة والفلك.. هذه حضارة الأعراب وتمثل العقلية العربية، ولا صلة لها بالدين إطلاقا، ولهذا يجب انتشال الدين ومبادئه من قيود التاريخ العربي. بل إن من العلماء اليوم من ما زال يتفقه ويفتي باسم الدين اقتباسا من تاريخ العرب وثقافتهم وعقليتهم، فنقرأ في كتاب: صرات النجاة في أجوبة الاستفتاءات، نقرأ الفتوى رقم ١٣٩٦: بعض الأشخاص في الدول الغربية يسرقون من الشركات التابعة للدولة الكافرة، ثم يأتون بهذه الأموال ويقولون نريد أن نخمسها، فما حكم هذه الأموال وكيف يتم الخمس فيها، وهل تصبح حلالا بعد إخراج الخمس؟

٣٢. وأجاب الفقيه التبريزي قائلا: ((إذا ارتكب ذلك يجب فيه الخمس كسائر الأموال وتصبح حلالً إن شاء الله..)) ، هذه الفتوى الغريبة التي تحلل سرقة أموال الناس مشتقة عينيا من فلسفة العرب وليس من مبادئ الدين الإسلامي، بل مشتقة تحديدا من تاريخ العرب خلال حقبة الفتوحات ومن عادات العرب ونشاطهم في السطو والإغارة والسلب والنهب فيما سمي بحقبة الفتوحات، فالسيد التبريزي يرى أن ما يجعل السرقة حلال هو إخراج نسبة الخمس منها صدقة أو زكاة، وهو ذات ما كان يفعله العرب في فتوحاتهم بشأن الأموال التي يسرقونها والبيوت التي ينهبونها، كانوا يخرجون الخمس منها

ليعتبروا الباقي حلال لهم ! وشرعوا ذلك دينا للشعوب، وآمنت به الشعوب، فقط الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال العربي وأصيبت بمتلازمة الاحتلال العربي إلى اليوم. وهي ذات الفلسفة التي فكر بها الإمام مالك بشأن جريمة الاغتصاب، إذ أنه جعل جريمة الاغتصاب عقوبتها حد الزنا ودفع المهر، ما يجعل هذه الجريمة وكأنها عقد زواج حلال طالما دفع المهر!.

٣٣. ثم يأتي فقهاؤنا ليقدسوا أفكار السلف ويمنحونها القداسة والعصمة فوق مستوى العقل، هذه التبعية وتقديس السلف هي ظاهرة نفسية تأتي مشتقة من رابطة التبعية بين الأجيال وبعضها، لأن الأجيال مشتقة من بعضها وراثيا، فهي أيضا تشتق ثقافتها من بعضها جيل بعد الآخر بما لها وما عليها، فلا ينقصنا سوى قدر من الجرأة على الأجداد والسلف لاستخلاص الإسلام منهم نقيا نظيفا كزهرة اللوتس وليس متلفعا بشجرة الشوك العربية، هذه الرابطة النفسية التي كانت العقبة والتحدي الأكبر أمام جميع الرسل والأنبياء، فكانت مهمتهم الشاقة ليس تخليص شعوبهم من الشرك والضلال، بل تخليصهم من نهج آبائهم القائم على الشرك والضلال، وكما قلنا لو كان الأمر محصورا في مسألة الضلال العقائدي والكفر أو الشرك، لكان من السهل على الرسل اجتيازها لأنهم لديهم من الحكمة وحسن الخطاب والحجة والبرهان وعذوبة اللسان ولينه ما يكفي للإقناع، لكن المشكلة كانت في الرابطة المتينة التي تربط الأجيال بنهج أسلافهم في العبادة والعقيدة مهما كانوا على خطأ، هذه الرابطة النفسية ليس من السهل على الإنسان تحطيمها أو التخلي عنها بسهولة لأنها متعمقة في النفس غريزية في السلوك مستعصية على الفكر، وتتجسد هذه الرابطة النفسية في ظاهرتي النوستالجيا والمازوخية.

٣٤. والمازوخية؛ هي غريزة الخضوع وحب الطواعية والانقياد، ويقابلها السادية، وهي غريزة السيطرة والسيادة على الغير، وكلاهما خصيصتان من خصائص العقل البشري تعملان بالتناوب، فكما أن هناك أنثى لديها غزارة في هرمونات المازوخية (الخضوع)، هناك ذكر لديه هرمونات السادية (السيادة والسيطرة). أما من ناحية الفكر والخصائص والسمات العقلية فهناك فئات من الشعوب على بعضها لديها غزارة مفرطة من المازوخية وغريزة الخضوع للحكام والأمراء حتى وإن كانوا ظالمين وفجار، تميل هذه الفئة للخضوع الغريزي دون مبرر موضوعي، تبحث عن قائد يقودها وأمير يأمرها، فقط تجسيدا لهرموناتها ومزاجها النفسي، وغالبا ما تبحث عن مبرر مهما كان واهنا، لكن يبقى الأصل أنه تأثير هرمونات المازوخية، ومن هذه الفئات نجد جماعات السلفية الدينية، وهي موجودة في جميع

الديانات سواء كان الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو الزرادشتية، جميع الشعوب لديها فئة مازوخية وجميع الديانات لديها ذات الفئة.. وبوجهٍ عام هذه الفئات في جميع الأديان تتسم بالخضوعية التامة، ليس لديها أي قدر من الجرأة الفكرية لمناقشة الموضوعات، وتخضع كليا للرؤساء الدينيين وتسلم بتوجيهاتهم ويمتازون بالطواعية الكاملة دون مناقشة، وعادة إذا لم تجد هذه الفئة من تتبعه وتأتمر بأمره فإنها تبحث في خيالها عن آمر تتبعه، لأن الفكر هو وليد النشاط الهرموني، وطالما زادت هرمونات المازوخية فلا بد أن تبحث لها عن مخرج فكري للتفرغ فيها. وفي المجتمع الإسلامي هناك جماعة الصوفية، لديهم ميول خضوعية ومبالغة رهيبة في هذا الأمر.

٣٥. وهذه النوعية من الناس بالطبع موجودة في المسلمين، وتتغير توجهاتها حسب تصنيف المذاهب الدينية التي تتبعها، خاصة المذاهب الرئيسية؛ السنة والشيعة، فالسنة يقدسون منصب الخليفة ويجعلون من الصحابة جميعا أيقونات مقدسة، ومن الخلفاء أيكونات مقدسة حتى ما كان منهم فاجرا حصل على القداسة بحكم موقعه، بينما الشيعة يقدسون الأئمة، وقد وردت الكثير من المرويات التاريخية في صحيحي مسلم والبخاري، هذه المرويات هي من نتاج العقلية العربية ذاتها وتعبر عن توجهات فكرية لدى البعض، ففي صحيح مسلم «الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به» و «إن هذا الأمر لا ينقضِي حتى يَمْضِيَ فِيهِم اثنا عشر خليفة» مسلم. وفي صحيح البخاري «يكون اثنا عشر أميرًا...كلهم مِنْ قريشٍ».'' اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة''

٣٦. وعند محاولة الوقوف على هذه الظاهرة والتماسها في كتب التراث فإن الباحث يجد نفسه أمام مصطلحات لا مصطلح واحد، فهناك أحاديث تتحدث عن الخلافة وثانية تتحدث عن الإمامة وثالثة تتحدث عن الإمارة ورابعة تتحدث عن الوصاية، وخامسة تتحدث عن أفضل القرون الزمنية الصالحة للتبعية.. ولذلك لا يكون مستغربا لدينا التقاء النظريتين الإسلاميتين، نظرية الخلافة السنية ونظرية الإمامة الشيعية في كتب التراث. ولا غرابة أيضا من استناد تلك النظريتين إلى السنة في إثبات دعواها. هذا مع اختلاف مفهوم السنة في الطرح الشيعي عن نظيره في المنظومة السنية، لكن

في النهاية فكلتا النظريتين تعبران عن خصائص ذهنية للعقل يريد البعض تبريرها بتقديسها دينيا وجعلها أيقونات للقيادة الدينية[١٢].

[١٢] ـ في الواقع فإننا نجد نظرية الخلافة الراشدة، ما هي إلا استمرار لمسلسل الأيقونات التاريخية التي سرعان ما تتحول إلى دينية مقدسة، ذلك ببساطة لأن نظرية الخلافة ما هي إلا نظام حكم سياسي ابتدعه المجتمع العربي دون أن يكون له صلة بالدين، حتى وإن كان نظاما سياسيا صحيحا لكن ذلك لا يجعله من الدين، هو محض نظام حكم به العرب أنفسهم ، غير أن عصر الخليفة الأول أبي بكر شهد أخطاء سياسية ومجزرة وقع فيها مسلمين بيد مسلمين وجميعهم سعوديون من بلدٍ واحد، وشهد جرائم حرب ضد الشعوب المجاورة بقيادة خالد الوليد، وكذلك عصر الخليفة الثاني عمر الخطاب شهد استمرار لمسلسل الحرب ضد الشعوب المجاورة، هذا مع استثناء احترام المسيحيين لشخصية عمر الخطاب لمواقفه الإنسانية معهم في القدس. وأما الخليفة الثالث عثمان عفان فلم يشهد أي رشد على الإطلاق بل كان هو بداية عصر الغضب العربي الذي فجر بركانا من الفتن استمرت إلى ما لا نهاية، وكان عصره الأكثر فسادا سياسيا وإداريا وماليا مقارنة بعصر عمر الخطاب، وهو ما أثار الناس ضده، وهذا ما يعني أنه من المنظور التاريخي لم يكن عثمان زعيما عربيا، أي لن يحتفل به التاريخ السعودي كما يحتفل بشخصية عمر الخطاب إلا بقدر كونه شغل منصب الحاكم خلال فترة زمنية حتى اغتياله، وأما من الناحية الدينية، فلا يزن عثمان الكثير مقارنة بأبي ذر الغفاري أو غيره من البسطاء الذين لم يتولوا سلطة، ولم يكن الصحابة حوله يضعونه في منزلة أيقونية، بل ظهرت ضده شعارات سياسية ساخرة ومناهضة.. هذا من ناحية التاريخ السياسي. أما من الناحية الأخرى، فقد كان عثمان صهرا للنبي وزوج ابنتيه، برغم أن أبا العاص ابن الربيع هو الآخر زوج السيدة زينب بنت النبي محمد ص ولكنه لم يكن خليفة ولم يحكم ولم يستمتع بقدسية القرابة للنبي كعادة العرب..

فسلطة الحكم لدى العرب لها قدسية خارقة وهي مشتقة من قدسية الدين ذاته، فكون عثمان زوج ابنة النبي وحاكما في الوقت ذاته جعله ملِكا فوق التصرف البشري وبمنأى عن التقييم .. وهذا في الواقع لا يصنع له ميزانا بقدسية دينية إلا إذا نظرنا إليه بمنظور الشيعة وعلاقات النسب والقرابة التي تسير على رابطة الوراثة الذهنية للنبوة، كما حال علي أبي طالب وأحفاده الأئمة، لكن أهل السنة بطبيعتهم يجعلون من سياسة العرب دينا لهم ويقدسون الحاكم ويضعونه في أيقونة جاهزة له بمجرد توليه السلطة وحتى قبل أن يحكم، فما بالنا إذا كان هذا الحاكم أيقونة أصلا قبل توليه السلطة؟ باعتباره من أقارب النبي وزوج ابنتيه رقية وبعدها أم كلثوم، وباعتباره صحابي ورتبة الصحابة كلها أيقونات، ثم باعتباره حاكما، بما يعني أن عثمان ابن عفان رغم فساده السياسي والمالي والإداري إلا أنه قبل كل هذا الهراء التاريخي والسياسي هو أيقونة مركبة أو أيقونة بثلاث براويز كبيرة ! مع أنه في نهاية الأمر محض شخصية تاريخية بالنسبة للقومية العربية، وأما من الناحية الدينية فلم تكن علاقة نسبه بالرسول أواصر شراكة في النبوة.. لكن هكذا الشخصيات التاريخية دخلت الدين من أوسع أبواب العرب فتقدست بقدسية الدين، فتصبح أخطاءهم تعاليم دينية مستديمة. على عكس الحال من المسيحيين، فهم يخشون الخلط بين ما هو تاريخي وما هو ديني، ويفصلون فصلا تاما بين الشخصيات الدينية والشخصيات التاريخية (السياسية – والعسكرية)، ولا يقدسون الشخصيات التاريخية أيا كان فضلها، يفرقون بين رجل الدين ورجل الحكم والسياسة والعسكرية، بينما نحن المسلمون للأسف الشديد ندمج بين الدين والسياسة والحرب، لأن العرب حكموا باسم الدين وحاربوا باسم الدين وظلموا وانتهكوا وأجرموا باسم الدين، ونحن تقمصنا شخصياتهم وتقمصنا عقولهم بصبغة دينية، فجعلنا التاريخ كله دينيا والشخصيات السياسية والعسكرية كلها صارت شخصيات دينية، وكل المعارك جهاد في سبيل الله، حتى ما كان منها جرائم حربٍ ضد الإنسانية، حتى معارك العثمانيين لاحتلال مصر صارت فتحا عثمانيا ! رغم أسبقيتنا إلى الإسلام منهم، وجعلنا

٣٧. أما ظاهرة "النوستالجيا الدينية: وهي ظاهرة نفسية عصية على الفكر والفهم نجدها تتجسد بصورة تغرق الشعوب المسلمة في أرجاء الوطن العربي، وظاهرة "النوستالجيا" هي ظاهرة نفسية يعرفها علماء الطب النفسي، والنوستالجيا باللغة اليونانية القديمة تعني" ألم الشوق" وهو مصطلح يستخدم لوصف الحنين إلي الماضي، وأصل الكلمة يرجع إلي اللغة اليونانية إذ تشير إلي الألم الذي يعانيه المريض إثر حنينه للعودة لبيته مع فقدان الأمل في تمكنه من ذلك للأبد. تم وصفها علي أنها حالة مرضية أو شكل من أشكال الاكتئاب في بدايات الحقبة الحديثة، ثم أصبحت بعد ذلك موضوعا ذا أهمية بالغة في الفترة اللاحقة. وفي المجمل، النوستالجيا هي حالة مرضية تتجسد في حب شديد للعصور الماضية بشخصياتها وأحداثها.

٣٨. وكُنا قد تحدثنا في الإضاءة الثانية عن ضرورة وحتمية إسقاط القومية العربية عن الإسلام، وقلنا أنها مضرة بالدين ومضرة بالصحة النفسية والعقلية ومضرة بمستقبل الشعوب ومانعة عن هضم الحضارة الحديثة، لأنها تجبر العقل على استعمال فتيس الغرس للغوص في متاهات الحكايات التاريخية وتجبره في الوقت ذاته على إدارة المحرك للخف فقط بينما الشعوب تدير محركاتها للأمام، لأن الدين نزل في بركة من الطين الملوث هي القومية العربية، وصار على من يريد الدين أن يستعد للغوص فها، لأنه لا أحد يريد استخراجه من هذه القومية وإجلائه من آثارها.

٣٩. فهناك كارثة فكرية تنشأ من اقتران الدين الإسلامي بالقومية العربية، كارثة على المستوى العقلي الفكري والنفسي معا؛ ذلك لأن القومية العربية تمثل حاليا بالنسبة للدين رداءه وإزاره، فهي تحمل مناسبات نزول القرآن وأحداث ومواقف وكل الظروف الواقعية التي تزامنت مع نزول القرآن وجميعها تنحصر في عنصرين إما (تشخيص الصفة المرضية أو الإشكالية العقائدية) وإما (وصف العِلاج)، أي كل الظروف المتعلقة بنزول القرآن من البيئة العربية المريضة، وإضافة إلى ذلك المرويات والحكايات والأحداث التاريخية قبل وأثناء وبعد البعثة والخلافة وما بعد الخلافة، فالمجموع هنا (مجموع المادة المعرفية التي تتعلق بالقومية العربية) يفوق من حيث الحجم المادة المعرفية الدينية

من كل حكام العرب خلفاء من أولياء الله حتى ما كان منهم لا يعرف من دينه سوى اسمه ! فالتاريخ الذي لا صلة له بالدين جعلناه تاريخا للدين، والجرائم التاريخية جعلناها أركانا للدين...

(القرآن) فالقرآن كتاب واحد أما ما يتعلق به من كتب السير والمرويات والفتوحات والخلافات يعد آلاف مؤلفة من الكتب(وهي تمثل القومية العربية ولا تمثل القرآن).. وهذا ما يعني أن شخصا معتدل الحجم والطول ارتدى ملابس قرية قريش بكاملها، فأصبح من الصعب على باقي شعوب العالم أن تراه أو تسلم عليه أو تعرفه، لأن ملامحه غاصت وتوارت تحت ثياب القرية التي حملها، فإذا ما دخل مدينة ما فمن الصعب على أهل هذه المدينة التعامل معه إلا بعد الغوص في ثنايا ملابسه والاختفاء فيها.. هكذا وصل الإسلام إلى العالم محملا بثياب القومية العربية التي أثقلته وتوارى تحتها جوهره، لدرجة أننا نجد أغلبية الأحكام الفقهية تستند إلى مادة تاريخية بحتة ولا صلة لها بالقرآن.

٤٠. أما الكارثة الثانية، فهي أن ملامح القومية العربية (جميع الأحداث والمواقف والمرويات والحكايات والأقوال والمأثورات) تحمل الصورة البيئية للأحداث المعاصرة لها في زمانها أي أحداث ماضية، وحينما تصل إلى الذهن فهي تحتاج منه أن يرسم صورة واقعية(وليست معاصرة) صورة واقعية زمانيا ومكانيا مناسبة لسياق الحكاية والرواية، وهذا ما يفرض على العقل الاعتياد على رسم صورٍ ذهنية بلون الماضي، وأن يستخدم الأدوات المعتادة في رسم تلك الصورة الذهنية (المحتويات البيئية الملائمة لسياق الرواية والحكاية، مثل الخيول والجمال والصحراء والخيام والغنم والمعارك والسيوف..إلخ) ومجرد اعتياد العقل على رسم صورٍ بهذه المواصفات، فمعناه عجزه بذات القدر عن رسم صورٍ عصرية وصور مستقبلية للتكنولوجيا والنانوتكنولوجي، لأن سائق السيارة لا يسير إلى الأمام وإلى الخلف في وقتٍ واحد، وإنما يخصص بعض وقته وقدرته للنظر في المرآة الخلفية، والبعض الآخر للنظر أمام السيارة، والوقت والجهد المستهلك في الأولى يُستقطع من الوقت والجهد المستهلك للثانية، وبالتالي، عندما نتصور آلية العقل في رسم الصور الذهنية بلون الماضي، فهذا يعني استقطاع هذه القدرة (بذات الكم) من القدرة المستهلكة في رسم صورٍ ذهنية حاضرة ومستقبلية. وكلما زادت واحدة قلت الأخرى بذات القدر، إذن سنصل إلى مرحلة نجد فيها العقل عاجزٌ عن رسم أي صورٍ ذهنية معاصرة أو مستقبلية بسبب اعتياده رسم صورٍ ذهنية بلون الماضي وإجادته هذه الآلية واستغراقه فيها واستهلاك جل قدرته وجهده في رسم الصور بلون الماضي، وفي النهاية يصبح المجتمع كله متخلف عن الحضارة العصرية عاجز عن تصورها واستيعابها لأن عقله امتلأ بملايين الصور الذهنية من الماضي بحجة أنها الخلفية الثقافية للدين!

٤١. فهل أن الدين يُعجز العقل عن مسايرة الحاضر؟، فمشيئة الله أن يعيش النبي في عام ٥٧٠ ميلاديا، ومشيئة الله أن نعيش نحن في عام ٢٠٢٠ فلماذا نعترض على مشيئة الله ونحب الرجوع لعصر النبي؟ فدين الله ليس مرتبطا بالقومية العربية ولم يجعلها حجابا مانعا للعقل من مسايرة حياته في الحاضر، ولكن القومية العربية التي هي التي قيدت الدين وكبلته كما الأخطبوط بها فأعجزته عن الحركة ومسايرة الحضارة، خاصة أن القومية العربية ليس لها نتاج معرفي معاصر وتكنولوجي حديث إنما كل رصيدها المعرفي من الماضي ووقت البعثة وما تبعه من خمسمائة عام تجارة باسم الدين وبغطاء الدين، غير أن تلك الصور الذهنية المطلية بلون الماضي ليست حقيقية وإنما افتراضية بحتة، وهذه كارثة أخرى تجعل العقل ينفصل عن واقعه وحاضره وحياته المعاصرة لأنه اعتاد رسم صورٍ ذهنية افتراضية من خياله هو ولم يعشها ولم يرها واقعيا.. إذن القومية العربي مُضرة بالصحة النفسية ومضرة بالدين أيضا ومضرة بالسلوك الاجتماعي لأنها ثوب بدوي صحراوي بري وهي المانعة من انتشاره في العالم مقارنة بالديانة المسيحية، فالدين كي ينتشر بسهولة لا بد أن يميل إلى التجرد والتعميم مثل نصوص الدساتير والمواثيق الدولية، لا أن يظل في جدود الخطاب الموجه للقومية العربية، لأن معنى ذلك أنه يفرض على من يريدون الإسلام أن يكونوا عربا وهذا مستحيل أن تتحول كل شعوب العالم إلى عرب، وإن انتشر يجعل أصحابه يحبون الماضي والنوستالجيا أكثر من الحاضر، وبطبيعة الحال الإنسان الذي لا يحب الحاضر أكثر من الماضي مستحيل أن يقدم إبداعا علميا أو أدبيا في الحاضر. لأن النوستالجيا في الأصل هي حالة مرضية نفسية (حب الماضي واعتياده وتآلفه) تجبر العقل على العودة للوراء كما لو كنت تكيِّف وتصمم جهاز تلفاز على العمل باللونين القديمين الأبيض والأسود كما في القرن الماضي، فيصبح من غير المتصور أن يعمل بتقنية شاشات البلازما الحديثة.. فلو نظرنا مجال العلوم الطبيعية (فيزياء كيمياء وأحياء وهندسة..إلخ) نجدها منقطعة الصلة تماما وكليا بالماضي، ولن تحتاج لكي تفهم ابتكار أو اختراع أو آلية ميكانيكية ما أن تعود لرسم صورة ذهنية بلون الماضي، فلماذا نفرض على أنفسنا كي نفهم الدين أن نعود لرسم صورة بلون الماضي؟ ذلك لأن العلم الطبيعي نجا من القومية العربية وتطهر منها ولم تستطع تغليفه بردائها لأنه ليس من أبجدياتها، بينما الدين كان لعبتهم، فغلفوه وطبخوه وعجنوه بقوميتهم وحكاياتهم ومروياتهم فأصبح متعلقا بقوميتهم تعلق الطفل بأمه وصار من الصعب فطامه وفصله عنها، وهكذا صار ارتباط الدين بالقومية العربية مانعا من انتشاره بعيدا عنها.

٤٢. أما مشكلتنا نحن المسلمين في الوطن العربي مع النوستالجيا فهي التدين بطعم التاريخ؛ أي أننا عندما تقشعر نفوسنا بحالة التدين فيسودها الحنين إلى العصور الوسطى، وتعود مخيلتنا تلقائيا إلى عصر النبي والصحابة والخيمة والوتد وصهيل الخيول والفرسان وقعقعة السيوف، لدرجة أن زملاءنا السلفية في الجامعة بعضهم كان يرفض الأكل بالملاعق ويطرحها جانبا ليأكل بيده ويلعق الأطباق بأظافره على اعتبار أن هذا هو صحيح الدين لأن المجتمع العربي كان كذلك وقت البعثة، وكان الصحابة يأكلون كذلك.. هذه صورة العصور الوسطي للمجتمع العربي في أذهاننا أو ربما رسمها معلمونا في المدارس بهذه الملامح، فنحن في مراحل التعليم الأولي درسنا تاريخ العرب أكثر من الإسلام نفسه، واعتبر أساتذتنا أن الحكايات التاريخية وبطولات الفروسية الأكثر إثارة هي الأكثر قبولا وبساطة والأنسب لعقولنا الصغيرة، وأسهل في توصيل الصورة من غرس مبادئ دينية وأخلاقية صعبة، ولذلك استرسلوا وأكثروا في الحكايات والروايات التاريخية التي تحبب إلينا تاريخ الصحابة والعرب باعتبار ذلك تمهيد معرفي وتأهيل نفسي لأن يكون التلميذ مثقفا دينيا فيما بعد.. ومن هنا كبرنا وكبرت أفكارنا على قصص وحكايات العصور الوسطى العربية التي أحببناها في صبانا، ولم ندرك أنها ليست الإسلام وأنها محض تاريخ العرب قديما.. فكبرنا وشبت أفكارنا على أن الإسلام لا يكون إلا بطعم القصص والحكايات التي كانت أكثر حصص الفصل إثارة في نفوسنا.. صوت الخيل والليل والسيف والرمح والحروب.. برغم أن المنطق العقلي يقول بأنه من الطبيعي أن يكون هناك حالة اغتراب في عقولنا بشأن التاريخ، لأننا نتحدث عن أمور ووقائع وأحداث لم نشهدها ولا يوجد شبيه لها في عصورنا، فالأصل أن نشعر باغتراب عند سماعها، لكن ما يحدث هو العكس أننا نشعر بشوق وحنين إلى الماضي وكأننا عشناه وكأنه كان أفضل أيام حياتنا، وإذا أردنا أن نعيش الإسلام حقيقة فعلينا العودة إلى الماضي النموذجي.! وهذا ضد الطبيعة وضد الحياة التي خلقها الله أطوارا متغيرة متجددة باستمرار.

٤٣. فنحن درسنا تاريخ العرب تفصيلا وحفظنا أسماء الشخصيات العربية القديمة أكثر من أجدادنا وحكام مصر القديمة، ودرسنا الأدب والثقافة العربية بالحكايات والروايات المؤثرة في الوجدان، بينما عند دراسة التاريخ المصري اكتفى معلمونا بتقارير شبه رسمية مدمجة عن نظام الدولة، تقارير لا تستقر في عقل ووجدان الطالب لأنها لم ترسم صورا حية للحياة المصرية ولم تنقل حكايات ووقائع وقصص حية تستقر في الوجدان كما استقرت حكايات العرب، فأصبح تاريخنا

المصري أشبه بالأرقام الرياضية ينساها الطالب بمجرد خروجه من الامتحان ولا يستقر في عقله ووجدانه شيء مقارنة بالثقافة العربية، ولهذا ما زلنا نعيش حالة اغتراب مع ماضينا وتاريخنا رغم عراقته...

٤٤. حتى ما درسناه في فصول التاريخ عن الحضارة الفرعونية لم نعرف فيه عن حضارة المصريين الفراعنة بقدر ما عرفناه عن تاريخ الحروب العربية والقبلية في العصور الوسطى، فصرنا بالكاد نميز بين تاريخ الحضارة المصرية وتاريخ العرب في عصورهم الوسطى المتخلفة كثيرا، وبرغم ذلك كانت هي المحببة إلى نفوسنا أكثر من حضارة أجدادنا لأنها ارتبطت بالحكايات الدينية وسيرة النبي محمد وأيقونات الصحابة، ولذلك حصلت على القدسية الدينية.. حصل التاريخ العربي على القدسية الدينية، ثم بعدما كبرنا لم نستطع التفرقة ما بين تاريخ العرب والدين الإسلامي وعقدنا النفسية، فصرنا كلما غلبت علينا نزعة الحنين إلى الماضي، فيكون الماضي المحبب إلى نفوسنا وهو التاريخ المختلط بقدسية الدين، فأصبح لدينا خليط (عقد نفسية – نوستالجيا الحنين إلى العصور القديمة – ميل إلى التدين)

٤٥. مع أن الدين ليس ثقافة تاريخية، بل مبادئ وقيم أخلاقية حية تنمو وتزدهر بمرور الوقت.. ومصدر هذه القيمة هو النص القرآني والتوجيه النبوي وليس الوقائع والحكايات التاريخية التي اعتبرها الأصوليون معايير نموذجية للسلوك الإسلامي، بينما هي محض أخطاء تاريخية أخذت قدسية دينية من قدسية الأشخاص الذين قاموا بها..ومن هنا أصبح المتدينون في الوطن العربي يريدون العودة إلى الحياة في العصور الوسطى باعتبارها الأطهر بينما هو في الواقع أثر النوستالجيا النفسية الدينية التاريخية، فأصبح ديننا تاريخ بطعم الدين، ودين بلون ورائحة التاريخ..

٤٦. ولذلك كلما أقدم شاب على تفجير نفسه في فوج سياحي أو حافلة تقل الأقباط إلى الكنيسة، نقول أنه إرهابي ومريض نفسيا، وكلمة إرهابي تأتي هنا ذات دلالة فكرية بحتة تدل على انحراف فكره وعقيدته بعيدا عن مبادئ الدين السمحة، بينما عبارة "مريض نفسي" تعني أنه يعاني من حالة مرضية عضوية، فما العلاقة بين انحراف العقيدة الدينية والمرض؟ العلاقة كامنة في النوستالجيا، وهي مرض نفسي، يرتكز على غريزة وألم الشوق والحنين للماضي، وطالما غرست فكرة الدين في عقولنا صغارا أنها الماضي وتاريخ العصور الوسطى، فلذلك تأتي النوستالجيا بطعم

الدين أو الماضي، لأنه في الواقع الدين في نفوسنا هو الماضي، هو تاريخ العرب القذر، فالنوستالجيا الدينية سببها أننا نستقي المعرفة الدينية من أحداث وحكايات تاريخية وليس من المبادئ والأوامر القرآنية..

٤٧. وبخاصة أننا نستقي الدين في صغرنا بصبغة عاطفية لا فكرية، هذه الصبغة العاطفية قائمة على حكايات الإثارة التاريخية، وانتصارات خالد الوليد، وطالما ترسخ الدين في عقولنا بصبغة عاطفية دينية تاريخية، فمن الطبيعي أن من يمرض نفسيا منا سيشعر بالنوستالجيا التاريخية الدينية، لأننا استقبلنا الثقافة الدينية بصبغة عاطفية بحتة وحينما تعتل نفوسنا وتمرض عواطفنا تمرض معها تصوراتنا الدينية، وتمرض تبعا لها سلوكياتنا وانفعالاتنا وأفكارنا، ومن هنا يأتي الإرهاب والعنف والطائفية والتنابذ والتباغض.. إذن سبب الإرهاب هو الاعتلالات النفسية في المجتمع وليس الدين، وسبب ارتباط الإرهاب بالدين هو انغراس الثقافة الدينية في ساحة عاطفية قابلة للاعتلال، غير أن الثقافة الدينية ذاتها ليست متمثلة في مبادئ وقيم عدلية وعقائدية وإنما تصورات وحركات وقصص وخيالات وحكايات تاريخية... هذه الثقافة التي دخلت من الباب العاطفي صارت محلا لتفريغ آلام النوستالجيا لأن النوستالجيا ذاتها هي مرض العاطفة التاريخية.. وبطبيعة الحال الدين في عقولنا هو العاطفة التاريخية، ولذلك يكون الإرهاب قائما على حالة مرضية عاطفية مشبعة بصورة الدين في العصور القديمة، فالثقافة الدينية قد استمرت تنمو في عقولنا منذ الصغر على وتيرة ونغمية الماضي لا الحاضر لأن أساتذتنا استوعبوا الدين وتصوروه في حكايات وروايات الماضي ولم يستوعبوا مبادئه في الحاضر، أو لم يحدثونا عنها.. فإذا ركزنا جهدنا على النص القرآني فلن نحتاج من التاريخ سوى الإلمام بأسباب النزول ووقائعها مع بعض الأحاديث المنقحة، هذا كفيل بفهم وتفسير القرآن، بعيدا عن سائر الأحداث والمرويات التاريخية التي شوهت عقولنا وشوهنا بها الدين، وصار الدين مخضبا بدماء النوستالجيا..

٤٨. فكلما ذكرت كلمة الدين عادت أذهاننا للعصور الوسطي لتلتقط صورة الصحابة في غزوة أو هجرة أو خناقة مع العرب، وكأن الصورة المثلي للدين لا يمكن فهمها إلا إذا سافرنا عبر الزمن للماضي كي نعيش الحدث في الصحراء، ونرتدي سترة البطل المجاهد في سبيل الله.. ونرى سيرة الصحابة والخلفاء التي علقت بأذهاننا أكثر من معاني القرآن نفسه ، وتجاوزت مرحلة كونها مجرد ذكري تاريخية إلى مرحلة كونها هي أيقونات الدين كله وحواشيه وحيثياته وتطبيقاته، ذلك لأننا لا

نملك صورة عصرية للدين ولذلك لا نطبقه في عصرنا بلغة ولهجة عصرنا، ولا نعرف كيف نعيش الدين الحق إلا إذا سافرنا عبر الزمن للماضي. وهذا في حقيقته ليس تدينا وإنما تاريخ العرب، فينبغي تدريس تاريخ العرب في المدارس السعودية فقط وبعيدا تماما عن الدين.

٤٩. فلابد أن ننقل ديننا من ركن النوستالجيا العاطفية في عقولنا إلى ركن الحياة المعيشية اليومية، وذلك بأن نفهم آيات القرآن ونتدبرها، لا أن نكتفي بترديدها وترديد حكايات التاريخ وما قاله جعفر فيها وابن جعفر، لأن ما يعلق بأذهاننا أكثر ليس هو النص القرآني وإنما تفسير جعفر والحكايات التاريخية التي تحيط به، ومن هنا تحل المرويات محل القرآن دون أن ندري أو أنها تحتل صورة ذهنية أوسع في عقولنا دون أن ندري؛ لأن الصور الذهنية تحتل في عولنا مساحات أوسع من المعاني المجردة. يعني أنا شخصيا عندما أتذكر آية أو حكاية أو أي شيء عن الدين لا يستقيم الأمر لدي إلا إذا استرجعت ذاكرتي صورة خيالية رسمتها طفولتي عن كل صحابي في ذهني وهو يضرب الرقاب بالسيف ويرتدي العباءة ويجري بحصانه في الصحراء، ثم عندما أكبر أجد صراعا ذهنيا بين صورة الحياة الدينية التاريخية التي احتلت عقلي وصورة الحياة العصرية المفعمة بأدوات التكنولوجيا والاتصالات، ومن هنا حتما تقع الخصومة بين الدين والدنيا، ونظل في حالة فصام عقلي، لأن الدين صار صورة بلون الماضي لم يرتسم في أذهاننا علي ذات الوتيرة التي نعيشها في عصرنا، فصار فهمنا للدين مجرد استشعار صورة من الماضي النبيل مختلفة ومنقطعة الصلة تماما بحاضرنا.

٥٠. وفي كافة الحالات فإن التبعية بنوعيها سواء كانت نوستالجيا أو مازوخية، فهي غريزة نفسية تتحكم فيها معدلات الهرمونات الذهنية بما يخلق للشخص فكرا ملائما لها، ويجعله يبحث عما يشبع نفسيته بالغذاء الذي يشتهيه وليس بالمفيد صحيا، وهي في كافة الأحوال غطاء عاطفي على العقل والوعي والإدراك، وكلا النوعين من التبعية يجد المادة الخام اللازمة له في ثقافتنا الدينية التي تمتلئ بها كتب التعليم في المدارس الحكومية المدنية، فما بالنا بالمدارس والمعاهد الأزهرية !..

٥١. بل إننا في الواقع يجب علينا تقليل الدراسة التاريخية بوجه عام في حدود ١٠٪ مما يتلقاه الطفل أو الطالب من مواد تربوية وتعليمية عامة، لأننا لا ينبغي حشو أدمغتنا بأكوام من المعلومات التاريخية لا نجد وقتا للانتفاع بها، لأنها غير قابلة للاستهلاك وهي ليست معرفة تكنولوجية، بل تنحصر فائدتها في جزئيتين فقط؛ إما أن نأخذ منها العبرة أو نفتخر بها فقط، لكننا لا ينبغي أن ننسى أو

نتجاهل خطورة العامل النفسي من وراء المعرفة التاريخية، لأنها تلون عقولنا بلون الماضي فتزيد اغترابنا مع الحاضر، حيث أنها تغذي ملكة النوستالجيا في عقولنا بدرجة شديدة، فتجعل عقولنا طول الوقت ترسم الصور الذهنية المساعدة للفهم والاستيعاب بلون الماضي، فتجعلنا نشعر بالحنين إلى هذا الماضي النبيل المثير وكأنه الوجه الأمثل للحياة، بينما هو في واقعه كان مثل حاضرنا بل أقل منه، لكن عقولنا برعت وتميزت في رسم الصور الذهنية بصيغة الماضي فتجده وكأنه الأفضل والأمثل، خصوصا أننا نرسم تصوراتنا الذهنية عن الماضي بحرية كاملة وبمثالية فائقة دون أي قيود أو ضوابط، لأنها تنهل من جزء الخيال في عولنا دون ضوابط، بخلاف الصور المعاصرة التي لا بد أن تتقيد بحدود ومعالم الواقع ومدركاته.

٥٢. فنحن نتصور أن الماضي كان نبيلا مثاليا بينما هو يقودنا إلى الخلف ويشكل ضبابا على عقولنا تمنعنا من رؤية المستقبل، ولذلك يجب انتقاء المادة المعرفية التي تتغذي عليها عقول أطفالنا بعناية فائقة.. فنحن نجد الغرب يشحنون عقول أبنائهم بقصص الخيال العلمي والمستقبليات، وصور الحدائق والأشجار الخضراء والزهور كي تنمو أفكارهم وتصوراتهم في هذا الجو من السلام فيعيشوا حياة مريحة.. بينما نحن نشحن عقولهم بحكايات من أساطير الماضي الأسهل هضما بالنسبة لنا.. فلو تصورنا قائد السيارة إذا كان يتحرك بسيارته للأمام، فحتما سينظر طول الوقت إلى الأمام، وإذا كان يعود للخلف فهو يركز نظره في المرآة الخلفية بصورة مستمرة، وعندما يعتدل للحركة الأمامية فيركز نظره للأمام ويكتفي بعشرة بالمائة فقط للنظر في المرايا الخلفية كي يضبط مساره على الطريق.. مع أن النظر إلى الأمام هو نظر حقيقي مباشر وواقعي، أما النظر إلى الخلف فهو محض صورة في المرآة.. ولذلك نجد الشعوب المتحضرة دائما تتطلع إلى المستقبل وتقرأ أحداثه مبكرا وتنتعش في الحاضر بجرأة وواقعية، بينما الشعوب المتخلفة تعيش على تمجيد ذكريات الماضي وحكاياته النوستالجية، وكأنها تقود سيارتها إلى الخلف، ولكثرة شعورها بالضعف والخذلان تبحث في تاريخها عن الشخصيات البطولية الأسطورية لتمجيدها كي تمنحها قدرا من الثقة بالنفس، ولهذا نجد أن أفضل الشخصيات التاريخية المحببة إلى قلوبنا هي الشخصيات صاحبة الانتصارات، وصاحبة أكبر سيرة ذاتية تحفل بأعداد أكثر من القتل والذبح والبطولات.. كل ذلك يعوض شعورنا الدفين بالضعف ولانهزام أمام شعوب العالم المنتصرة علينا فكريا وثقافيا وأخلاقيا.

٥٣. والأغرب من ذلك، تلك النظرية الصوفية التي تبناها الشيخ الشعراوي حينما رفض عمليات نقل الدم والغسيل الكلوي باعتبارها تعطل لقاء الإنسان بربه! وقال أنها حرام ! لكنه حين مرض قام بعملية نقل دم كاملة فى لندن !.. فلماذا تراجع الشيخ ولم يعجل بلقاء ربه ! ولماذا يحب الموت على الحياة ! على اعتبار أن الموت هو لقاء الله؟ .. وهل الإنسان في الحياة يكون بعيدا عن الله؟ فكيف لا يفلت من قدر الله طالما كان بعيدا عنه؟ فمن أراد لقاء الله فليذهب إلى الصلاة وهو حي لا إلى المقابر وهو ميت، لأن لقاء الله الحق يكون في الصلاة، كما قال نبينا أن أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد، أما بعد الموت فيظل الإنسان ترابا عدما حتى يبعثه الله مع البشر جميعا في يوم واحد، فما مصير من استعجل لقاء الله هنا؟ هل لقيه قبل معاده؟

٥٤. في الواقع أن هذه النظرة للحياة هي فلسفة انتحارية وليست إيمانية، لأنه ليس المؤمن من يتمنى الموت ليلقى الله، فالله خلقنا لنعيش فكيف نتلذذ نحن بالموت؟ فطالما الموت كان شيئا محببا فلماذا خلقنا الله منذ البداية؟ هل فقط لنخوض تجربة الموت؟، لماذا نريد أن نكون ضحية ؟ وتحديدا لماذا نحلم طول الوقت بأن نكون ضحية من أجل الدين مع أن من يموت شهيدا من أجل ماله ونفسه ووطنه في ذات المنزلة ؟ في الواقع هذه فلسفة عقلية مليئة بالإحباط واليأس الدفين وتتمنى الخلاص من الحياة، لكن الإنسان عادة ما يبحث عن مبرر لمشاعره، فعندما ييأس من الحياة ويتمنى الموت يبحث عن مبرر في الموت فيقول أنه لقاء الله، مع أن لقاء الله قد يكون في الحياة كما في الموت، بل إن إرادة الله أنه خلقنا لنحيا لا لنموت ونتلذذ بحبنا للموت وكأنه هو الإيمان ! أو أن من يحب الموت أكثر فهو الأكثر إيمانا بالله ! فهل كانت رسالة الله في الأصل أن يموت الإنسان؟ أم ليحيا ويعمل ويعمر الكون ؟ وهل يجهد الله نفسه في خلق الإنسان والإنعام عليه بنعمة العقل والسمع والبصر، ثم يخلق إيمان بداخلنا ويكون هذا الإيمان هو حب الموت ! هل أن إرادة الله هي تدمير صنعته ؟ لا بالطبع ولكنها فلسفة اليأس من الحياة .. يأس دفين عميق في النفس مغروس من أجيالٍ قديمة، أيام نام الفراعنة في مقصوراتهم بالأهرامات وظلوا مستغرقين في النوم ألفى عامٍ حتى اليوم.. بينما نمنا نحن تحت غبار الاحتلال العربي واستعذبنا الغبار غطا لعقولنا... ألم تطلع الشمس لنستيقظ؟

٥٥. أما سر العلاقة بين الإيمان وحب الموت فقد استقاها الفقهاء من فهم خاطئ جاء من فكرة الجهاد على اعتبار أن من يؤمن بالله يسارع في الجهاد ولا يتواني ولا يتأخر كما الثلاثة الذين خلفوا وتقاعسوا عن الجهاد والسير في جيش العسرة، وكأن الذين أسرعوا في الجهاد كانوا يحبون الموت أكثر من

الذين تخلفوا ! ومن هنا استمد الفقهاء فكرة العلاقة بين الإيمان وحب الموت والثواب، لكن هذا الجهاد لم تكن غايته الموت للفوز بالجنة وإنما كانت غايته من أجل أن يحيا النبي ويحيا الدين، والصحابة الذين انخرطوا مسرعين في جيش العسرة لم يكونوا يحبون الموت وإنما كانوا يحبون النبي أكثر مما يحبون أنفسهم ويحبون الدين ولهذا أسرعوا بالدفاع عنه كي يحيا النبي ويحيا الدين .. ففي كل الحالات الجهاد غرضه الحياة وليس الموت من أجل الجنة، كما في القصاص حياة، لأن القصاص يمنع تكرار الجريمة في المجتمع، إنما الشهادة والجنة هي تعويض لمن فقد الحياة لغرض شريف ولغرض حياة أخرى، والتعويض هنا لا يساوي الأصل لكنه بديل عنه، لأن رسالة الله في الكون هي الحياة وليس الموت، والجهاد شرع من أجل الحياة وليس من أجل الجنة، أي أن الله عندما أمرهم بالجهاد لم يكن يقدم عروض ترويج للجنة، وإنما شرع استثناء لغرض الحياة. فمن يموت دفاعا عن وطنه يموت كي يحيا أهله وشعبه، إنما الفقهاء اعتبروا الموت طريقا سهلا وسريعا موصلا إلى الجنة مباشرة، وهذا خطأ عقائدي انبثق من نزعة انتحارية دفينة وليست إيمانية، لأن بذلك أصبح الموت في حد ذاته غاية، فصار كل محبط من الحياة يبحث له عن طريق مشروع للموت كي يفوز بالجنة ! وإن لم يجد وسيلة مشروعة للموت فإنه يظل منتظرا لانتهاز الفرصة في أقرب طريقة مشروعة أو تبدوا مشروعة للخلاص من الدنيا...

٥٦. لدرجة أنه في الأحداث الإرهابية التي وقعت في مسجد بئر العبد ٢٠١٧ في سيناء حيث قتل الإرهاب ٣٠٥ فرد من المصلين أثناء صلاة الجمعة ولم يتبق في المسجد سوى خمسة ينازعون الروح، وكان بينهم إمام المسجد ظهر بعد ذلك على الشاشة وهو يقول للمذيع: "وقت وقوع الأحداث أصابتني عدة رصاصات وانتظرت صعود روحي إلى بارئها فلم تصعد الروح !! " كان يتحدث بلهجة عتاب ذاتي وكأنه يلوم روحه على أنها لم تصعد كي تجعله من الشهداء !! كان يلوم نفسه لأنه خسر الشهادة ! كان يتحدث بلهجة عتاب للروح التي أعادت فيه الحياة مرة أخرى، وبالطبع هذه ليست عقيدة إيمانية وإنما نزعة إحباط ويأس عميق من الحياة تجعله ينتظر أقرب فرصة مشروعة للموت، كما كان الشيخ الشعراوي رحمه الله يقول أن علاج الغسيل الكلوي يؤخر لقاء الله ! وكل ذلك تحت مسمى ومبرر ديني مشتق من نظرية الشهادة في سبيل الله وكأنها الطريق الأمثل إلى الجنة، مع أنها محض تعويض عن خسارة الحياة، أو طريق بديل واستثنائي إذا عجزت الحياة..

٥٧. ومثال آخر أحد الضباط المحترمين كان كلما ركب الطائرة في جولة استطلاعية كان يتمنى الشهادة ! ويقول أنه دخل الخدمة العسكرية كي يفوز بالشهادة ثم الجنة ! أليس هناك طريق إلى الجنة سوى الموت؟ وقد جاءت الطلعة الموعودة في سيناء وتحطمت الطائرة به وزملاءه على أثر قذيفة هاون أطلقتها العناصر الإرهابية، فتحققت أمنيته ونال جميعهم الشهادة ومعهم حطام الطائرة..! ومبدئيا، فإنه شيءٌ جميل وشريف أن تموت من أجل الوطن، لكن الأجمل والأفضل أن تعيش من أجله.. ألم يخلق الله الحياة في الأصل كي تكون طريقنا الأصلي إلى الجنة؟ فلماذا استبدلنا الحياة بالموت وجعلنا الموت والشهادة هو الطريق الأصلي إلى الجنة ؟ أو لماذا جعلنا الشهادة والموت هي الطريق المفضل إلى الجنة مع أن الله خلق لنا الدنيا كي تكون طريقنا الأصلي وفق رحلة الحياة الطبيعية ؟.

٥٨. وللأسف هي ذات الفلسفة التي تبناها الشيخ الشعراوي في حب الموت وكأن حب الموت دليل على حبنا لله برغم أن الله خلقنا لنحيا ونعمر الكون وليس لنموت ! وهي أيضا ذات الفلسفة التي تشبع بها الشاب الإخواني محمود الأحمدي، خلال الزيارة الأخيرة له من أهله في السجن قبل إعدامه في قضية مقتل المستشار هشام بركات النائب العام المصري، ذكر أهله أنه كان سعيدا باستقبال الشهادة، وأنه تهاتف مع أصدقائه وأقاربه وأخبرهم أن أسعد يوم في حياته سيكون يوم الشهادة (تنفيذ حكم الإعدام المنتظر) برغم أنه قال أنه بريئ من دم النائب العام، لكن التساؤل، لماذا أصلا يتمنى الموت؟ هل لأن الموت في هذه الحال يعتبر شهادة؟ وهل أن الشهادة لا تعني موت؟ فهل خلقنا الله لنحيا أم لنموت؟ ونتساءل لماذا يحب هؤلاء الموت وكأنهم يبحثون عن إبرة في كومة قش وهي الموت أو الشهادة ؟ هذه بالطبع دوافع نفسية انتحارية محبطة على المدى المجتمعي البعيد تجعلنا نبحث عن مبررات للانتحار، ويا حبذا لو كانت مبررات دينية تمنحنا الأمل في الفوز في الآخرة مع الخلاص من الدنيا !

٥٩. أذكر حينما كُنا أطفالا صغار في المراحل التعليمية المبكرة، كُنت أشعر بنوعٍ من الحزن العميق جدا، وأشعر بأن الله ظلمني عندما خلقني ! وكنت أعاتب ربي في دواخلي على هذا التكليف الإيماني الصعب.. فليس من السهل على طفلٍ أن يقتل ويذبح ليكون مؤمنا ويفوز بالجنة.. ذلك لأنني كنت خجولا ورقيق المشاعر مرهف الحس ولم أكن أتمتع بالجرأة والشجاعة وغلظة القلب التي تمكنني من قتل كافر كي أفوز بالجنة .. كنت أخشى منظر الدماء وأنفر من الأذى والقتل والجروح وأرهب صوت المعارك والسيوف والغبار .. وكان أساتذتنا يعلموننا بأن الصحابة كانوا يجاهدون في سبيل الله بقتل الكافرين كي يفوزوا بالجنة، فعرفت أني لن أفوز بالجنة بسبب ضعف إيماني لعدم

قدرتي على تحمل منظر الدماء والقتل والطعن بالسيوف كما كان الصحابة .. وكنت أشعر أن الله هو من خلقني ضعيفا خجولا بهذا الشكل، ولا ذنب لي أنه لم يخلقني شجاعا غليظ القلب مثل الصحابة كي أقتل جميع الكافرين وأفوز الجنة . فلم نتعلم أي شيء عن التسامح من تاريخ العرب، لم نتعلم أي شيء عن العمل والبناء والإنتاج وحب العلم والمعرفة.. لم نتعلم حب الحياة في هدوء وسلام... ثم بعد دخول الجامعة اكتشفت أني كنت مغفلا بالغ الطيبوبة يستحق بجدارة جائزة نوبل في الغباء، واكتشفت أن مؤشر الإيمان لا يمكن قياسه بالكفاءة في القتل والإجرام، إنما ذلك فقط كان مؤشرا لإيمان الصحابة العرب، لكنها في النهاية خطيئتنا، فبدلا من أن نأخذهم عبرة أخذناهم قدوة، برغم أن القصص القرآني الذي حكى عن أقوام سابقين ذكر حكاياتهم ووقائعهم على سبيل العبرة للنبي وليس القدوة ! لكن هكذا العقول القاصرة تبحث عن القدوة فيمن سبقها، أما العقول الناضجة فتبحث عن العبرة فقط فيما سبق.

٦٠. فالجهاد في عهد النبي كان دفاعا عن الدين، فالدعوة كانت في مهدها كما الطفل الذي هو بحاجة ضرورية إلى حضانة وحماية مستمرة من العدائيات، خاصة عدائيات قريش التي تكررت حملاتها العسكرية على النبي أكثر من عشر مرات خلال عشر سنوات فقط ولم يكن الدين قد اكتمل بعد، لكن اليوم فقد اكتمل الدين وانتشر في كل العالم فلم يعد هناك معنى للجهاد دفاعا عن الدين بالسلاح أو ما قد يؤدي إلى الموت، إنما الجهاد الآن هو فقط حق الدفاع الشرعي عن النفس والمال والوطن، وهذه الأمور ليست بحاجة إلى دين يحث عليها، لأنه حتى الثلاثة الذين خلفوا في جيش العسرة ما كانوا يتخلفون في الدفاع عن أنفسهم وأموالهم. لكن حتى في هذا النوع وكل أنواع الجهاد ليس هناك معنى لعقيدة تقوم على حب الموت كما كان يقول خالد ابن الوليد أو كما نقلت عنه كتب التاريخ، أنه بعث رسالة إلى ملك الفرس يقول له " لقد جئتكم بقوم يحبون الموت أكثر مما تحبون أنتم الحياة " ! فالغاية لكل مجاهد في سبيل نفسه أو ماله أو وطنه هي النصر والحياة، وليس الشهادة، لأن الشهادة تعني فقدان الأمل في كسب الدنيا أو انعدام الحياة حال الخسارة، أي أن خيار الشهادة هو في ذاته خيار انتحار مشروع من أجل كسب دنيوي سواء كان الأهل أو الوطن، لأن الشهادة لا تعني فقط ثواب في الآخرة ولكنها تعني أيضا خسارة في الدنيا وخسارة في رسالة الحياة التي بعثنا وخلقنا الله من أجلها، الله خلقنا كي نحيا ونعمل ونعبد ثم نفوذ بالجنة بالطريق الطبيعي لا لنموت فنفوز بالجنة، بمعنى أن هناك كثيرين في الدنيا يعيشون من أعمارهم حتى

الثمانين والتسعين ويقدمون الكثير من الإنجازات والخيرات والثواب في الدنيا لأن الله يضاعف لمن يشاء فيستحقون أفضل درجات الجنة أي (الحياة+ الجنة)، فلماذا نترك هذا الطريق الأصلي لنختار طريق قصري مختصر في (موت=جنة) ؟

٦١. وفي الآونة الخيرة ثارت كثير من التساؤلات حول ظاهرة الإلحاد بين الشباب عقب ثورات الربيع العربي، قال الفلاسفة أن الشباب تجرأ على السلطة السياسية والسلطة الأبوية والتراثية، وطال من ذلك التجرؤ طيف على السلطة الإلهية، فظهرت أصوات بعض الشباب تعلن إلحادها بجرأة لم تكن معهودة من قبل، ربما كانوا موجودين لكنهم مثل الخلايا النائمة ولم تظهر أصواتهم إلا بعدما ارتفع سقف الحريات خلال الربيع العربي وبهت صولجان السلطة وبريقه بوجهٍ عام.. في الواقع إن كل مجتمع هو كيانٍ بشري أي كائن اجتماعي واحد وإن تعددت خلاياه وأنسجته، فيظل تصرف المجتمع وميوله الشائعة تمثل تيارا عاما كما لو كان شخص واحد هو الذي يتصرف. وبالنظر إلى أن هذا الكيان الاجتماعي يسير في طريق، فمن الطبيعي والمتوقع أن يكون هناك خروجات وشذوذات عن الطريق، أي انحرافات تجاه اليمين وانحرافات تجاه اليسار وتبقى الأغلبية العظمي للمجتمع منتظمة في المسار الوسطي.

٦٢. ولو نظرنا إلى المجتمع من منظور اقتصادي سنجده منقسم ثلاث طبقات؛ الأولى هي الطبقة الوسطى، وفوقها الطبقة العليا الأرستقراط وتحتها الطبقة الفقيرة المعدمة.. أما الطبقة الوسطى فهي تضم أغلبية أفراد المجتمع وهي تكون في الغالب محافظة بقدر ما من حيث الفكر والالتزام الأخلاقي ومن حيث النفقات الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية كذلك.. أما الطبقة الأرستقراطية فتكون أكثر تحللا فكريا من الضوابط الاجتماعية والاقتصادية، في حين الطبقة الفقيرة فدائما ما تكون مغلولة في كل شيء، مقهورة ومضيقة من حيث النفقات الاجتماعية والقدرة عليها، ومن حيث التقاليد الاجتماعية فهي الأكثر تحفظا. وفي جميع الحالات لا يمكن أن نجد مجتمع كله وسطي أو من الطبقة الوسطى اجتماعيا وفكريا وثقافيا واقتصاديا، فلا بد أن يكون بيننا فقراء معدمين، وأغنياء والغالبية متوسطين، ولا بد أن يكون بيننا رجال أعمال وعلماء عباقرة ومهنيين (أطباء مهندسين محامين ضباط ...إلخ) وبيننا جهلاء وبسطاء يعملون في خدمة الآخرين.. وهذا أمر طبيعي وصحي جدا في كل مجتمع لأن الله تعالى يقول : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ

رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)/الزخرف، وبالتالي لا يمكن أن يخلوا مجتمع من الأغنياء الأرستقراط ولا من الفقراء المسخرين لخدمة غيرهم لأن الله خلق المجتمع بهذه الدرجات.

٦٣. وهو ذات المثال لو ضربناه من منظور فكري على المجتمع سنجده ينقسم ثلاث فئات، الفئة الوسطى العظمي وهي التي تضم الأغلبية وتضم الفكر الوسطي المتسامح المعتدل دينيا، وهناك فئتين أخريين؛ الأولى تنحرف تجاه اليمين (إرهاب وتشدد ديني) والثانية تنحرف تجاه اليسار (إلحاد وتمرد الديني) وتبقى الأغلبية العظمي ممثلة للفئة الوسطى ذات الفكر المعتدل.. وبالنظر إلى أن إلى أن الشعب عبارة عن كيان يسير على طريق مستقيم وليس دوران في دائرة مغلقة، فمعنى ذلك إذا وجدنا انحرافات تجاه اليمين أنه يقابلها انحرافات تجاه اليسار وتحتفظ الأغلبية في المنتصف بتوازن المجتمع، وتظل هي رمانة الميزان، فلا هي تنحرف تجاه اليمين ولا هي تنحرف تجاه اليسار، فقط ما يحدث هو انحرافات طفيفة تجاه اليمين تعادلها انحرافات طفيفة تجاه اليسار لتبقى رمانة الميزان راجحة في المنتصف.. وإذا زاد معد الانحراف تجاه اليمين (الإرهاب والتشدد الديني) فهذا معناه خطر على رمانة الميزان إذا استمر طويلا هذا الانحراف بهذا الكم. وأما إذا زاد الانحراف تجاه اليسار (الإلحاد والتمرد الديني) فهذا معناه خطر على رمانة الميزان إذا استمر طويلا هذا الانحراف بهذا الكم. إذن معنى احتفاظ الرمانة باتزانها أن يكون حتما معدلات الانحراف تجاه اليمين مساوية لمعدلات الانحراف تجاه اليسار، أي أن معدل (الإرهاب والتشدد الديني) = (الإلحاد والتمرد الديني). وإذا نقص أحدهما عن الآخر فهذا يحتم حدوث اختلال في المنطقة الوسطى بلا شك.. أما أننا في مصر الآن نجد معدلات الإرهاب والتشدد الديني (في نظرنا) أعلى من معدلات التمرد الديني والإلحاد.. وأقصى حالات الاتزان تحدث عندما ينعدم الانحراف في كلا الاتجاهين معا، فينعدم التشدد الديني تماما ١٠٠٪ وينعدم التمرد الديني تماما ١٠٠٪.. وبطبيعة الحال المثالية والكمال لله وحده، ولا كمال لبشر، وبالتالي على من ينادون بمقاومة الفكر الإرهابي والتشدد الديني أن يتوقعوا مزيدا من الإلحاد والتمرد الديني في الاتجاه الآخر، يتزايد بذات معدلات تناقص الإرهاب والتشدد الديني، فكلامهما خطر على المجتمع من ذات الدرجة، لكن لا مفر من حكمة الله في خلقه.

٦٤. فيقول تعالى: وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) أي أن الله خلق المجتمع الواحد أمم متعددة، وكما سبق وأوضحنا أن كلمة أمة الواردة في القرآن لا تعني أمة بالمفهوم الشعبوي الوطني أي عرق وجنس بشري، وإنما الأمة

هي جماعة من الناس يميزهم المنهج الذي يتبعونه، فلو نظرنا للمجتمع العربي في حياة الرسول ص ، فالمؤمنون أمة والمشركون أمة مختلفة عنها، وفي كلام الله نتبين أنه إنما خلق الشعوب أمم مختلفة أي بمفهومنا تيارات ثقافية متنوعة، وبيده إن شاء أن يوحدهم جميعا ويطمس الاختلافات بينهم، وبيده أن يترك كل إنسان ليختار مصيره بنفسه، وهذه هي الحكمة التي ابتغاها الله عنده خلقه للكائن البشري بوجهٍ عام. وفي الواقع فإننا في مصر أغلبيتنا منحرفة تجاه اليسار تجاه التشدد الديني، لأنه ليس المتشددين دينيا هم من ينفذون عمليات إرهابية عمليا وإنما يضاف إليهم المؤيدين لها نظريا والمتعاطفين معها والحالمين بتوحيد الشعوب عنوة تحت راية الإسلام والحاملين لضغينة في قلوبهم من أصحاب الديانات الأخرى والفارغة قلوبهم من التسامح مع الملحدين والكافرين..إلخ. فالنبي لم يحمل ضغينة لأي كافر لمجرد أنه لم يدخل الإسلام، ولم يكن يحابي المسلمين على غيرهم حتى في نظراته في المجلس، كان تسامحه متساوي مع الجميع، لأن من يحاسب العباد على عقائدهم هو الله ولم يفوض أحدنا في بغض كافر أو ازدرائه نيابة عنه جل وعلا. وبالطبع هذه الفئة المنحرفة تجاه اليسار هي الغالبة في شعوب الشرق وليس مصر وحدها، والنسبة قد تصل ٦٠٪، فقد أجرى استطلاع في شعوب الشرق الأوسط عقب مقتل أسامة بن لادن في أفغانستان ٢٠١١ حول ما إذا كانوا متعاطفين معه أم ضده، وكانت النتيجة مفاجئة للجميع إذ وصلت أغلبية كبيرة جدا ليس في مصر وحدها، وشملت فئات عديدة من المتعلمين وخريجي الجامعات بسبب ما درسوه عن الفتوحات والجهاد والبطولات الدينية، وذلك كله يعود لعوامل نفسية طويلة المدى، ويمكن محاولة علاجها فقط بتعديل المناهج التعليمية ووضعها بإشراف خبراء في علم النفس والتنمية البشرية.

٦٥. والمشكلة ليست منحصرة في المواطن الذي قد يسرع بعضنا بوصفه بالمتخلف فكريا أو منغلق أو متشدد في آرائه الدينية بسبب جهله، فالدولة ذاتها تتبنى اتجاه التشدد، ليس في الأحكام الدينية ولكن في الأحكام القانونية، وكمثال، ما الفائدة من عقوبة الإعدام إذا كان الله قد شرعها فقط لوقف نزيف الدماء حال تمسك صاحب الدم بحقه في القصاص، إنما إذا تنازل صاحب الحق وقبل التعويض أو تسامح، فما مصلحة الدولة في قتل مواطن ؟ هل لحفظ الأمن العام ومنع تكرار الجريمة ؟ بالطبع هذا شطط لأن الإنسان الذي يخطئ ويعاقب بدفع تعويضات تعادل شقاء عمره أو بقضاء عقوبة المؤيد، فلا يمكن أن يعود لممارسة ذات الجريمة بعدما ضاع عمره.. ولهذا النظر الواقعي قامت ١٧٠ دولة في العالم بإلغاء عقوبة الإعدام وإحلالها بالسجن المؤبد، إنما الدولة تصر على اتجاه التشدد

بتنفيذ حكم الإعدام برغم أن ذلك يخالف الشريعة الإسلامية ويخالف مواثيق الأمم المتحدة والتي لا زالت تطالب الثلاثين دولة المتبقية الأكثر تأخرا في العالم بإلغاء عقوبة الإعدام، لكن الدولة تتعامل مع المواطن بغريزة سادية انتقامية ثأرية تريد التنكيل به بغير مسوغ إلا رؤيته منكلاً به ومقيد في ضيق الحدود، فلا تعيب على المواطن الجاهل باختيار الآراء الدينية المتشددة وتبنيها والتضييق على الناس لأن الدولة ذاتها اختارت اتجاه التضييق دون التخفيف، وإذا خالف الإرهابيون تعاليم الدين ومبادئ الأمم المتحدة وحقوق الإنسان، فليس للدولة أن تلومه إذا كانت هي ذاته تخالف ذات الدين وتخالف ذات المواثيق وتتشدد في معاملة المواطن بذات الإجراء "القتل".

٦٦. أما الكارثة فهي الوباء الذي أصاب العقلية المصرية بعدوى الغبار العربي، فالغبار العربي ما زال يلاحقنا في كل مكان، وهو الثقافة النظرية التي تمثل كل خلفياتنا الثقافية الملحقة باللغة العربية، لأن اللغة العربية بطبيعتها لغة شعب ذو عقلية نظرية وليست علمية، هذه اللغة بخلفيتها الثقافية هي نتاج العقل العربي وهي تتلاءم مع نسيجه الذهني، وهو نسيج عقلي من نوع خاص وصفه ابن خلدون بدقة، وفصص جيناته الوراثية وتحقق من عدم استعدادها نفسيا لبناء حضارة أو تقبل فكرة العمران البشري مهما تظاهرت بذلك لبعض الوقت. ومنذ أصاب المصريين عدوى الثقافة العربية النظرية واستمر العقل المصري يتبنى ثقافة العرب وخلفية اللغة التي أخذها منهم والصحراء والشعر والفخر والهجاء.. وما تبع ذلك من طوفان النوستالجيا العربية القديمة، هذه الفلسفة أصابت المصريين بلعنة الغبار العربي، لدرجة أن الشيخ الشعراوي من كثافة شعوره باليأس الدفين تفلسف نظريا وأفتى بأن عمليات نقل الدم حرام شرعا، وأن الغسيل الكلوي حرام، ثم إذا جرب هو بنفسه ودخل الواقع العملي التطبيقي عندما مرض، كفر بالغبار العربي وذهب بنفسه إلى لندن وأجرى عملية نقل دم بالكامل على يد أطباء إنجليز مسيحيين ويهود !

٦٧. هذا الغبار الثقافي جاء نتاج العقلية العربية بامتياز، حتى أننا نذكر رسالة خالد الوليد إلى كسرى ملك الفرس " رسالة الفتح " قال فيها خالد حرفيا " جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة ".. وفي الواقع لم يكن رجال خالد الوليد يحبون الموت أكثر من الحياة .. أي أن هذا كان مجرد

كلام نظري[١٣].. ونظرا لأن العقلية المصرية في الأصل من نسيج عملي تطبيقي وليس نظري كما العرب، فعندما أصابتهم لعنة الغبار العربي وتبنوا ثقافة العرب النظرية.. صدقوها وآمنوا بها وأسرعوا لتطبيقها علميا فأحبوا الموت عن الحياة فعليا بحجة الجهاد ! ولهذا عانت مصر كثيرا من الإرهاب خلال عقد التسعينات ومازال.. وكثير من المصريين يؤمن بفكر الجهاد نظريا ولا يؤمن به عمليا.. فطائفة السلفية في مصر جميعها تؤمن بأفكار داعش وما ورد في كتب المرويات إيمان نظري وليس عملي، وقليل منهم فقط الذي يتورط في التطبيق العملي فينضم إلى الجماعات الإرهابية.. والمشكلة حتى أن هذا الإيمان النظري ليس عن قناعة ولكن فقط تصديقا لمرويات العرب ! فكثير من المصريين يؤمن بهذا الفكر النظري العربي لكن عند التطبيق يبدأ الاصطدام كما حدث عندما رأينا أفعال داعش رؤيا العين، وكما حدث مع الشيخ الشعراوي، لدرجة أننا كل يوم نقرأ في كتب الفقه الشافعي والحنبلي والحنفي .. ونقرأ في صحيحي البخاري ومسلم روايات وأحاديث هي في حد ذاتها جرائم حرب مثل روايات الغزو والقتل والذبح والسبايا واغتصاب النساء والبنات والحروب الهجومية.. أو على الأقل ما نفذه داعش في العراق وسوريا.. هو بشحمه ولحمه موجود في كتب الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة ونحن نؤمن به نظريا لكن عند التطبيق العملي يبدأ الصدام ! فالتطبيق العملي هو الذي يكشف الحقائق، وبما أن العقلية المصرية من طبيعة عملية، والعقلية العربية من طبيعة نظرية، ففلسفة كلا النسيجين العقليين مختلفتان جذريا لكن بعدما أصابتنا لعنة الغبار العربي تضاربت الرؤية وتلبدت بالغيوم وتشوش العقل المصري بالغبار العربي.

٦٨. أما النظرية الأكثر خطورة للشيخ الشعراوي، فقد قال بأن لكل إنسان منا رزقه يأتيه أينما كان، كما الموت يأتينا حتى ولو كنا في بروج مشيدة، فالغرب يتعبون ويفكرون ويدبرون ويبتكرون ويخترعون ويجهدون أنفسهم ليل نهار، وفي النهاية تأتينا منتجاتهم لنستخدمها جاهزة! لأن رزقنا مكتوب لنا وسيأتينا حيث كُنا..

[١٣] ـ قال خالد في رسالته " جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة "..كان خالد يهدد الفرس بذلك، ويثبت لهم الجرأة الانتحارية حتى يرعبهم، لأن فلسفة خالد في الأساس استباقية بالاعتماد على الحرب النفسية، فالحرب النفسية كانت هي طليعة الجيش((وهذا ما يثبت مخالفة خالد كليا للدين لأن الدين تبشير لا تنفير، وطليعة الدين ليست الحرب النفسية بل العكس)).

٦٩. والعجيب أن الشيخ الشعراوي حينما مرض ذهب هو إليهم كي يجروا له عمليات جراحية، ولم يأتوا هم إليه في مكانه، وذهب هو لاستخدام أجهزتهم وابتكاراتهم واختراعاتهم في بيوتهم ودفع لهم بالدولار!

٧٠. هذه النظرية وإن كانت قادرة على ترسيخ مبدأ القناعة والرضا بالوضع القائم حول كل مواطن والاستسلام للظروف المحيطة به كليا لينعم بحياة آمنة هادئة راضية، لكنها كفيلة بهدم كل الأجيال وجعلها تعيش في بحر لا حدود له من التبعية والرجعية والتخلف والخضوع والذل والرضا والتسليم بالظلم؛ وهذه النظرة للحياة مشتقة اشتقاقا عكسيا من آثار الغبار الثقافي للاحتلال العربي لمصر، لأن العرب بطبيعتهم شعب استهلاكي لا يجهد نفسه في العمل والبناء والإنتاج والابتكار كما أبناء شعوب الحضارات؛ المصريين والشاميين والعراقيين والأوروبيين..إلخ. إذ أن المجتمعات الغربية استأثرت بكل عناصر الإنتاج والابتكار، وصارت مركزا رائجا لسوق الأعمال والاقتصاد، وصرنا نحن سوقا استهلاكية لهم نساهم في ازدهارهم بشراء منتجاتهم واستهلاكها، ثم نساعدهم بتوفير فرص عمل لهم من أجل صيانة المعدات والآلات التي استوردناها منهم، ثم اضطررنا لتعلم لغتهم كي نتمكن من التعامل مع هذه الآلات التكنولوجية، ثم اضطررنا في النهاية إلى تعلم لغتهم للبحث عن فرصة عمل نتجاوز بها خط الفقر، وبعد أن أصبحت معلوماتنا وثقافتنا التقنية باهتة في حدود وطننا ولغتنا، اضطررنا لاقتباس علومهم ومعارفهم فساعدنا في هيمنة الثقافة الغربية على العالم بأكمله، فهي أم العلوم والاقتصاد والحضارة، ولم تعد شهاداتنا بلغتنا الوطنية تجد نفعا لا من حيث القيمة العلمية ولا من حيث الاستفادة منها دون إجادة اللغة الإنجليزية، صارت الإنجليزية هي المعيار الفاصل بين العلم والجهل. وما زال أغلبنا يعيش في عالم النوستالجيا الدينية بطعم التاريخ.

٧١. والكارثة أنه حتى المفكرين المعاصرين في تأليف كتبهم ورسائلهم العلمية الدينية يضعون لها أغلفة تحمل صور أو لوحات أو إشارات تعبيرية عن الماضي والصحراء والإبل والخيل والليل والسيوف والرماح، وكأن الإسلام محض طيفٍ من الماضي وحكايات وبطولات الماضي مات ولم تعد له حياة في الحاضر أو أننا لم نعد قادرين على رسم تصوراتنا وخيالاتنا الروحية سوى بلون الماضي.. مع أن أحداث الماضي ما هي إلا تاريخ العرب وليس دينا للبشرية في كل عصر، لكن غبارهم الثقافي غطى عقولنا على مدار ألف عام.. لدرجة أن أحد رسامي الكاريكاتير أراد أن يعبر عن وسطية الأزهر واعتداله، فقام برسم لوحة لشيخ الأزهر الدكتور أحمد الطيب وهو يركب الجمل في الصحراء يتجول بين

النخيل حاملا كتب الدين على ظهر الجمل وفي يديه يهديها للشعوب ! وكأنك كي تكون مسلما فلا بد أن تكون أعرابيا صحراويا، إنما مسلم مصري أو مسلم أمريكي فهو محض مشروع أسلمة نظري وليس حقيقي ! هذا الغبار الثقافي لا يمكن التخلص منه إلا بثورة في الوعي المصري.

٧٢. وهكذا عاشت الأمة المصرية أجيال ورا أجيل وكأنها جزء من العرب وتابعة لهم، وبمرور الوقت ننسى تاريخنا وندافع عن تاريخهم ونضعه في مرتبة الأولوية لارتباطه بالدين، وهكذا يأتي المصلحون ويرحلون دون أن يصلحوا شيئاً ! فقط لأنهم لا يدعون للإصلاح بقدر ما يدعون البسطاء لاتباعهم وهم يتبعون سلفهم.. ومن هنا دخل العقل المصري كهف العرب.. ومن هنا أيضا دخل الإسلام كهف الظلم.. كهف التاريخ العربي المظلم.. حتى تشوهت ملامحه في الظلام.. وصار الجميع يتبع الأيقونات والمصلحين.. بينما المصلحين سائحين تائهين في الكهف يتحسسون المعالم على استحياء.. ومن هنا قررت ألا اتبع الأئمة والفقهاء، ساتبع المنهج مباشرة.. لأن الفقهاء ما هم إلا تلاميذ متفوقين في هذه الدنيا، فما يلزمنا باتباع إجاباتهم ونهجهم وترك المنهج الأصل طالما هم لن يدخلوا الامتحان بدلا عنا؟ بل سيدخلون ذات الامتحان وربما يرسبون فنرسب معهم دون أن ندري.. أما اتباع المنهج الأصل فهو خير حجة وخير طريق إلى النجاح.. لأن مشكلة كل الأمم والأقوام السابقين كانت أنهم يتحسسون معالم الطريق بالنظر في المرآة الخلفية فقط.. وهي فكرة (السلفية) أي عبادة الله وفق منهج السلف الصالح، فهم اتبعوا نهج سلفهم ولم يتبعوا منهج الله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولذلك قالوا لن نعبد إلا ما ألفينا عليه آباءنا.. وكانوا علي يقين بأن آباءهم وسلفهم صالحين ولن يخدعوهم، ولهذا تركوا الأنبياء وتركوا المنهج واتبعوا من رأوهم صالحين.. وفي النهاية سيتبرأ هؤلاء الصالحين الذين اتبعوا من الذين اتبعوا إلا الأنبياء والرسل لن يتبرؤوا ممن اتبعهم..

٧٣. وبوجهٍ عام، فالشعوب هي أنسجة اجتماعية متقاربة، وكل نسيج متميز بملامحه في التكوين الفسيولوجي وله لغة خطاب مستقلة ومختلفة عن غيره من الأنسجة، ولهذا خلق الله الشعوب بلغات مختلفة، فبرغم أن الله هو خالق الكون كله وهو خالق الإنسان لكنه خلق كل شعب بلغة مستقلة به وخلق نسيجه الذهني بمواصفات مستقلة عن غيره من الشعوب لينتج أفكارا وفلسفة مختلفة عن الشعوب الأخرى، وطالما كان النسيج الذهني مختلف فلهذا تختلف اللغات بين الشعوب، لكن أحيانا تحدث مؤثرات اجتماعية تؤدي إلى اندماج جزئي واختلاط لهذه الشعوب، ومن بين تبعات هذا الاختلاط أن يتحدث شعب بلغة شعب آخر سواء كان ذلك عن طريق الاحتلال أو الهجرة،

لكن أبهى الحالات الذهنية أن يتحدث كل شعب بلغته الأصلية المخلوقة خصيصا للسانه. هذه اللغة هي مكون فسيولوجي من مكوناته الذهنية، وإذا ما تعطلت بعض الخصائص الذهنية تتغير لغة اللسان ويتحدث بلغة لسان المحتل لأرضه فترة من عصور التاريخ قد تصل إلى ألف أو ألفي عام، فيتحول هذا الشعب ليتنازل عن لغته وفلسفته وسماته العقلية، ويتحدث بلغة المحتل ويتبنى فكره وثقافته ويفكر بعقليته بعد أن مورست عليه الهيمنة الثقافية والسياسية، في الوقت ذاته الذي خملت فيه أنسجته الأصلية وفقدت قدرتها الذاتية على التعبير والإبداع الذاتي، لكن بمرور الأزمان تعود هذه الأنسجة الذهنية الخاملة إلى النشاط مرة أخرى، فيبدأ الإنسان يشعر بالحنين إلى أصله وجذره ولغته التي خلقها الله على لسانه، وما هذا النداء الذاتي الروحي إلا استجابة للخلايا الذهنية التي خملت لفترة من الزمن ثم عادت لنشاطها مرة أخرى. وفي الواقع فإن خمول هذه الخاصية في المخ يعود إلى خمول النشاط الهرموني الذي بدوره يعود إلى خمول سلسلة الجينات الوراثية التي تحمل هذه الصفات.

٧٤. فالشعب المصري عاش ما يقارب أربعة آلاف عام في قمة ازدهاره الحضارية، وهي تمثل فترة النهار، ثم جاءت حقبة الليل المظلم والسكون والثبات التي استغلها العرب وغيرهم في القفز على ظهورنا واحتلال وطننا ونهب ثرواتنا بحجة أنهم إنما جاؤوا ليعلمونا دينهم، بينما هذه الحقبة جميعها هي حقبة سكون واستسلام للعقل المصري، ولذلك نلاحظ انطفاء جذوة العلم والفكر خلال حقبة الحكم العربي في مصر تماما، وهو ما يوضح أنها كانت فترة انبطاح وسكون للعقل المصري الجمعي جعله مطية للعربي القافز عليه، ولذلك لا نجد حتى إبداعات علمية أو فكرية فردية، لأن الفكر في الأساس هو نشاط فردي ولا يحتاج إلى تمويل حكومات، فابن خلدون مثلا لم تموله حكومة لتنفيذ مشروعاته الفكرية، بل إنه وضع أسس علم الاجتماع الذي سبق به عصره بسبعمائة عام كاملة، وكذلك لم يظهر فقهاء معتبرين في مصر خلال حقبة الحكم العربي برغم أن الفقه هو فكر نظري لا يحتاج إلى تمويل حكومات أو غيره، ومع ذلك انعدم وانبطح العقل المصري تماما لأنه كان في مرحلة الثبات والسكون،. بينما خلال حقبة أخرى سينشط العقل الجمعي في جميع المجالات.

٧٥. وبالتالي حتما ستنشط أنسجة الخلايا الذهنية خلال مرحلة أخرى قادمة لتعيد ازدهارها وإبداعها على النسق السابق خلال عهد الفراعنة، ونعتقد أن ذلك عندما يحدث سيعود الشعب المصري إلى لغته الفرعونية الأصلية التي خلقه الله عليها وخلقها على لسانه لأنه عندما يتحدث بها يكون في أبهى

صورة خلقها الله عليها، لا يكون متحدثا بلسان غيره أو مستعيرا للغة غيره من الشعوب، لأن حالة التهجين الذهني الثقافي هذه غير منتجة فكريا.. ولا يمكن لشعب أن ينتج بلغة غيره أو بثقافة غيره أو بعقل غير عقله، فالعقل المصري نسيجه الذهني علمي عملي تطبيقي ولا يمكن أن يبدع ويزدهر بعقلية عربية عاقر، ونتاجه ثقافة أدبية نظرية قائمة على الفهلوة، هذه الفهلوة التي أنتجت لنا أدبا ممزوجا بالنفاق أو نفاقا بطعم الأدب لم تعهده الحضارة المصرية الفرعونية على مدار تاريخها، وليس من سماتها الذهنية، إنما هو من الخصائص العقلية العربية، كما قال الشاعر حين وقع زلزال بمصر فى عهد كافور الأخشيدى كتب له الشاعر يقول: " ما زلزلت مصر من كيدٍ ألمَ بها ... لكنها رقصت من عدلكم طربا "

٧٦. هذا البيت الشعري هو بمثابة الحنظل الذي نتج عن تزاوج العقلية المصرية بالعقلية العربية، لأننا لم نجد على جدران معابدنا وأهراماتنا ما ينبئ أن أجدادنا وجذورنا الوراثية كان لديها هذه السمات العقلية والنفسية في التفكير والإبداع، بل على العكس تماما، كانوا في قمة المصداقية مع النفس، وفي يقظة بالغة للضمير، لدرجة أنهم ركزوا جهدهم على الحياة الآخرة والبعث بعد الممات رغم أنهم لم يبعث لهم نبي من الله يعرفهم بالحياة الآخرة والحساب والبعث لكنهم بالفطرة توصلوا، وخلدوا أخراهم أكثر من دنياهم، ولذلك ذهبت قصورهم وبيوتهم الدنيوية مع عوامل التعرية، بينما بقيت بيوت العبادة "المعابد" وقبورهم وبيوتهم الأخروية ليوم البعث الذي اعتقدوه "الأهرامات ومقابر وادي الملوك والملكات".. بينما كانت آفة المجتمع العربي "ظاهرة النفاق والتمرد الديني" وهي إنكار وجود الله والآخرة والبعث والحساب والعقاب ... في مقابل نزعة الإيمان الفطري لدى المصريين والتي نلمحها بوضوح في كتاب الموتى الذي دونوا منه بعض سطور على جدران المقابر الداخلية وأقبية الدفن: يا من تذهب سوف تعود.. يا من تنام سوف تنهض.. يا من تمضى سوف تبعث..

٧٧. بتلك الجمل المذكورة بكتاب الموتى عن بردية آنى المعروضة بالمتحف البريطانى قامت الديانة الفرعونية على فكرة البعث ورد الروح للجسد بعد الموت فى العالم السفلي... وعندما اندمجت العقليتين وتوحد النسيج الذهني العربي في النسيج الذهني المصري بعدما تقمص المصريون شخصية العرب، حدث شلل للعقلية المصرية، أو لنقل بتعبير آخر أن أشجار الفاكهة المصرية تم تطعيمها بأغصان من شجرة الشوك العربية، وبرغم أن أغصان الشوك تحمل ورودا جميلة إلا أن أشواكها لا تطاق، ولم تنتج أي ثمر سوى مزيدٍ من الأشواك... فهي لا تعد نوعا حيويا وغير منتج أي لا تطرح ثمارا

ولا حبوب لقاح لأنها هجين وليست نبتة وراثية أصلية وطبيعية، كما العقل المصري الذي تغذى على الثقافة العربية.. هكذا الشعوب، لا يمكن أن تنتج فكرا معتبرا إلا إذا كانت جيناتها الوراثية الأصلية فاعلة ونشيطة بكاملها ومستمدة فروعها من أصولها الثابتة الأصلية وليست المستهجنة.. فحركة تبدل الثقافة لابد حتما أن تتبعها حركة تبدلات في الطبع نفسيا وعقليا، فالشعب المصري ترك لغته الأصلية وتحدث لغة العرب، ترك الثقافة والتقاليد الفرعونية واعتنق ثقافة العرب الأدبية، ترك وطنه واحترم حكم العرب غصبا له، صار المثل والقدوة هو رجل الفروسية العربي ورباطة الجأش! ترك تراثه المعرفي وتحدث بتراث العرب، لدرجة أن أحد رجال الدين في محاولة منه لإثبات خطأ ما في رأي لأحد الفقهاء، حاول أن يقيم الدليل الدامغ المقنع فكريا ومنطقيا على صدق نظرته العلمية، فوصف رأي الفقيه الآخر بأنه مثل " ضرطة البعير في الفلاة "... هكذا... برغم أنه لم ير في حياته لا ضرطة بعير ولا فلاة، هو فقط اقتبس التصوير من البيئة العربية التي وصلته عن طريق قراءته في الشعر والأدب والتاريخ العربي، وهو يتباهى بفصاحته وبلاغته في التعبير عما يجول في خاطره من صور ذهنية مفعمة بمعاني الحضارة والتمدين... هكذا ترك الشعب المصري ثقافته نتاج البيئة المدنية واعتنق ثقافة عربية نظرية هي نتاج بيئة صحراوية خشنة وقاسية وقاحلة وفقيرة علميا، وهنا حدثت تبدلات الطبع، وحدثت تبدلات في الفكر وانقلاب وإقلاب نفسي نتيجة التهجين غير المنتج بين العقلية المصرية والثقافة العربية، ولهذا صمت العقل المصري عن التفكير مطلقا وساد صمت طويل وتام، حتى الإبداعات الفردية سكنت أقلامها وصمتت لغتها في المعابد والأديرة. بينما هذه التغيرات الفكرية والنفسية لم تحدث مع دخول الديانة المسيحية إلى مصر، ذلك لأن الديانة المسيحية لم يصحبها جيوش غازية، ولا حكم ولا سلطة ولا غزو ثقافي، انتشرت في هدوء شديد، وخلال فترة وجيزة، فالثقافة الدينية ليس من شأنها التأثير سلبا على عقول الشعب، ولكن التأثير جاء من الغزو الثقافي العربي للمجتمع المصري حتى ذابت خصوصيته الثقافية والمعرفية.

٧٨. وهل يمكن القول بأن الثقافة الإسلامية طمست العقلية المصرية؟ أم أن الثقافة العربية هي التي طمست الثقافة والعقلية المصرية؟ وهل جاء العرب فعلا بثقافة إسلامية أم عربية؟.. في الواقع لابد من النظر مسبقا إلى ظروف المجتمع المصري الذي كان مكرها على أمره ولا يمكنه استيراد ثقافة إسلامية دون العربية، فهو كان في ظرف احتلال استمر فعليا ٦٠٠ عام هي الحقبة الفعلية التي انتشر خلالها الإسلام في مصر، وليس مرحلة دخول جيش عمرو العاص، ولا يمكن القول صراحة بحرية المجتمع المصري خلال هذه الفترة في انتقاء الثقافة الإسلامية من نفايات الثقافة العربية بعقلية حرة

وإرادة حرة بعيدا من مؤثرات الوجود العربي، لأنه كان منعدم الإرادة ولم يتمتع بحرية الاختيار بوجه عام، بل كان السائد هو دين الحاكم، والجميع يحاول أن يستظل بظل الحاكم، ولم تكن إرادة المصريين حرة وصحيحة خالية من كافة " عيوب الإرادة " بلغة القانونيين، لأن حرية العقيدة قرينة بحرية الوطن، حتى من اعتنقوا الإسلام خلال هذه الحقبة، فالوضع العام كان ظرف احتلال قهري يكاد يكسر ظهور الجميع بالالتزامات الاقتصادية، ولا يمكن القول بأن الشعب المصري كان حرا حرية إرادية كاملة دون "عيوب إرادة جمعية" في تلقي الثقافة الإسلامية والعربية، ولهذا لم يتلق الثقافة الإسلامية نظيفة كزهرة اللوتس، وإنما ممزوجة بثقافة العرب وأعرافهم وتقاليدهم التي قدسوها، خاصة أنها لغة الحاكم وثقافة الحاكم، وخاصة أن المجتمع المصري كان خاضعا للوجود والسيادة العربية وتحت سطوته.

٧٩. فالعرب كسروا إرادة المصريين مرتين، الأولى حينما وعدهم عمرو ابن العاص بالأمن والأمان على المال والنفس وهو ما هيأ لهم أنهم سيعيشون في وضع أفضل من حكم الرومان، بينما الشواهد التاريخية أثبتت أن ما حدث كان عكس ذلك تماما، واستمروا في قمع إرادة المصريين بدليل عدد الثورات وحركات التمرد التي قام بها المصريون ضد الحكم العربي. وقمعوا إرادة المصريين في المرة الثانية حينما غلبوا ثقافتهم البدوية الأدبية على العقلية المصرية العلمية العملية التطبيقية... وبوجهٍ عام فإن المصريين خلال هذه الحقبة كانوا منبطحين ومحبطين على المدى البعيد، بمعني أنه لم تقم حركات استقلال فعلية ولا محاولات استقلال عن الحكم العربي وإنما كانت ثورات وحركات تمرد ضد الضغوط والالتزامات الاقتصادية المرهقة، أي مجرد صرخات استغاثة وتعبير عن الانزعاج وليست إرادة استقلال، وهذا ما يؤكد انكسار إرادة المصريين خلال هذه الحقبة، فلم تتوفر لديهم أي من دعائم الإرادة الحرة الخالية من العيوب بلغة القانونيين، فلم يشاركوا في حكم بلدهم حتى ولا في المناصب القيادية ولا في أي شيء قد يعبر عن وجود إرادة حرة لهذا الشعب، برغم أن حرية العقيدة قرينة بحرية الوطن والمصير.

٨٠. وأسوأ ما يمكن أن تفعله لتدمر إنسان هو أن تكسر إرادته.. أن تجبره على أن يفعل ما تريده أنت تحت مبررات واهية تمنحها لنفسك وتقنع بها عقلك أن هذا من وجهك نظرك هو الحق والصواب، وقد ينصاع لك الطرف الضعيف قليل الحيلة كراهة وليس عن قناعة، ولكن، لأنك تملك السلطة والمال والقوة أو ما يسمى بحق القوامة.. وبالتالي تجبر الجميع على أن يسيروا فى ملكوت إرادتك مجبرين،

مع أن الله سبحانه وتعالى ميزنا الله بالعقل وبالإرادة، فالعرب حتى خلال هذه الفترة لم يكونوا يسمعوا المصريين باعتبارهم أناسيَ مثلهم مثل العرب، وإنما كانوا يمارسون سياساتهم بالقوة الجبرية. ولم يكن العرب بأي حال يعاملون المصريين كما كان يعاملهم النبي ص ، والنبي كان ينشر الحب والسلام بين الناس، ينبذ الطائفية والعنصرية، ويتودد إلى الجميع دون تفرقة، بينما العرب في مصر مارسوا عنصريتهم وسيادتهم دون أي وجود فعلي للدين سوى بعض الرموز السياسية مثل بناء مسجد والأمر بإقامة الشعائر فيه.

٨١. فلم يتلق المصريون الإسلام عن العرب بالطريقة ذاتها التي تلقى بها العرب دينهم عن النبي في مكة أو المدينة، فهو كان في مكة يتقرب ويتودد للجميع حتى أن العبيد هم أول الفئة التي استجابت له وتضامنت معه لما منحهم من القيمة الإنسانية، بينما العرب كانوا على العكس يعاملون المصريين كما العبيد، وهم –العرب- الأسياد، ولا يمكن القول بأن العرب كانوا يعاملون المصريين كما كان النبي يعاملهم في المدينة، لأن الكاريزما العربية طغت بعد رحيل النبي وطغت أكثر مع اشتعال حركة التوسع الاستعماري وخضوع كثير من الشعوب للعرب، حتى أن المجتمع المصري لم يستطع الحفاظ على لغته الأصلية السهلة على لسانه واضطر للتحدث باللغة العربية، بعد أن أمر الحاكم بعقاب كل من تحدث اللغة المصرية، حتى السيدات في المنزل مع أبنائهن، مع كثير من الضغوط الاقتصادية على المسيحيين واليهود في مصر وهم ٩٨٪ من المصريين خلال أول ١٠٠ سنة احتلال عربي، ما دفع الكثير منهم للتحول إلى الإسلام هروبا من الضغوط، ولم يكن هناك احتكاك ودي بين العرب والمصريين وصادقة ومودة واندماج اجتماعي، بل كانت علاقة العرب بالمصريين تنحصر في موظفي جمع الخراج موسميا وتحصيل الجزية سنويا، بالإضافة إلى قمع الثورات وحركات التمرد.. وهذا ما جعل العقل المصري يتقبل الإسلام ملوثا بالثقافة العربية، لأن عقله وإرادته لم تكن حرة حرية كاملة كما تلك الحرية التي منحها الله لجميع البشر. فصار العرب هم قدوة الثقافة الإسلامية مع أن العربي "بوجه عام" لا يؤتمن على دين، وقد تأكد ذلك من تلاعب الأمويين والعباسيين بالتراث الديني لأغراض سياسية.

٨٢. وهذا ما يؤكد أن المجتمع المصري خضع للثقافة العربية "بما فيها الإسلام" ولم يستطع انتقاء الإسلام من ثقافة العرب فانتقل إليه الإسلام كجزء ملوث في ثقافة العرب، وكذلك انتقلت إليه ثقافة العرب كاملة بما فيها (اللغة – الأدب - التاريخ) بينما تمسك الفارسيين والأتراك بلغتهم وتاريخهم وقوميتهم

وآدابهم وثقافتهم، فقط أخذوا الدين من العرب، وجميع هذه الفروع الثقافية أصبحت ذات صبغة دينية في مصر حتى ما كان منها جاهليا، فصار الاتجاه الغالب هو تقديس كل ما يحيط بالدين حتى ولو لم يكن منه، سواء كان تاريخ العرب أو سياسة العرب أو لغة العرب أو أدب العرب باعتبار كافة هذه المعارف تخدم على الدين فحصلت على قدسيته وصار الدفاع عنها دفاع عن الدين، أما تاريخ العرب المليء بالمذابح فأصبح اسمه التاريخ الإسلامي الذي لا يجوز الخوض فيه خشية المواجهة بتهمة "سب الصحابة" مع أن الصحابة ليسو جزء من الدين وإنما جزء أصيل من نسيج المجتمع العربي، يتمتعون بذات الكاريزما العربية حتى بعد إسلامهم لم يستطيعوا التخلص منها، لدرجة جعلتهم يقتلون بعضهم بعضا في حروب وفتن أهلية طمعا في السلطة والخلافة... هذا بخلاف المذابح الجماعية التي وقعت في عصر الأمويين والعباسيين...

٨٣. فقد اعتادت وزارة التربية والتعليم على تقديم حقب التاريخ للفصول الدراسية تدريجيا، بحيث يتعرف الطلاب في الصف الأول الإعدادي على التاريخ الفرعوني، وفي الصف الثاني على التاريخ العربي وفي الصف الثالث على التاريخ المصري الحديث. ثم ينتقل الطلاب إلى المرحلة الثانوية يدرسون في الصف الأول الثانوي التاريخ الفرعوني القديم، وفي الصف الثاني التاريخ العربي وفتوحات الصحابة ودولة العباسيين والأمويين، وما فيها من فساد وظلم ومذابح تحت مسمى التاريخ الإسلامي، وفي الصف الثالث يدرس الطلاب التاريخ المصري الحديث. باعتبار التاريخ العربي هذا هو الجانب الذي يمثل الإسلام وسط الثقافة والتاريخ المصري الطويل، وباعتبار أن طريقة حكم العرب لدولتهم وشعبهم "نظرية الخليفة" هي نظام الحكم الإسلامي، وباعتبار أن المعارك التوسعية الاستعمارية وجرائم الحرب التي ارتكبها العرب في سبيل توسيع دولتهم هي فتوحات إسلامية وجهاد في سبيل الله، وباعتبار أن الشعوب التي تصدت للعرب ورفضت احتلال بلادهم هي شعوب كافرة تستحق القتل، وأنه لا يجوز لشبابها أن يهبوا للدفاع عن أوطانهم وأبنائهم ونسائهم وبناتهم وإلا كانوا كافرين مستحقين للقتل والسبي والاسترقاق والاستعباد!...

٨٤. غير أن المادة التاريخية التي درسناها في مراحل التعليم الإعدادية والثانوية جاءت معروضة بلسان العرب وليست بلسان المصريين، ولا حتى المصريين المسلمين وإنما بلسان العرب الداخلين، وكأن الراوي كان أحد جنود الجيش العربي، فجميع الحكايات تأتي عن المصريين بصيغة الغائب، وبضمير الغائب وليس المتكلم، وبصيغة المفعول به، وبصيغة الضعيف الذي لا يملك أمره ولا يعرف مصلحته

والذي كان ينبغي عليه أن يسلم نفسه لجيش العرب كي يصبح مسلما مثلهم ويكون من أهل الجنة... لدرجة أننا عرفنا كل أسماء وألقاب وكُنى الأبطال الفاتحين العرب بداية من عمرو العاص والهارب من حكم الإعدام عبد الله أبي السرح والأشتر النخعي وابن الكلبي وابن المهلبي وحنظلة وأخو حنظلة والأوزاعي والطائي..إلخ. ولم نعرف اسم واحد من أجدادنا المصريين، ولم نقرأ في كتب التاريخ اسم شاب مصري أو مواطن مصري ولم نعرف ماذا كانوا يسمون أنفسهم بلغتهم الفرعونية أو ما هي الألقاب التي كانوا يطلقونها على أنفسهم وعائلاتهم... فقط عرفنا أسماء وألقاب الخواجات العرب، قرأنا عن أجدادنا بضمير الغائب أنهم استقبلوا الفتح العربي بالترحاب، كما قال الأمريكان في الغزو أن العراقيين استقبلوهم بالترحاب للتخلص من صدام حسين... عرفنا ذلك من العرب لكن لم نسمع منهم أجدادنا أصحاب البلد.. بل إننا لم نعرف من أسماء أجدادنا المصريين سوى اسم المقوقس حاكم مصر الذي لم يكن مصريا.. فأين شعب مصر وما هو موقفهم بلسانهم ؟ .. للأسف ما زلنا نقرأ تاريخ بلدنا من كتب تاريخ العرب ونتنكر لبلادنا وأهلنا !! وتجاهلناهم باعتبارهم كانوا كفرة، بل إن ذلك معناه أننا ما زلنا نتنكر لذاتنا ووطننا ونخون أنفسنا في خضوعية مازوخية للعرب من آثار متلازمة ستوكهولم العربية.

٨٥. في الواقع لم يكن استقبال المصريين لعرب كما استقبال المدينة "يثرب" لرسول الله عليه السلام وقت الهجرة بالورود والأغاني من ثنيات الوداع، حيث عرفنا وجهة نظر الطرفين " المهاجرين والأنصار" وعرفنا أسماء وألقاب وكُنى العائلات والقبائل من الطرفين، وعرفنا أبو موسى الأشعري وأبو قتادة الأنصاري وسعد ابن عبادة الأنصاري.. كما عرفنا الزبير ابن العوام المهاجري.. إلخ. واطلعنا على حالة التعايش السلمي والتضامن والتكافل الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار في المدينة، حتى أن الأنصار كانوا يعزمون المهاجرين على الغداء والعشاء ويقتسمون أشجار النخيل بينهم وبين المهاجرين ويضيفون المهاجرين في بيوتهم ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة..إلخ. كانت هناك ألفة وتضامن وتكافل بين الفئتين.. لكننا نتساءل عند فتح مصر هل تعايش المصريون مع العرب بذات الطريقة وعزموهم على الغداء والعشاء وضيفوهم في بيوتهم أم فرض العرب لأنفسهم حق الضيافة عنوة !! هل اقتسم المصريون مع العرب حقول القمح وأشجار الفواكه أم احتلها العرب عنوة بما فرضوه من حق الارتباع "رعي الغنم والحمير مجانا في مزارع المصريين" عنوة.. هل ذكر لنا التاريخ رد فعل أجدادنا

المصريين بعد العِشرة مع العرب؟ لم نعرف شيء من ذلك سوى قاله لنا العرب ! فالمشهد الذي يتبناه الأزهر وهو ما التقطته العدسة العربية برغم ما بها من حولٍ وزيغ وكفرٍ ونفاق !

٨٦. ففي مصر وهي بلدنا، لم نعرف من أسماء وألقاب أجدادنا وأسماء المدن والقرى إلا ما أخبرنا به العرب.. حتى أن أسماء القرى المصرية كانت باللغة الفرعونية فلم يستطع العرب نطقها على الوجه الصحيح، واستعاضوا عنها بمسميات أعرابية مكسرة ولم ينطقوها النطق الفرعوني الصحيح؛ مثال: المقوقس حاكم مصر، برغم أنه لم يكن مصريا ولم يكن اسمه المقوقس، لكن العرب نطقوه هكذا حسب لهجتهم ولسانهم وتجاهلوا باقي الأسماء المصرية وتعاملوا معها بصيغ مُجهلة، مثل الإشارة إلى منطقة "الحوف الشرقي" بلغتهم العربية والمقصود بها محافظة الشرقية حاليا، فماذا كان يسميها أجدادنا المصريين؟ لا نعرف.. فقط نعرف ما قاله العرب عن بلدنا ! .. حتى الصحابة الأقباط الخمسة المصريين الذين هاجروا من مصر وصاحبوا النبي عليه السلام في المدينة وشاركوه حياته لم تذكرهم كتب التاريخ سوى بصفاتهم صحابة أقباط وتجاهلت أسماءهم، وهي ذات فلسفة التجهيل التي اتبعها العرب في فتوح شمال إفريقيا، عندما انتصرت عليهم المكلة الأمازيغية ورحمتهم من دخول أرضها خمس سنوات كاملة، وبرغم ذلك لم يذكروا اسمها أبدا في كتب تاريخهم، قالوا أنها انتصرت عليهم بالسحر والشعوذة، وأطلقوا عليها لقب " الكاهنة" لتجهيل اسمها وعدم الاعتراف بها كإنسان شريف له الحق في الدفاع عن وطنه بشرف.. ولولا ابن خلدون ذكر اسمها في كتبه ما عرفه أحد !.. والغريب أننا في القرن الحادي والعشرين، عندما يقع خلاف بين الشباب السعودي والشباب المغربي والجزائري حول ماتش كُرة، نجد السعوديون يسرعون بإخراج الخريطة التي رسمها أجدادهم الصحابة خلال حقبة الفتوحات الإسلامية، ويصدرونها في وجه الشباب المغاربة والجزائريين يعايرونهم بها وأن أجدادهم الصحابة نجحوا في السيطرة على بلادهم وكسروا إرادتهم وكانوا يسمونهم "البربر " ! ولهذا يرد المصريين بما يكشف عورة الحضارة العربية على مدار تاريخها، بما يعني أن العرب البائدة الذي أبادهم الله على شركهم وكفرهم وفساد أخلاقهم، في ذات الوقت كان المصريون فراعنة وتحلوا بالعلم والأخلاق الفاضلة، ولم يُبادوا مثل العرب.



٨٧. هكذا مباريات الكرة تكشف النبض الحقيقي في وجدان الشعوب، وتحدد مفهوم القومية والوطنية بعمقٍ شديد.. بعيدا عن النفاق السياسي من كلا الطرفين.. فهم السعوديون يرفضون الخريطة السياسية الحالية للوطن العربي ويضعون عليها علامة إكس، ويصرون على أن الوطن العربي هو شبه جزيرة العرب والقبائل فقط، ويطلقون على غيرهم من الشعوب المسلمة مسميات ساخرة ابتكرها أسلافهم الصحابة مثل بربر وأقباط وكوش، وفينيق وكنعان وأكراد، وغير ذلك، فهم يرفضون الاعتراف لنا بالقومية العربية، وفي ذات الوقت ينكرون علينا انتسابنا لأصولنا الفرعونية، حتى لا تفضحهم حضارتنا وتكشف عوراتهم، ويصرون على بقائنا "موالى" لهم.. والغريب أننا نصر في الوقت ذاته على انتساب وطننا لهم ! وهذا ما يثبت أن الحالة النفسية والعقل الجمعي المصري في حالة غير طبيعية منذ ألفي عام، لأنه فقد انتماءه لنفسه وثقته بذاته منذ توالت عليه ضربات الاحتلال المتتابعة، فلم يعد يدرك من معه ومن ضده ومن هو... لكننا نعود لنتذكر قول جدنا الأكبر رمسيس الثاني في وصيته التي تركها لابنه قبل تولي العرش، قال له: " يا بنيّ .. مصر أرضٌ لا تموت .. وشعبٌ لا يندثر .. ونورٌ قد يخفت .. لكنه لا يُظلم أبدا .. فحافظ عليها ".



٨٨. ونتيجة لهذا التناقض في الرؤية الوطنية، نجد أن المصريين يحتفظون بسجلات مصر التاريخية في مخازن الكنائس خلال أول ٤٠٠ سنة لدخول العرب مصر، وجميعها مكتوبة باللغة القبطية ولها ترجمات بالعربية، من عام ٦٤٠م إلى عام ١٠٠٠م تقريبا، حيث كان أغلبية المصريين مسيحيين ويتحدثون اللغة الفرعونية، وسجلات تاريخ الشعب المصري التي كتبوها بخط يدهم عن وقائع دخول العرب مصر، وكيف كانت معاناتهم منها وآلامهم ومتاعبهم وعلاقتهم بالحكام العرب.. وهناك تاريخ آخر لمصر كتبه العرب والمسلمين المصريين الأوائل الذين تضامنوا مع العرب بعد دخولهم مصر.. إذن مصر خلال هذه الحقبة لها مصدران للتاريخ الوطني، مصدر باللغة الفرعونية ومصدر باللغة العربية، ومصادر اللغة العربية تمثل العرب وأقلية من المصريين الموالي، أما مصادر اللغة الفرعونية فهي مثل أغلبية المصريين على مدار خمسة قرون تقريبا، لكن المناهج التعليمية في مصر تتجاهل المصادر التاريخية الفرعونية وتعتمد المصادر التاريخية العربية فقط لأن الوطن أصبح عربي يمثله الأزهر بغض النظر عن موضوعية الحقائق. وهذا ما يعني أن الوطن لا زل خاضعا للاحتلال العربي المعرفي، أي أننا مازلنا نتبنى وجهة نظر العرب تجاه وطننا. وهذا لأن الحضارة العربية بمجرد أن اقتربت من الحضارة المصرية أصابتها بالعطب، وبمجرد أن اقتربت العقلية العربية من العقلية المصرية أصابتها بالشلل لأن العقلية العربية برية وأدبية، وحينما حاول المصريون أن يندمجوا ويعيشوا ويتعايشوا مع العرب يتحدثون لغتهم ويفكرون بفكرهم ويلبسون ثوبهم انهدمت الهوية المصرية، ولأن هذه العقلية

المصرية المهجنة ليست من أصل عربي ثابت ومتين، فلن تتمكن من الإبداع الحقيقي بالعربية، كما نبتة اللوتس التي تم تطعيمها ببراعم خشخاش.

٨٩. وفي الواقع فنحن غير مقتنعون أبدا بفكرة استنساخ الحضارة الغربية في مصر، ولا بما نادى به طه حسين وجيل التجديد من عملية تغريب لمصر واستنساخ الحضارة الأوروبية بحلوها فقط أو بحلوها ومرها؛ لأنها لا تلائم نسيج المجتمع المصري وليست من ثوبنا، وكذلك وبذات المنطق غير مقتنعون بفكرة استنساخ العقلية العربية في مصر " شبه جزيرة العرب" التي تبناها عباس العقاد لأنها عقلية أدبية فكرا، وحشية سلوكا ولا تلائم نسج العقلية المصرية العلمية المدنية وليست من ثوبنا، ولأن الصراع الشخصي والثقافي الذي كان بين طه حسين والعقاد لهو نموذج ومثال على تفتت الهوية الثقافية الوطنية (بين الغرب والشرق) مع غياب الذات لضعفها عن أن تقدم .إنتاجا معرفيا ذاتيا يلفت هو الأنظار بدلا من استيراد الثقافة الأجنبية العربية أو الأوروبية. برغم أن طه حسين أدرك ذلك في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" حاول أن يثبت أن مستقبل الثقافة في مصر مرتبط ارتباطا قويا بماضيها البعيد، ورأى أنه من غير الممكن فصل الثقافة المصرية القديمة عن مصر الحديثة، ولا فصل تاريخ مصر القبطية عن عصرنا الحديث، وأنه لابد حسب كلامه من استصحاب كل فترات تاريخنا والاستفادة منها في بناء مستقبلنا. لكن طه حسين لم يدرك سبب إلزامية هذا الاقتران بين الحاضر والماضي المصري، وقرر ضرورة هضم الثقافة الغربية كي ننهض، بينما أننا لم ولن نستطع هضم هذه الثقافة الغربية العلمية إلا إذا انتعش ونهض نسيجنا الذهني العلمي، فلا بد أن ندرك الخصوصية العلمية العملية التطبيقية للنسيج الذهني للمجتمع المصري التي تجعله عاجزا عن بناء أي حضارة إلا بنسخته الأصلية، والتي يعمل فيها نسيجه الذهني بكامل طاقاته وقدراته.

٩٠. بينما عباس العقاد عاش في غيبوبة وتغطى بغبار الاحتلال العربي ولم يلتفت إلى مدى خطورة هذا الغبار لأنه كان سباحا بارعا فيه... حتى طه حسين تحدث عن مصر القديمة ومصر القبطية من وجه الاستفادة، ولم يدرك أنهما نسيج ذهني واحد ممتد أجيال مستنسخة عبر الزمن، وأن حقبة مصر القبطية ومصر العربية كلاهما حقبة احتلال معرفي روماني عربي استمر امتدادا لحقبة الاضمحلال المصري الطويلة لثلاثة آلاف عام عاش الشعب المصري في وادٍ من التيه منخفض عما حوله في الطبيعة... وبطبيعة الحال لن يدرك كونه يسير في منخفض إلا بعد صعود إحدى القمم القريبة

العالية ليدرك أنه كان في منخفض طويل جدا ... وكلما صعد قمة أعلى أدرك حجم المنفض وشكله المرعب الموحش...

٩١. ولذلك علينا استنبات جذورنا من أرضنا، استنبات جذور للحضارة المصرية من تربتها الخالصة فهي الأكثر ملاءمة لنسيجنا الذهني الذي نبت من ذات التربة، ولا إشكالية تماما في استيراد احتياجاتنا الثقافية من الخارج، سواء كان الثقافة التكنولوجية من أوروبا أو استيراد أصول الثقافة الدينية من شبه جزيرة العرب، فالأصل أن البناء الفكري نابع من الذات.. يحمل ملامح الهوية الوطنية، وما هو مستورد يظل في حدود ما هو قادم بالطلب وحسب الحاجة، وليس بتقمص العقلية الغربية من أجل التكنولوجيا والحضارة أو تقمص العقلية العربية من أجل الدين... إنما نحن تجاهلنا قوميتنا المصرية الفرعونية وانقسمنا فريقين متناحرين؛ فريق يؤيد التغريب بحلوه ومره وفريق يؤيد التعريب بمره وجهله، ولا أحد يتحدث باسم الذات والوطن.. ضاعت هويتنا وتفتتت وتمزقت بين التعريب والتغريب، برغم أننا لسنا عربا ولسنا غربا.. نحن مصريون فراعنة... فلماذا نتمنى أن يكون خليفة العرب عثمان عفان حاكما لمصر؛ هو كان حاكما للخواجات العرب، ورمزا لدولتهم ومثل السياسة العربية ونظام الحكم العربي، وهو رمز تاريخي قومي عربي يجب أن تتبناه مناهج التاريخ السعودي وليس مصر بأي حال، مهما كانت مزاياه وعبقريته.

٩٢. فإذا كنا لا نقبل اليوم أن تقوم السعودية باحتلال مصر ليجلس محمد بن سلمان على حكم مصر، فكيف قبلناه من أجداد السعوديين؛ لماذا نقول بلسان العرب (ذهب عمرو لفتح مصر) ولا نقول بلسان المصريين (جاء عمرو إلى مصر)؛ فالعبارة الأولى تعني أن المتحدث يقف في السعودية، والعبارة الثاني تعني أن المتحدث يقف في القاهرة، وبرغم أن الأسلوب الأول يصنع شعورا نفسيا بالاغتراب مع الوطن، فلماذا نتنكر لوطننا؛ ولماذا لم تأت الحكايات التاريخية بلسان المصريين أنفسهم أصحاب الوطن وتعبر عن رؤيتهم الفعلية بلسانهم وقت دخول العرب حتى وإن كانوا مسيحيين، فهل نشارك العرب في الإجرام ضد وطننا؛ وهل نفتخر بأجدادنا الفراعنة وعظمتهم وحضارتهم قديما برغم أنهم كانوا يعبدون آتون، ثم نتجاهل صرخاتهم ونتنازل عن كرامتهم عندما يصبحوا مسيحيين؟..

٩٣. جميع الروايات تبدأ من منظور العرب وبلسانهم وهم يجاهدون المصريين ليحكموا وطنهم، وهذه الطريقة في السرد التاريخي جعلتنا نحن الأطفال المصريين نشعر بانفصام عقلي ثقافي وكأن هؤلاء

الذين كانوا يسكنون مصر وقت دخول العرب ليسو أهلنا وليسو أجدادنا، حتى وإن كانوا أجدادنا فعليا ووراثيا، فنحن نشعر وكأن صلتنا بهم غير شرعية ! وأن الصلة الحقيقية هي صلتنا بالعرب، وأن أهلنا المصريين إن لم يسلموا وطنهم للعرب سيكونون في الجحيم!، وذلك نتيجة أن الرواية التاريخية عن حقبة الدخول العربي لمصر يدرسها الأطفال المصريين بلسان العرب وليس بلسان أهل مصر.. بعدسة التاريخ العربي وليس بعدسة الوطن المصري، ومن مصادر التاريخ العربي وليس التاريخ المصري، بلغة العرب وليس بلغة المصريين لأن مصر كانت تتحدث اللغة الفرعونية وقت الفتح العربي فلماذا لا ندرس مرحلة الفتح بلغة المصريين؟ فالمراجع التاريخية التي سجلت مرحلة دخول عمرو ابن العاص مصر مكتوبة باللغة الفرعونية وليست باللغة العربية.. لماذا ندرسه بصوت العرب وليس بصرخات المصريين، بعين العرب وفكرهم وخط سيرهم وتبريرهم وليس بمنظور أجدادنا أصحاب الوطن، بوجدان العرب وليس بوجدان الوطن المصري..

٩٤. لأننا كي نتصور مشهد الفتح لا بد أن نخرج من الوطن ونقف في الصحراء خلف الجيش العربي ونفكر معه كما يفكر في اقتحام حدود الوطن المصري والبحث عن الطريقة الأنسب في اقتحام مصر، فالعدسة تسير خلف الجيش وتتبع خطواته البطولية، ولا تقف في القاهرة بمواجهة الخطوط الدفاعية أو نظرات الترقب لهذا الهجوم الزاحف لتسجل نبض المدينة والقرية المصرية، تسجل مشاعر المصريين وانطباعاتهم حينما شاهدوا عمرو العاص لأول مرة أو كيف عرفوه وكيف وصفوه... أي لماذا ندرس حركة الهجوم العربي وليس حركة الدفاع المصري، لماذا ندرس قرارات عمرو العاص ولا ندرس طلبات أبناء الوطن وردود فعلهم على تصرفات عمرو العاص، ((بالطبع لأننا نحب عمرو أكثر من وطننا وأكثر من أهل الوطن، لأن تاريخ عمرو دخل قلوبنا من بوابة الدين وليس التاريخ، مع أن عمرو يفهم في السياسة أكثر من فهمه في الدين، ويفهم في العسكرية أكثر من فهمه في الدين)) لماذا منحنا الشرعية للهجوم على الوطن ونزعنا شرعية الدفاع عنه؟، فحركة الهجوم العربي تاريخها مكتوب في مراجع عربية، وحركة الدفاع المصري تاريخها مكتوب باللغة الفرعونية، فلماذا نعتمد المصادر العربية ونرفض المصادر الوطنية المصرية، لماذا نتضامن مع المهاجم ونصفه بأنه البطل المنتصر ضد الضحية الذي هو أهل مصر؟ إلا إذا كانت تسكننا عقلية غير وطنية لا تنتمي لذاتها (هذا المشهد المتصارع هو منشأ الفتنة الطائفية في مصر وهو منشأ الشرخ الوطني في عقول الإرهابيين لأنهم يحاربون وطنهم باسم الدين دون أن يشعروا أن للوطن حرمة أو أنه وطن، هم مؤمنون بفلسفة عمرو في اقتحام وسحق الوطن من أجل الدين، مع أنه لا تصارع بين العقيدة الوطنية والدينية، إنما هذا التصارع

والتناقض خلقه العرب عندما دخلوا وطننا وحكموه بالقوة وسمحنا لهم وقدسنا تاريخهم واعتبرناه طريق وصول الدين إلينا. وطالما اقتنع الشباب بأن طريق الوصول بالدين كان هو الجيش والقوة القتالية، فلا بد أن تكبر هذه الأفكار وتثمر إرهابا يحاول نشر الدين بذات الطريقة التي وصله بها.

٩٥. ومن هذه اللحظة تقمص المصريين شخصية العرب وعقلية العرب ولا يمكن أن يتقدموا في العلم والحضارة إلا بمقدار ما تقدم العرب لأننا نفكر بعقليتهم ونمنحهم الشرعية في دخول أرضنا وننزع عن أنفسنا شرعية الدفاع) أو بصيغة أخرى، فنحن عرفنا من العرب أن النبي محمد عليه السلام بعث برسالة إلى أهلنا في مصر فردوا إليه بالهدايا مع السيدة مارية القبطية، وجاءت مرويات العرب على أن السيدة مارية كانت بالنسبة له في مقام السبايا والعبيد (ملك يمين يتسرى بها !) بينما المصادر التاريخية المصرية تقول غير ذلك، بل تقول أنها خرجت من مصر كعروس برفقة بعضٍ من أهلها وأقاربها أو جيرانها الأقباط الذي قابلوا النبي وتعرفوا عليه واعتنقوا الإسلام.. أي لم تكن أسيرة ولم تكن عبدة وتم إرغامها على أن توطئ جسدها للنبي (دون الحديث عن رغبتها وإرادتها أو موافقتها الشخصية) كما توحي مرويات العرب..

٩٦. فكتب التراث وعلماء السير "أسقطوا" اسمها الأصلي "مارى بنت شمعون" من زوجات النبى وأمهات المسلمين.. واعتبروها مجرد "جارية" دون سند من الكتاب والسنة، فيقول الأستاذ أحمد عبد الكريم طناوي[١٤]: ما إن تفتح كتاب «رسالة مصر» للمفكر حسين مؤنس حتى تفاجأ بتساؤله الحسير عن سر إصرار الفقهاء على اعتبار أم المؤمنين المصرية السيدة مارية القبطية «جارية» للرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وليست زوجة له، وهو الأمر الذي ينقل الحسرة لنا نحن المصريين... ولدت السيدة «مارى» فى بلدة «حفن» أو الشيخ عبادة حاليا بمركز ملوى محافظة المنيا، وسلبها المقوقس فترة اضطهاد الرومان هى وأختها سيرين وخادمهما «مابوا» من أهلها الذين كانوا من أعيان المصريين، وأشار المقوقس إلى مكانتهما الاجتماعية فى رسالته للرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله «لهما مكان فى القبط عظيم».

١٤- مقال منشور باليوم السابع على الرابط التالي: https://www.youm7.com/story/2016/1/29/

٩٧. وفور وصول السيدة الشريفة أنزلها الرسول فى ضيافة حارثة بن النعمان الأنصاري، فكانت بجوار السيدة عائشة، وكان النبى «يقضى معظم الليل والنهار عندها»، فحزنت لذلك السيدة عائشة، ثم امتد ذلك لأمهات المؤمنين، وتقول السيدة عائشة طبقا للطبرى: «فزعنا لها فجزعت»، أى أنهم غاروا منها فانزعجت فحولها النبى إلى العالية بضواحى المدينة، وكان يذهب إليها هناك، وبعد سنة تقريبًا أنجبت مارية للنبى ابنه إبراهيم . وتحدثنا المصادر كالطبرى وابن كثير وابن القيم عن القسط الوافر من المحبة والتكريم الذى أحاط الرسول به «مارية»، فكانت محط هواه حتى قالت السيدة عائشة «ما غرت على امرأة ما غرت على مارية ذلك أنها كانت جميلة من النساء، دعجة فأعجب بها رسول الله، عليه السلام، وكان عامة النهار والليل عندها». وتقول أيضا «عائشة» حسبما نقل الطبرى «وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، معجبًا بأم إبراهيم، وكانت بيضاء جميلة فأنزلها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى العالية التى يقال لها اليوم مشربة أم إبراهيم، وكان رسول الله يختلف إليها هناك»، وقد لاحظ أهل المدينة وأصحاب رسول الله حبه للمصرية مارية فأحب الأنصار أن يفرغوها للرسول، دون أن تنشغل بابنها «لما يعلمون من هواه فيها»، وقد أسلمت حتى وصفت فى طبقات ابن سعد بأنها «حسنة الدين.«

٩٨. فهناك الكثير من الشواهد التى تهدم كون أم المؤمنين القبطية كانت «أمة»، على رأسها، أنه من المفروض لو كانت جارية، أن تكون فى خدمة أحد بيوتات النبى، أو أن تخدم النبى شخصيًا، لكن النبى محمد لم يفعل لا هذا ولا ذاك، بل أنزلها أول الأمر فى ضيافة أحد أصحابه، ثم بعد ذلك ابتنى لها «دويرة» مستقلة فى «العلياء» التى يصفها ابن سعد فى طبقاته بأنها «مكان ذو نبت وماء»، فهى «علياء» بالفعل بالنسبة لجو الصحراء المحيط، وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يجرى عليها نفقتها كاملة أسوة بباقى نسائه، وسار على عهده باقى خلفائه، فعاشت مستقلة بنفسها كصاحباتها من زوجاته صلى الله عليه وسلم . بل تميزت السيدة مارية، حسب رواية الفقهاء، بأنها كانت مترفة لا تخدم نفسها، بل ترك الرسول لها خادمها «مابورا»، فكانت لا تملأ الماء ولا تجلب الحطب، وقد اتهم فيها هذا الخادم فأصيبت بحادث إفك شبيه بحادث السيدة عائشة بعد حملها بابن رسول الله «إبراهيم»، إلا أن الله برأها بعدما تأكد أن خادمها عقيم، والشاهد هنا، كيف كانت «أمة» ولها «عبد» فى عرف من ينحاز لهذه المسميات؟..

٩٩. في الواقع أن النبي عليه السلام رفعها وكانت من علية القوم لكن العرب كعادتهم يتعالون على الخلق ويعاملونهم كأنهم عبيد، ومن هنا استبعدوا السيدة مارية من مصاف أمهات المؤمنين برغم كونها أم أفضل وأحب أبناء النبي محمد عليه السلام، وكانت أفضل وأحب زوجاته إليه لدرجة جعلتهم جميعا يغارون منها. وهكذا كان النبي يضعها في مكانة علية، كما وصاه المقوقس حاكم مصر بأنها واختها لهما شأنا عظيما في مصر (أي لم يكونوا عبيد) لكن العرب بعد وفاة النبي ومن خلال سلال المرويات أسقطوها من منزلتها العلية وجعلوها مجرد عبدة، لمجرد أنها (ليست عربية الأصل). أما نحن المصريون فبعدما أصابنا التصحر العربي وحدث مسخ للعقلية المصرية بالعقلية العربية، فصرنا نتحدث عن أنفسنا بلسان العرب، وإذا قالوا عن فتاتنا المصرية أنها عبدة وجارية صدقناهم حتى وإن كانت في الحقيقة حرة وذات كرامة وشرف ولها خادم خاص وكانت من عِلية القوم في مصر وعند النبي نفسه ! لكن لا عجب.. فهكذا يفعل الفصام العقلي الشعبي العام بالمجتمع طالما جعل العرب من أنفسهم صحابة.

١٠٠.فنحن لم ندرس من تاريخنا الحقبة التي سمع فيها أجدادنا المصريين عن بعثة نبي في مكة، أو كيف وصلهم الخبر، وماذا كان انطباعهم عنه شخصيا وكيف استقبلوا رسالته، وهل وصلتهم باللغة العربية وقاموا هم بترجمتها أم وصلت بلغتهم الفرعونية؟، ومن من أجدادنا الفراعنة اتخذ قرار الرد على هذه الرسالة؟، لماذا ننظر إلى التاريخ المصري من خارج مصر؟، هل لأننا لسنا مصريين؟ أم لأننا جيل وراء جيل تقمصنا عقلية العرب فتحدثنا عن وطننا وأهلنا بضمير الغائب؟ وإذا كان أجدادنا قد تعاونوا مع الفاتحين العرب للتخلص من الرمان، فنحن لم ندرس خطة التعاون هذه ولا أدواتها ولا مبرراتها بلسان أجدادنا المصريين، نحن فقط درسنا خطة الهجوم مع الإشارة إلى المصريين بضمير الغائب !.

١٠١.وهذا في الواقع يقتل العقيدة الوطنية بالعقدية الدينية ويجعلهما متقابلان متصارعان وكلاهما خيار بديل عن الآخر إما الدين (مع العرب) وإما الوطن (مع المصريين المسيحيين)، وفي النهاية النصر للعرب على الوطن ! .. وهذه كارثة كبرى تحدث انفصاما في الفكر وعدم انتماء داخلي أو قطيعة مع الوطن وأهله وانتماء لعرب شبه الجزيرة باعتبارهم أهل الحق. مع أنه في الواقع حتى وإن كان العرب هم حملة الدين في هذا الوقت فليس من الدين اقتحام البلدان هكذا وليس من المنطق تدريس تاريخ المصريين بلسان العرب وما كتبوه هم عن أهلنا المصريين، وإلا أصبح انتماؤنا للعرب ضد وطننا

وأهلنا. فمجرد كون العرب يحملون الدين الحنيف، فهذا الدين لا يبرر لهم انتزاع وطننا من الأساس، ولكن الهجوم كان خطأهم هم، فلا مواجهة بين الدين والوطن، فكلاهما دعامتان متساندتان ملتصقتان وليستا متواجهتان ومتقابلتان.. أما نحن فقد قدسنا أخطاء العرب واعتبرناها شعائر دينية فاقتنعت عقولنا ضمنيا أننا يجب أن نسلم وطننا من أجل الدين، فنحن قد درسنا الفتح العربي من منظور العرب فاعتقدنا خطأ أن الوطن المصري كان يجب تسليمه للعرب ! أو أن هذا هو ما يرضي الله أن نسلم وطننا !

١٠٢.فلا زلت إلى اليوم أذكر أستاذ اللغة العربية، لا زلت أذكر هيئته وحركته وقميصه وصوته وملامح وجهه وهو يعطينا أول الدروس العربية عن الفتح العربي لمصر في الصف الثاني الإعدادي، (كان يضع الفاتح العربي في موقف البطل الحق ويضع الشعب المصري في موقف المذنب المتقاعس عن قبول الحق ونصرة العرب الداخلين، أو أنه سيكون مذنبا إذا اعترض على دخول عمرو العاص وطننا مصر واحتلالها، وسيكون مذنبا إذا لم يستسلم، وسيكون في خانة الكفار إن لم يخضع ويسلم وطنه، وكان يبرر بأنهم أهل مصر كانوا أقباط يعني مسيحيين وأن العرب الفاتحين كانوا صحابة رسول الله المجاهدين في سبيل الله، (ونفهم ضمنيا أن مقابلة بين " الصحابة والمسيحيين" وهذه كارثة لأن الصحابة دخلوا الوطن بطريق غير مشروع، وكان النصر للصحابة وبطبيعة الحال نختار الصحابة المنتصرين ولو على حساب الوطن وأهله.. فالمقابلة بين "الدين والوطن" كارثة، بين الوطن وبين الصحابة كارثة، ولا بد أن يكون النصر للصحابة ضد الوطن، وأنه يجوز إذلال المسيحيين طالما ظلوا مسيحيين، ويجوز احتلال أرضهم وبيوتهم كما فعل عمرو العاص وهذا حقه لأنه مسلم!) ومنه فهمنا أن التنازل عن الوطن من أجل الدين هو عقيدة، كما فرض علينا العرب ذلك.

١٠٣. مع أن الدين لا يفرض علينا التنازل عن الوطن... كنت وجميع زملائي نشعر بأنه يتحدث عن قوم كانوا يسكنون بلدنا، وعرفنا أنه كان الصحابة يسمونهم الأقباط، وكانوا هم سكان مصر في هذا الوقت ولم نشعر لحظة واحدة أنه يتحدث عن أجدادنا الحقيقيين الذين نبتت أجسادنا من لحمهم ودمهم.. لدرجة أنني كنت أتساءل من أين جاء هؤلاء الأقباط وأين ذهبوا بعد ذلك؟ هل تركوا وطنهم لنا ورحلوا؟ خرجنا من هذا الدرس بأمنياتنا أن نكون عربا من أصول عربية ننتمي إلى الأشراف العرب لا إلى المصريين الأقباط الخانعين المتقاعسين عن نصرة الصحابة أو المذنبين الذين لا يعرفون مصلحتهم في تسليم وطنهم للعرب، كنا نشعر بانتمائنا لقريش كي نكون أبطالا ونفعل مثلما

فعلوا بمصر وغيرها من الشعوب، ولم يعد لدينا أي انتماء لوطننا أو لم نعرف في هذا الوقت أنه بيتنا هذا الذي يحاول عمرو العاص اختراقه من طريق الصحراء ولم نشعر بالغيرة على هذا الوطن أو نستشعر الخوف عليه.. كانت كل أمنياتنا أن ينجح عمرو ورجاله في اقتحام حدود الوطن والسيطرة عليه لتحقيق النصر.. ثم يبدأ انتماؤنا لوطننا يتجدد مرة أخرى في الصف الثالث الإعدادي حينما ندرس التاريخ باعتباره "التاريخ المصري الحديث" بداية من عصر محمد علي، وهنا شعرنا بأنه أصبح لدينا وطن عمره مائتي عام فقط، وأن أجدادنا كانوا مصريين حقيقيين. أما الفترة السابقة فكانوا على غير ديننا ولم يكونوا أهلنا !..

١٠٤.إن الكارثة التربوية الكبرى التي ترسب في نفوسنا أننا استقبلنا الدين بجيش مقاتل ولولاه ما عرفنا الدين، واصطلاح "الفتح العربي لمصر" يرسب في عقول الأطفال (لحظة كُفر بالوطن من أجل الإيمان بالله) وترسب لحظة (نضال الصحابة المؤمنين المجاهدين في سبيل الله ضد الوطن الكافر) ! لأن المصريين لو اتخذوا قرارهم بالدفاع عن الوطن ضد عمرو ابن العاص لن يكون موقفهم مشرف ولن يكونوا من المؤمنين بالله (وفقا لمناهج التربة والتعلم الحكومية المدنية)، بل إن دفاع المصريين عن وطنهم في هذا الوقت كان سيعتبر خطيئة وأن أفضل ما فعلوه أنهم لم يعترضوا عمرو ولم يدافعوا عن وطنهم! وهكذا كان العرب يقنعون أبناء الشعوب بأن يكفروا بأوطانهم كي يعلمهم العرب الإيمان بالله.. ومعنى ذلك أن إسرائيل عندما احتلت سيناء عام ١٩٦٧ لو كانت قالت للمصريين أنهم إنما جاؤوا إلا ليعلمونا دين يسوع، لكان وزير الدفاع المصري قد طأطأ لهم الرأس، ولكان الخمسة وثلاثين ألف شهيد مصري أصبحوا كافرين، وهذا معناه أن حرب أكتوبر كانت كفر بدين الله من أجل الوطن ! لأن إسرائيل بالفعل احتلت سيناء لحماية مقدسات دينية.. وبالتالي على كل من يرى عمرو العاص قادما بجيشه أن يقوم فورا بتنكيس العلم المصري.. وهكذا أقنعتنا قريش بأن نسلم مصر كلها ألف عام ! برغم أن هذه العقيدة فاسدة بمعيار الدين الإسلامي ذاته، فالدين لا يأمر أحدا بتسليم وطنه للغير سواء كان مسلما أو غير مسلم، فكيف نمدح نحن "مشروع تسليم الوطن المصري للحاكم العربي لأنه مسلم؟ أو كيف نمدح مشروع استلام العرب لحكم مصر؟ إن مجرد اصطلاح الفتح العربي يخلق إشكالية في عقول أطفالنا حول مدى المشروعية أو الشرعية الوطنية، وليس الأمر متعلقا بالعقيدة الدينية، بل بمشروعية حكم العرب لمصر رغما عن أهلها ودون اختيارهم، غير أن اصطلاح

الفتح العربي في حد ذاته هو اشتقاق من اصطلاح الفتوحات العربية التي شهدنا نموذجا عصريا ومجسما منها على يد تنظيم داعش الإرهابي.

١٠٥. هذه المفاهيم تظل مضطربة وقلقة داخل عقول الأطفال حتى وإن لم تقو عقولهم على طرح الأسئلة والاستفسارات، لكنها تبقى نقاط غموض وقلق واضطراب فكري عقائدي؛ لأننا كنا نفتخر بأجدادنا المصريين الفراعنة عبر خمسة آلاف عام من الزمان ونعتز بهم وبإنجازاتهم وأهرامهم وآثارهم حتى فترة دخول العرب مصر، ثم يتوقف اعتزازنا بهم باعتبارهم أقباط يرفضون الحكم الإسلامي لهم ويقومون بثورات ضده، وينتقل انتماؤنا إلى الفخر بمن قمعهم وانتصر واحتل واغتصب وسبى بناتهم وقمع ثوراتهم ونفتخر بالأعراب وقريش والحروب والسيوف وصحراء شبه الجزيرة العربية، لتصبح صورة العربي هي القدوة والمثل، وتلال الصحراء هي مصدر الفخر العربي والعزة والشرف والانتصار، أما أهل مصر فهم أقباط منبوذين (من منظور العرب بالطبع، ونحن ندرس التاريخ من نظرة العرب وليس بنظرة المصريين، لأننا لو درسنا تاريخ وطننا سنجده مليئا بوقائع مغايرة تماما عما كتبه العرب، لكننا اعتدنا أن نكذب ما كتبه أهل مصر عن وطنهم ونصدق ما كتبه العرب بيدهم، رغم أننا أبناء مصر ولسنا أبناء العرب (وهنا يحدث اختلال في كيان العقيدة الوطنية، اختلال فكري عقائدي مذبذب)، لكن حتى ما كتبه العرب بيدهم يثبت مخالفتهم للدين)..

١٠٦. في الواقع إننا نعيش في حالة من النفاق مع النفس، لأنه ليس منطقيا أن ندرس تاريخ وطننا من منظور غير وطني ومن غير المنطقي أن نعتمد فقط على المصادر التاريخية التي كتبها طرف واحد هو المنتصر على وطننا.. إن مجرد دراسة تاريخ الوطن من مصادر غير وطنية ومن لغة لم تكن هي لغة وطننا المصري لهو نوع من الخيانة الوطنية وخيانة للذات، لأن العرب في هذا الوقت كانوا يتحدثون اللغة العربية، بنما المصريون يتحدثون اللغة الفرعونية، فكيف يكون تاريخ الوطن المصري مستمد مما كتبه العرب بلغتهم، أليس من الصواب أن يكون تاريخ الوطن المصري هو المراجع التي كتبها المصريون بلغتهم الفرعونية؟ هل نكذب أنفسنا ونصدق العرب فيما يقولونه عنا؟ إذن في هذه الحال فنحن ليس لدينا انتماء ذاتي ولا ثقة ذاتية، فقط نحن نحتفل بالمنتصر لأنه انتصر علينا، وطالما كان القلم مع الظافر، فيصبح قلمهم هو قلم التاريخ !

١٠٧. على كل حال تتشكل عقيدتنا الوطنية مضطربة تارة ما بين انتمائنا لبلدنا والقدماء الفراعنة، وتارة أخرى بافتخارنا بالعرب القادمين من شبه الجزيرة الذين انتصروا وحكموا أجدادنا عنوة ألف عام، ثم نعود في الصف الثالث الإعدادي إلى وطننا مصر مرة أخرى عهد محمد علي لنقول أنه أصبح لدينا وطن... حتى وإن انقطع حبل التاريخ المصري في المنتصف، وليست المشكلة في الانقطاع وإنما في الانتماء لمن دخل مصر بجيش مقاتل وحكمها رغما عن أهلها ودون اختيارهم، كيف نعتبره هو البطل والقدوة ؟

١٠٨. فالطفل تنشأ بداخله أسئلة غامضة حول حقيقة انتمائه وعقيدته الوطنية، وهل أن أصله يعود إلى الفراعنة العباقرة الذين سكنوا وادي النيل أم إلى العرب أبطال الحروب والانتصارات والجهاد الذين انطلقوا من صحراء شبه الجزيرة؟، ولن يعرف الإجابة خصوصا على سؤال المشروعية في هذا الموضع. مشروعية دخول العرب واحتلال الوطن ومشروعية الدفاع عن الوطن المصري، بغض النظر عن كون المواطن مسلم أو مسيحي أو يهودي، فنحن نتحدث عن مشروعية الدفاع عن الأوطان والأملاك والعرض والشرف.. فهناك إشكالية كارثية خلقها رجال الدين والمؤمنين بأن نشر الدين يكون بالسيوف والجيوش المهاجمة، هم يكتسحون الأوطان ويشردون النساء والأطفال بحجة نشر الدين، ومن هنا يحاولون إقناع أجيالنا بمشروعية دخول عمرو ابن العاص مصر بجيشه، وفي المقابل تترسب في عقلية الطفل (عدم مشروعية التمسك بالوطن والدفاع عنه ضد الجيش الفاتح) ! أو على الأقل أن التصدي والدفاع عن الوطن في هذه الحال كان غير مشروع طالما كانت المشروعية مع عمرو وجيشه! ثم يبررون ذلك بأن أهل مصر لم يقاوموا الجيش العربي، لكن هل فعلا أن المصريين استسلموا لحكم العرب بعد ذلك؟ هذه الإشكالية المضطربة حتما ستترك آثارها وتشوهات نفسية في عقلية الطفل المصري ولن يتم حسمها بمقولة ازدواج المشروعية أبدا، لأن طبيعة العقل البشري تقوم على مبدأ ثابت واضح، وبالنسبة لهذا الأمر فلا يمكن إقناع العقل بمشروعية الدفاع عن الوطن، ومشروعية هجوم عمرو ابن العاص بجيشه على مصر في ذات الوقت، لأن العلاقة بين العرب والمصريين لم تكن اتحاد الأصدقاء ضد العدو الروماني، وإنما كان احتلالا عربيا جاء للإطاحة بالاحتلال الروماني والجلوس مكانه...

١٠٩. أما فكرة إقناع الطفل المصري بمشروعية دخول الجيش العربي وطننا، خصوصا أنه داخل لغرض لم يدركه المصريون وليس من اختيارهم، لأن المصريون كانوا يتحدثون لغتهم الفرعونية

بينما العرب يتحدثون العربية، وفي ذات الوقت نقنع الطفل بمشروعية التمسك بوطنه والدفاع عنه، أي ازدواج مشروعية الدخول مع مشروعية التمسك بالوطن ! فهذا محض اضطراب نفسي واختلال فكري ورثه أجدادنا عن أجدادهم عن متلازمة الاحتلال العربي. فما زال غبار الاحتلال العربي يعمي عقولنا عن رؤية الحقائق والإقرار بها.. لأننا لو طبقنا منطق الأزهر بأن الجهاد دفاعي فقط فهذا معناه أن دفاع المصريين عن وطنهم هو الجهاد، وأن دخول عمرو ابن العاص هو العدوان، أما أننا درسنا في مراحل التعليم التربوي أن الدفاع عن الوطن واجب، ولكن الانضمام لجيش عمرو هو الجهاد ! وأن من وقف ضده مدافعا عن مصر فهو كافر! برغم أن هجوم العرب كان خطأ من الأساس وليس من الدين.. وما زلنا نقول أن هذا الغبار الذي يغطي عقولنا هو السماء أو هو نهاية المدى والحق المطلق ! بينما هو محض غبار ثقافي ترك أثرا نفسيا حجب عقولنا حتى عن رؤية الحقائق...

١١٠.فاصطلاح "الفتح العربي" حينما نتأمل في أبعاده النفسية على مهل.. فإنه يعني بالنسبة لكل طفل مصري ((كيف تسلم وطنك حتى لا تظل كافرا، أو كيف تسلم وطنك دون أن تكون خائنا، أو كيف تكون خيانة الوطن مشروعة طالما كانت من أجل الدين)) أو كيف تتنازل عن حق الدفاع عن وطنك وكرامتك وحريتك أو ((كيف تتنازل عن سلطة بلدك)) أو كيف تترك وطنك وتنضم للداخل المحتل لأنه يرفع راية الدين سواء كان صحابيا أو وهابيا أو داعشيا.. سعوديا أو غزاويا أو أفغانيا؛ أو كيف تقف إلى جوار جيش على حدود مصر الشرقية قادما إلى مصر من العريش والفرما باتجاه القاهرة على خط سير عمرو ابن العاص، فمجرد رسم الصورة الذهنية بهذه الملامح لجيش يحصل على مشروعية دخول الوطن لهو كارثة إنسانية في حق الطفل، تخلق داخله انفصاما عقليا لأننا مهما حاولنا تحوير الأمر بجعله جهاد في سبيل الدين، فالصورة ارتسمت في الأذهان بملامح محددة ثابتة (جيش يقتحم حدود وطنك ومن يعترضه يكون كافرا) وهذا ما يرسب رغبة في ترك الكفر الوطني والانضمام إلى الآخر المؤمن، غير أن الصورة المحببة إلى نفوسنا الآن هي صورة جيش عمرو ابن العاص يقتحم حدود مصر ومعه الأبطال، بينما المصريون كانوا أقباطا ومن لم ينضم منهم إلى العرب فهو خائن لدينه أو كافر أو غير ذلك... إن مجرد مشهد دخول جيش غير مصري إلى مصر يجب استبعاده تماما من ذهنية الأطفال واستبداله بعكسه، لأن هذا المشهد في حد ذاته خيانة وطنية وعدوان على الوطن ومن يؤمن به يكون خائنا لوطنه وخائنا لذاته، ولا بد للطفل أن يفهم أنه لا يوجد جيش في العالم يمكن أن يحصل على مشروعية دخول الوطن أيا كان السبب.

١١١. أي أن الكارثة تكمن في الأثر التربوي النفسي على الطفل في مرحلة التربية الوطنية، لأنه يتعلم من دروس الفتح العربي عدة مبادئ غير وطنية وإذا كبر وحاولنا إقناعه بعكسها نصبح خارجين عن الدين! أو نهاجم الدين لأنها أصبحت ثوابت دينية عقائدية عنده وامتداد لعقيدة جهادية مقدسة.. هذه المبادئ غير الوطنية أهمها (مشروعية وشرعية اقتحام حدود الوطن من الخارج كما اقتحمها عمرو ابن العاص والصحابة الأبطال المجاهدين معه ـ مشروعية وشرعية تسليم الوطن لمن يحكم باسم الدين ولو كان مثل عمرو ابن العاص أو محمد مرسي وبديع مرشد الإخوان.كيفية التنازل عن حق الدفاع عن الوطن لتكون مسلما ويرضى عنك الله، وكيف تتنازل عن قوتك وإرادتك وحقوقك وسياسة وطنك لصالح الغير إذا كان يتحدث باسم الله مثل عمرو ابن العاص والأشتر النخعي ..إلخ، وكيف تترك أهلك وأهل وطنك وتنضم إلى الغازي المحتل لأنه يحمل الدين الحق(برغم أن الدين ليس بديلاً عن الوطن ولا الوطن بديل عن الدين)، وكيف تعتبر أجدادك هم أعداء في ذات الوقت طالما لم يستسلموا ويخضعوا للعرب بسهولة أو قاموا بثورات ضدهم، فهم مكروهين إذن.. وكيف تستشعر الهزيمة أمام الجيش العربي لأنه إسلامي، مع أن كونه إسلامي لا يفرض علي أحد الخضوع له بالقوة، لكن العرب أقنعونا بوجهة نظرهم، أقنعونا بمشروعية احتلالهم لوطننا واستمرت قناعتنا إلى اليوم. ! لدرجة أننا صرنا نقدس الفاتح عمرو ابن العاص ونعتبره من الأبطال ونحافظ على مسجد بني باسمه (جامع عمرو ابن العاص بالقاهرة)

١١٢. رغم أنه اقتحم حدود وطننا بجيش غير مصري ويتحدث لغة غير لغة المصريين، ودخل مصر لمطامع سياسية اقتصادية بحتة وفقا للمراجع التاريخية العربية ذاتها. دخل مصر مرتين، مرة خاض سلسلة معارك ضد جيوش الروم في مصر، ومرة أخرى قاد جيشه من دمشق إلى مصر لانتزاع حكمها من يد محمد ابن أبي بكر الصديق كي تكون مصر طعمة له مدى الحياة، ثم قبض أصحابه على محمد ابن أبي بكر وقتلوه وجروه من قدميه في الشوارع ثم حشروا جثته في جيفة حمار وأشعلوا النار فيها ... إن قمة الغش والخداع الذي نضع أنفسنا فيه هو تقديس شخص محتل جاء لأغراض ومطامع سياسية اقتصادية ومنحه قداسة دينية ! فينبغي علينا هدم (جامع عمرو ابن العاص) فورا لأن عمرو وصل إلى هذا المكان بطريقة غير مشروعة وبني بطريقة غير مشروعة ومن أموال غير مشروعة وعلى أرض غير مشروعة وبدون رغبة وموافقة المصريين على بنائه. ولذلك ينبغي فورا هدم هذا المسجد وبناء مسجد آخر مكانه يحمل اسم الشيخ محمد أبو زهرة أو الشيخ محمد الغزالي أو

الإمام محمد عبده..إلخ من أبناء مصر الذين تفقهوا في الدين على وجه صحيح ومشروع وليس بطريقة غير مشروعة كما فعل عمرو العاص لأن عمرو يجب إدراجه ضمن لصوص المال العام من الحكام المستبدين المغتصبين للسلطة، فالأموال التي حصلها من المصريين وصدرها إلى السعودية عبرة قناة أمير المؤمنين لا تقارن بحجم الأموال التي نهبها مبارك وأولاده ونظامه قبل الثورة، وعمرو لم يمارس الشورى كما أمر الإسلام في حكم مصر، بل تصافق عليها مع معاوية بخيانة الخليفة، ولم يشرك المصريين في حكم بلدهم بل استبد بالحكم عنوة كما كل الفراعنة الهكسوس الذين حكموا مصر.. ينبغي أن يحمل المسجد اسم واحد ممن أصلحوا الدين بعدما أفسد عمرو مبادئه، واحد ممن قرروا أن الإسلام ينتشر بالدعوة وليس بالسيوف كما قرر عمرو.. واحدد ممن اعترفوا بأن معارك النبي كانت دفاعية وليست غزوات كما قال عمرو وأمثاله.. واحد مثل الشيخ العز ابن عبد السلام الذي شهد بعدله جميع الناس (مسلمين ومسيحيين) وليس مثل عمرو الذي شهد بمكره وغدره وكذبه جميع الناس والصحابة أنفسهم.

١١٣. وعلينا أن ندرك جيدا أن مجرد دراسة تاريخ السعودية (الأموي والعباسي) في المدارس المصرية وتعظيم قومية غير قوميتنا وهي ليست من جنسنا، وتعلية السيادة العربية على الإرادة المصرية، فكل ذلك ما هو إلا شعورٍ جمعي بالنقص والضعف تراكم في النفوس على مدار مئات السنين وانتقل وراثيا بين الأجيال.. ومجرد الفخر بمنجزات الأمويين والعباسيين العرب لهو نوع من انسحاب الإرادة والخضوع اللاواعي للعقلية العربية، باعتبارهم المعلم ونحن التلاميذ، لأننا وقت زهوة الدولة العباسية كنا موالي، وما ذلك إلا نابع من شعورٍ داخلي ذاتي بالعجز أمامهم وأنهم مصدر فخر ورفعة، بينما الحقيقة أن أجدادنا خلال حقبة العصور الوسطى هم الذين عانوا من الضعف والاستضعاف أمام العرب وانتظروا ما تمليه إرادة العرب عليهم ليسمعوا ويطيعوا، ولا يجب علينا الاستسلام لهذه الفلسفة التي تنتقص الذات وتبخسها وتتفاخر بتاريخ غيرها العرب الذين كانوا عرب يتحدثون العربية ونحن مصريون نتحدث لغتنا الفرعونية.. والغريب العجيب أن أجدادنا المصريين (في العصور الوسطى المصرية) ظلوا يتحدثون لغتهم القومية الفرعونية خلال رحلتي صعود وهبوط الحضارة العربية كاملة !! ولم يتحدثوا اللغة العربية إلا بعد أن انهارت الدولة العربية تماما، بعد دخول المغول بغداد وانهيار الدولة، فكيف نفخر بهم ونعتبر أنفسنا جزء منهم وهم كانوا أجانب خواجات بالنسبة لنا !

فهل نتبنى ثقافتهم وقوميتهم من أجل الدين؟ إذن فذلك معناه أننا نتخذ من قوميتهم الفاسدة قاعدة للتديُن ! كيف ذلك إذا كان الدين قد نزل بلغتهم لعلاج قوميتهم المريضة؟

١١٤. في الواقع أن الأزهر كمؤسسة ثقافية لا تمثل المجتمع المصري ولا تمثل القومية المصرية، ولا تنتمي إلى الشعب المصري ولا تتحدث باسم مصر ولا تعبر عن ثقافته وقوميته وحضارته، إنما هي تقدم الدين الإسلامي للمصريين، فهي صوت شبه الجزيرة العربية في مصر وهي التي بدأت تعلم المصريين اللغة العربية، أي أنها منذ نشأتها كانت ثقافتها مستوردة من الخارج، ولابد أن نعترف بأن الأزهر مؤسسة أجنبية غير وطنية تمثل العرب ولا تمثل المصريين، (تدرس تاريخ العرب الذي تنبذه كل شعوب العالم. وتستبعد تاريخ المصريين العلم الذي تطلبه كل شعوب العالم) فهي تتعامل مع العرب باعتبارهم الآباء الروحيين ولم تدرك أنهم أقرب إلى الهكسوس من المصريين، فالمصريين شعب حضارة أما العرب والهكسوس والمغول فهم قبائل، وعلى الأزهر اليوم أن يعقد مقارنة بتحكيم لجنة من علماء النفس والاجتماع لتوضيح الفرق بين الجنس العربي والهكسوسي والمغولي.. فجميعهم من فصيلة واحدة .. لا أن يظل الأزهر على عدائه الشديد لحضارة أجدادنا الفراعنة ويقدس العرب.. فهو يدرس الأدب العربي ويتجاهل الأدب المصري والحكم المصرية الفرعونية والعلوم المصرية القديمة، ويعتبرها عدوا للإسلام، وبرغم أنه يقوم بتدريس الشعر الجاهلي دون النظر في عقيدته، وشعر عنترة دون النظر في عقيدته، ويقومون بتدريس شعر المتنبي برغم أنه سمى بهذا الاسم بسبب ادعائه النبوة ! ثم يستبعدون تاريخ الفراعنة لأنهم لم يكونوا مسلمين. وجميع الشعراء والأدباء الذين تم تناول أشعارهم وكتاباتهم الأدبية والنثرية في كليات اللغة العربية بالأزهر لا يعرف أحد عن ديانتهم أصلا.. غير أن العلم والأدب منفصل الصلة بديانة حامله، فالنبي سمع شعر عنترة برغم أنه لم يكن مسلما، أما الأزهر يصر على تجاهل واستبعاد حضارة أجدادنا لفراعنة ليس لأنها مسلمة أو مسيحية ولكن لأنها ليست من جنس العرب.. فما يزال الأزهر يحاول قدر جهده لإقناع المصريين بأنهم رعية للعرب، وما زال يدرس تاريخ الأمويين والعباسيين باعتبارهم خلفاء عظماء ويحلم بعودتهم لكي تستمر مصر في طور الرعية، ولا يتمنى الأزهر أن تنضج مصر أبدا وتنتقل من طور الرعية هذا إلى طور الراعي.

١١٥. وما يؤكد أن الأزهر هو مؤسسة أجنبية عن مصر (عقلية عربية معادية للوطن المصري) تمثل القومية العربية المريضة ودولتها وحضارتها الفاشلة، هو ما يقوله المستشار أحمد ماهر، إذ يقول: هم

يقومون بتدريس طرق التعامل مع المسيحيين بالدولة الإسلامية فيقولون (أنه لا تبنى كنيسة في بلاد الإسلام.. وإذا بُنيت فيتم هدمها سواء اشترط عليهم أم لا...ولا يُحدثون ذلك في بلدة فتحت عنوة كمصر وأصبهان لأن المسلمين ملكوها بالاستيلاء فيمتنع جعل فيها كنيسة...) هذا بالحرف الواحد ما هو مكتوب بالمنهج الذي كان أيضا من المقررات بالأزهر حتى عام ٢٠١٦.. لكنهم رفعوه من المقررات بعد أن قمت بفضحهم بكل القنوات التليفزيونية ... لكن استمر ذات الكتاب كمنهج دراسي معتمد حتى اليوم... " فهم يحتفلون باستيلاء العرب على مصر ولا يستحيون من ذكر هذا اللفظ؛ ذلك لأنهم يفكرون بعقلية العرب لأنهم مصابون بمتلازمة ستوكهولم العربية، فهم يرون بعقلية العرب أن البلاد التي فتحت عنوة بنظرهم أصبحت ملكا للمؤمنين العرب مثل بيوتهم سواءً بسواء، ولا يجوز لأحد التحكم في بيوتهم !! ...

١١٦. لكننا نلحظ حركة بعث جديد للقومية المصرية وانحسار وانكماش مستمر للقومية العربية في مصر، فعندما بدأ عصر النهضة في مصر مطلع القرن العشرين وبدأ تأسيس جامعة القاهرة، وتوالت بعدها الجامعات وتعدد الكليات العلمية، لم يكن ممكنا أن تبدأ جامعة مصرية من شبه جزيرة العرب، فجميعها حملت شعاراتها من رموز الحضارة المصرية القديمة، والغريب أنه حتى كليات الآداب حملت رموزا مصرية حتى النخاع ولم تقتبس من شبه جزيرة العرب أي إشارة، وهذا ميلٌ فطري من النسيج المصري إلى النبتة الطيبة التي نمت في أرضه، أو ربما لأن الأدب المصري في جملته اعتمد على "الحكمة" ولم نجد شاعر أو حكيم مصري ماجن أبدا.



١١٧.	بينما الأدب والشعر العربي اعتمد في جملته على الفسق، وهو ما لم تستسيغه العقلية المصرية حتى وإن اتخذته مصدرا للغة.. ومن الملاحظ أن مصر كلما تقدمت في العلوم والحضارة تستقل تدريجيا عن علاقتها بالعرب وقومية العرب والعباسيين والأمويين، خاصة كلما زادت الاكتشافات الأثرية، وتعرفت أجيال المصريين على عظمة حضارة أجدادهم، فقبل مائتي عام لم يكن هناك مصري يدرك أنه من أصل مصري فرعوني لأنه لم تكن هناك أية اكتشافات للآثار عن الحضارة القديمة، فالحضارة المصرية القديمة كانت منسية وكان الشعب في حالة من التيه، وكان الأزهر مسيطرا على الوعي العام يقم بتخدير المصريين وإقناعهم بأن العرب قدوة ! وكان هو المؤسسة التعليمية الوحيدة وكان يقنع الشعب بأنهم عرب وأن مصر ولاية عباسية استولى عليها الصحابة الأبرار عنوة وتملكوا أمرها فأصبح أهلها رعية تحت العرب... ثم بعد اكتشاف حجر رشيد وفك رموز الحضارة المصرية بدأ الانتماء يعود للمصرين بعدما تعرفوا على أجدادهم وبدؤوا يتخذون من تراثهم رموزا للعلم والحكمة والمعرفة. وكل ما في الأمر أنه نتيجة استطالة حالة التغييب خلال ألفي عام من الاضمحلال المصري حدثت حالة اغتراب بين الأجيال الحديثة والأصول، أصبحت أسماء العرب ورجالاتهم أقرب وقعا على الآذان، بينما نشعر بحالة اغتراب عند سماع أسماء أجدادنا المصريين

القدماء، لدرجة أننا حينما نسمع أسماءهم نشعر وكأنهم شعب غيرنا، أو أنهم كانوا أناس يعيشون في مصر قبلنا..

١١٨. لكن بمرور الوقت عندما تتطور العقلية المصرية ويجدد النسيج الذهني المصري نشاطه العلمي سيذوب هذا الشعور بالاغتراب، وقد بدأت تنتشر وتتوسع شهرة الحضارة المصرية، وبدأت تظهر رموزها على العملة الورقية والمعدنية، وعلى المباني ومؤسسات الدولة الحكومية الإدارية والتعليمية، وفي العمارة وفي الشوارع والطرق والكباري، وعلى السفن النيلية وعلى واجهات المحلات وشركات السياحة، ولم يكن آخرها ظهور تمثال نهضة مصر للفنان محمود مختار في ميدان النهضة بالقاهرة، والذي أراد الفنان أن يوصل رسالة إلى العالم بأن مصر تستيقظ بعد ثباتٍ عميق، حيث صور فتاة مصرية توقظ أبا الهول من ثباته الطويل. وهذه الصحوة واليقظة هي أول نداء استقلال مصر عن القومية العربية.



١١٩. وتمثال سعد زغلول الذي أم كوبري قصر النيل الذي أخذ قاعدة رخامية من زهرة اللوتس ذات السيقان الرأسية فارعة الطول لأن العقلية العربية بلا سيقان أصلا، وإنما سيقانها زاحفة أفقيا. وكذا برج القاهرة الذي أخذ تصميمه شكل زهرة اللوتس، وتمثال الشعلة بميدان الشعلة على البوابة الرئيسية لجامعة القاهرة، وبدأ تدريجيا يظهر هذه تمثال نهضة مصر على كتب ومطبوعات الهيئة العامة للكتاب وكتب ومطبوعات وزارة التربية والتعليم، وأخذته دار النهضة للطبع والنشر والتوزيع، ومعرض القاهرة الدولي للكتاب، بينما أخذت دار المعرفة منارة الإسكندرية شعارا لها،..

فقد قامت حركة بعث للقومية المصرية من جديد لم تكن موجودة قبل مائتي عام، وكلما تقدمت حركة النهضة حملت ملامح الحضارة والقومية المصرية وتخلصت من آثار العرب في مصر.. لأنه من غير المقبول لمصر وشعبها لمجرد أنها استقبلت المعرفة الدينية من العرب أن تنحني لهم.

١٢٠. فالأزهر ينهل علومه كاملة من شبه الجزيرة العربية وينقلها للمصريين (ليس بحالتها الخام بصورتها علم وإنما بعقلية وفكر وقومية العرب، وهو حريص كل الحرص على القطيعة بين المجتمع المصري وأصوله الفرعونية التي لا تنتمي للعرب، لدرجة أنه قد يحتفي بعظمة العرب في الجاهلية مهما كان كفرهم ولا يمكن أن يذكر حسنة للمصريين القدماء لأنهم ليسوا مسلمين وفي الحقيقة لأنهم ليسو عرب ولم تكن لغتهم العربية، وهنا يحدث الاغتراب في عقلية الطلاب، لأن الأزهر يقدم العلم بصفته تلميذ متلقي من العرب وليس عقل مصري ينتقي ويستورد ما الخارج ما يناسبه من الثقافات)، وفي أثناء ذلك يتحدث باسم العرب وحضارتهم وقوميتهم ولغتهم وتاريخهم في مصر، وينتمي إلى العرب لا إلى مصر، ويصنع من رجال العرب أبطالا على مصر، وبالتالي فالأزهر كمؤسسة تعليمية تربوية أثناء تقديمها للدين تصنع خلالا وشرخا كبيرا في العقيدة الوطنية والإرادة الوطنية المصرية وتمارس طمسا مستمرا للقومية المصرية والإرادة المصرية لأنها لا تقدم الدين وحده وإنما تقدمه مشفوعا بسيادة السياسة العربية القرشية على المصريين، تقدم الثقافة والقومية العربية باعتبارها (حضارة الإسلام)، تقدم الإسلام للمصريين متلفعا بأغصان شجرة الشوك العربية، ولم تستطع انتقاءه نظيفا كزهر اللوتس، وتجعل من صحراء العرب بديلا عن هبة النيل، وتجعل من رجالات الصحراء نماذج للعلم والحكمة والقدوة والقيادة في مصر، تجعل من صحراء شبه الجزيرة أنموذجا مثاليا للحياة وتتجاهل وادي النيل وسهوله الخضراء.. وتتجاهل كل ما هو مصري أصيل وتتبنى كل ما هو مستورد من شبه الجزيرة.. فالمشكلة ليست في أنها تقدم الدين للمصريين، بل المشكلة أنها لا تقدم الدين وحده وإنما مطويا في ثوبٍ مضر بالصحة هو ثوب القومية العربية.

١٢١. غير أن مؤسسة الأزهر تقدم للطلاب مادة تاريخية فاسدة تم إلصاقها بالدين عنوة، هذه المادة التاريخية لا تمت للإسلام بصلة سواء كان التاريخ الجاهلي أو تاريخ الخلفاء الراشدين أو تاريخ الأمويين والعباسيين، فكما قلنا ونؤكد أن الإسلام نزل على النبي وليس كل العرب شركاء في النبوة، نزل الإسلام وانتهى واكتمل بخطبة الوداع، إذن كل ما يخصنا دراسته من السعودية هو البيئة الثقافية خلال الثلاث وعشرين عاما فقط عمر الدعوة، وفقط لمعرفة أسباب وظروف نزول

الوحي، وما سوى ذلك فهو جزء من القومية العربية وليس من الدين، ونحن نستورد دين فقط من السعودية ولا نستورد تاريخهم لنقدسه في بلدنا، غير أن هذه المادة التاريخية تمت صياغتها في ظروف كان المجتمع المصري مقهورا فيها وخاضع كرها للسيادة العربية ودون إرادته ودون رغبته ولم يكن العرب الحكام في مصر يسمحون بمشاركة المصريين في حكم بلدهم ولا إدارتها، كان العرب مستبدين مستأثرين بحكم بلدنا وجمع الضرائب وتصديرها للسعودية، وتمت صياغة هذا التاريخ خلال حقبة كانت مصر فيها مستعمرة عربية ولم تكن حرة ولم تكن الإرادة الشعبية حرة، وهذا ما يعني أن تدريس التاريخ العربي خلال هذه الفترة بلسان العرب لهو استمرار لانكسار الإرادة المصرية وتنكيس للعلم المصري تحت العلم العربي العباسي والأموي، وذلك بما فيه من أبلغ إساءة ومساء بالسيادة الوطنية المصرية في عقول الطلاب، لأنهم لم يتعلموا معنى الإرادة الشعبية والسيادة الوطنية وحرية كل شعب في ممارسة السيادة الوطنية على أرضه وتقرير مصره دون تدخل أو ضغط من الشعوب المجاورة سواء كان العرب أو الهكسوس أو الأمريكان. لأن النبي حينما نشر الإسلام في المجتمعات المجاورة لهم لم يكن يفرض عليهم الخضوع لحكمه عنوة ولم يعزل حاكما عن بلده ليضع مكانه أعرابي أو حتى صحابي، فقد ترك مالك نويرة حاكما على شعبه. وهذا ما يعني أن استمرار العرب في حكم مصر بالديكتاتورية والاستبداد ودون شورى لهو أول مخالفة لدينهم فكيف نقدس مخالفاتهم لدينهم ونعتبرها فتح !

١٢٢. بل إننا لو عدنا إلى بداية دخول العرب والقومية العربية إلى مصر لوجدنا أن العرب كانوا أصحاب ثقافة أدبية، والقومية العربية كلها أدبية ومعرفة سائلة، بنما المصريين كان لديهم ذخائر علمية وكتابات علمية، تركها المصريون ونهلوا من الحصيلة الثقافية للعرب، ولم ينهل العرب من الحصيلة العلمية المصرية لأنهم غير متواضعون ولا يحبون العلم، فنشأ الأزهر في مصر (ليس ممثلا للدين الإسلامي فقط) وإنما ممثلا للقومية العربية بكاملها (الدين والأدب والتاريخ) وفي المقابل لم ينشأ في السعودية مؤسسة نظيرة للأزهر تنقل إلى العرب علوم المصريين ومعارفهم برغم أن مصر كانت حضارة تشع أضواءها من فنار الإسكندرية، بينما العرب قبائل صحراوية نقلت غبار الصحراء إلى مصر بجهلها، فلم يحدث تبادل ثقافي بين الشعبين ولكن طغيان ثقافي للقومية العربية، وبمرور الوقت طمست وتهمشت الهوية والشخصية المصرية العلمية وطغت عليها العقلية الأدبية العربية، وأصبح الأزهر هو قلعة المعرفة في مصر بلا منافس، والأزهر يختلف عن الكنيسة في مصر لأن

الكنيسة تدرس دين فقط أما الأزهر فيدرس دين ولغة وأدب وتاريخ أي قومية عربية كاملة، فالأزهر ما زال على عقيدة أن مصر ما هي إلا مستعمرة عربية أو ولاية عربية تحت الخلافة العربية التي كانت والتي يجب أن تكون، ومعنى ذلك تنكيس العلم المصري أمام الأزهر لأنه لا يؤمن بفكرة الجمهورية المصرية، وإنما يقدم مصر للطلاب باعتبارها ولاية عباسية.

١٢٣. وإذا نظرنا إلى العقلية المصرية منذ البداية وعرفنا أنها من الطابع العلمي العملي التطبيقي الذي يتنافى مع طبيعة العقلية الأدبية، هنا سندرك أن الأزهر منذ البدء كان يعمل ضد المصلحة الوطنية والإرادة الجمعية للشعب المصري على محورين؛ المحور الأول سياسي ويتمثل في فكرة كون مصر ولاية عربية خاضعة لحكم الخلافة العربية وتابعة سياسيا لهم (بما يمثل ضمنيا قهر الإرادة الشعبية المصرية وحصرها في نطاق التبعية والخضوع للعرب)، وأما المحور الثاني هو تمثل في طغيان الفكر العربي الأدبي على العقلية العلمية المصرية (ضمنيا قمع وقهر العقلية المصرية لصالح سيادة العقلية العربية) لأنه لم ينقل الدين فقط للمصريين ولم يقدم لهم علم بقدر ما قدم الأدب، وإنما نقل القومية العربية برمتها وقد أدت إلى كساد وخمول وكسل في العقلية المصرية، ولذلك لم نجد أي إبداعات علمية ولا حتى أدبية خرجت من الأزهر إلى اليوم لأنه تبنى ثقافة أدبية بينما العقلية المصرية علمية، وكان على الأزهر إذا أراد فائدة للمصريين أن يغذي عقولهم بالدين فقط أو الدين والعلوم الطبيعية المصرية، إنما ما حدث كان العكس مساهمة منه (دون وعي) لطمس وتهميش الهوية الوطنية كما العرب باسم الدين.. والمشكلة ليست في أن الأدب شيء غير جيد أبدا، فالأدب في الأصل هو شيء جيد مثل التوابل على طاولة الطعام، وإنما المشكلة في أن العقلية المصرية تفكيرها علمي، وأدبها انحصر في نطاق "الحكمة وبلاغة التعبير" وليس أدبا بالمعنى العربي، وعلينا أن نعترف بذلك ونقر سواء كان ذلك عيب فينا أو ميزة، ولا بد أن نفهم أنه لا أمل لنا في أن نبدع شعرا مثل العرب وهذه قدراتنا وحدودنا، ولا يمكن أن تعمل عقولنا بالطريقة العادية حسب تصميمها الأصلي الرباني طالما ركزت على الأدب لأن الأدب في الأصل صناعة عربية وليست مصرية.

١٢٤. فمنذ ألف عام من الزمن عندما تم تأسيس جامعة الأزهر في مصر وكان المصريون في هذا الوقت يتحدثون اللغة الفرعونية، لم يبدأ الأزهر من قاعدة وطنية، بل بدأ الأزهر يتحدث اللغة العربية إلى المصريين الأجانب عنها، ولم يبدأ بتدريس أي نوع من الثقافة المصرية أو المستمدة من مصر وتاريخها وحضارتها وعلومها، إنما فقط عمل على تدريس كل ما هو مستورد من شبه الجزيرة العربية، بما في

ذلك (الدين الإسلامي- اللغة العربية – الأدب العربي شعرا ونثرا – التاريخ العربي) دون أي مصدر معرفة مصرية، بل كان دورها مضخة من الخارج إلى الداخل تحت إشراف وسلطة الخارج، وفي ذات الحقبة التي فرض على الحاكم على المصريين أن كل من يكلم بلغته الفرعونية سيقطع لسانه، واستمر الأزهر في ذلك -دون أن ندري- يصنع الولاء للخارج ضد كل ما هو وطني.. ولأن شبه الجزيرة العربية فقيرة جدا جدا في المعرفة العلمية، فقط مزدهرة في الأدب والشعر، ولأن الأزهر ينقل لنا قومية العرب فقد اهتم بالأدب والشعر والتاريخ العربي إلى جانب علوم الدين وتجاهل المعرفة العلمية الطبيعية لأنها ليس لها وجود في شبه جزيرة العرب. فالأزهر كمؤسسة تعليمية بدأ في مصر باعتباره سفارة العرب في مصر أو ملحق ثقافي عربي في مصر ينهل من الخارج إلى الداخل بدعم الحكم العربي، واستمر على مدار ألف عام ممثلا للعرب في مصر وليس ممثلا للإرادة والحضارة المصرية، حتى أنه لم يدرس العلوم والطب والفيزياء والهندسة المصرية.

١٢٥. إنما فقط تخصص في كل ما هو مستورد من شبه الجزيرة مهما كان قليل القيمة، ومهما كان تافها، لدرجة أن الأزهر يدرس للطلاب (التاريخ الجاهلي والشعر الجاهلي والأدب الجاهلي) وقام باستبعاد وتجاهل تاريخ الحضارة المصرية الفرعونية، قدم معاوية ابن أبي سفيان على أنه بطل قومي وخليفة بينما تجاهل أحمس البطل الذي حرر مصر وطرد الهكسوس منها، على اعتبار أنه لا يمت للإسلام بصلة، فهل كان تاريخ الجاهلية العربية يمت للإسلام بصلة؟ أليس التاريخ الفرعوني أولى من التاريخ الجاهلي والشعر الجاهلي؟ فالأزهر لا يقدم للطلاب أي بطولات وطنية مصرية وإنما فقط عربية، ويتجاهل البطولات والإنجازات الوطنية، ويتجاهل الشخصيات القومية المصرية ويركز حصرا على العرب.. بينما كان أحمس أعظم من عمر الخطاب، وكان والده سقنن رع أشرف من والد عمر الخطاب، وكان تحتمس الثالث أكثر نزاهة وإنسانية وشرف من خالد الوليد.. وبرغم ذلك لا يوجد في المناهج الأزهرية ما يمكن أن يعرف الطلاب بأن أصولهم تعود للحضارة المصرية الفرعونية، ولا أنها مصدر عزة وفخر لهم، بل كل الفخر لمعارك وحكايات العرب في الصحراء .. أليس تاريخ الحضارة الفرعونية أولى من مواسم الذبح الأموي والعباسي؟ أليست مواسم الذبح الأموي العباسي أكثر ضررا على الإسلام من تاريخ الحضارة المصرية؟

١٢٦. في الواقع فالأمر ليس خاضعا لمسألة الأولوية الوطنية، وإنما الأزهر في الأصل نشأ في مصر ليمثل القومية العربية ومصدر ومورد للمعرفة العربية في مصر، فظل يدرس كل أنواع المعرفة المستوردة

من شبه جزيرة العرب بدءا من التاريخ الجاهلي والأدب الجاهلي والشعر الجاهلي واللغة وحيثياتها ثم تاريخ العرب بعد الإسلام من الأمويين للعباسيين.. فهذه كلها مكونات القومية العربية، التي جاء الإسلام في الأصل لعلاجها وليس لنقل العدوى بها إلى باقي الشعوب، أما الأزهر فقد نقل العلاج مخلوطا بعدوى المريض الأصلي ليصبح الشعب المصري مريضا أيضا.. قدمها الأزهر للمصريين باعتبارها العلوم الأولى بالدراسة وأنها جزء من الدين الإسلامي، بينما هي لا تمثل الإسلام ولا تمثل الحضارة المصرية، وإنما تمثل القومية العربية في مصر، لأنها لو كانت تمثل الحضارة المصرية لكان أولى أن تدرس العلوم الطبيعية والكيمياء والطب والمعارف المصرية بدلا من دراسة الأدب والشعر العربي، أو أن تدرس التاريخ المصري بدلا من دراسة التاريخ الجاهلي والتاريخ الأموي العباسي.

١٢٧. وكان على السلطة المصرية منذ البداية أن ترسم للأزهر خطة تعليم مصرية لتقدم الإسلام للمصريين نظيفا كزهرة اللوتس، بعيون مصرية وليس بلسان عربي، لا أن تقدم القومية العربية بما فيها من تاريخ وأدب جاهلي وتاريخ ومواسم الذبح الأموي والعباسي وغيره.. لأن هذه النفايات المعرفية لا تخدم الإسلام في شيء وإنما تضره أبلغ ضرر، وتضر المصريين وتصنع في النفوس ولاء وانتماء لشبه جزيرة العرب (في الوقت الذي كانت مصر مستعمرة عربية يحكمها سلالة بني العباس، وكان العرب يحكمون مصر دون رغبة المصريين، وما زال الأزهر على ذات العقيدة، ولذلك يعتبرون عمرو العاص بطلا قوميا، وهو بالفعل بطل قومي بالنسبة للقومية العربية السعودية، لكنه في الواقع كان محتلا لمصر، وطالما كان الأزهر يمثل القومية العربية السعودية، فمن الطبيعي أن يتحدث بلسانهم ويقدم عمرو العاص بطلا لأنه يمثلهم ولا يمثل مصر، عمرو كان متحدثا بلسان مكة وليس بلسان القاهرة، حقق مكتسباته لمكة ضد القاهرة، عمرو لم يقم بأي دور بطولي يخدم مصر)، وهذا ما من شأنه أن يصنع إرادة مصرية مضادة لمصر ومنافقة لذاتها ووطنها، ويصنع ولاء وانتماء للأمويين والعباسيين وهم غير مصريين بل إن إرادتهم كانت ضد إرادة المصريين، هذا الولاء والانتماء يأتي مضادا للمصلحة الوطنية والإرادة الوطنية. لأنه منذ أن بدأ الأزهر يقدم للمصريين هذه المعارف لم تكن هناك إرادة مصرية بل كانت الإرادة عربية والحكم عربي قمعي لأنه لم يكن باختيار المصريين.

١٢٨. والأمر قد يثير إشكالية بالنظر إلى أن الأساتذة المدرسين بالأزهر هم مصريين حتى النخاع، فكيف نقول عن الأزهر أنه مؤسسة أجنبية أو غير وطنية.. أو أنها تمثل شبه الجزيرة والعربية ولا تمثل مصر إذا كان العاملين فيها مصريين حتى النخاع ؟..والإجابة: ليس ذلك طعنا في مدى وطنية

المصريين العاملين بالأزهر، ولكن بحث عن حرية الإرادة، وما إذا كانت الإرادة مسلوبة وخاضعة لمؤثرات تاريخية دون وعي، ومتأثرة بمتلازمة ستوكهولم العربية التي وصفها ابن خلدون ولخصها في أن المغلوب المقهورة إرادته يتبنى ثقافة الغالب دون إرادة منه ويؤمن بأفكاره ويتحدث بلسانه، ودون أن يشعر بما إذا كان ذلك في مصلحته أم ضد مصلحته، فهو مسلوب الإرادة يسعى ضد نفسه دون أن يشعر، فهناك انسحاب وانطفاء كامل للإرادة المصرية التي غطت عليها سطوة العرب، ولذلك من الضروري إعادة صياغة المناهج، وإعادة صياغة التاريخ (ليس تزويره) وإنما تبديل شهادة الشهود، وتبديل لسان المتحدث والنظر إلى الوقائع والأحداث التاريخية بمنظور الوطن وليس بمنظور العرب.. أن تتحدث مصر عن نفسها، لا أن تتحدث السعودية عن مصر، يتحدث المصريون عن علاقتهم بالخلافة العباسية لا أن يتحدث العباسيون عن سياستهم في مصر.. فهذه كارثة كبرى يتبناها الأزهر دون وعي.

١٢٩. فلو فرضنا أن وقع حادث تصادم مروري، واصطدمت سيارة نقل بسيارة أخرى ركاب تسير أمامها، وعندما تم استدعاء شهود الواقعة للتحقيق، قرر القاضي سماع شهادة قائد السيارة النقل فقط ورفض سماع شهادة باقي الركاب الذين تكسرت ضلوعهم، لأن القاضي رأى أن قائد السيارة النقل كان جالسا في المكانة الأعلى لارتفاع الكابينة، وهو الذي من شأنه أن يرى الصورة الكاملة، وهو الذي خرج منتصرا سليما معافى من هذا الحادث ! ولذلك تجاهل شهادة جميع المصابين في الحادث! وأخبره قائد النقل بأنه اصطدم بسيارة الركاب ودهسهم في محاولة منه لإنقاذهم من الهلاك، فركلهم إلى جانب الطريق قدر استطاعته حتى لا يتركهم لسيارة أخرى تدهسهم !! وهكذا قيد القاضي حيثياته وأصدر الحكم للتاريخ !!.. هذا ما حدث بالفعل، حيث قرر الأزهر أن يسمع فقط شهادة عمرو العاص عن الحادث المروري " فتح مصر" ورفض سماع شهادات باقي سكان مصر الذين تكسرت ضلوعهم، وما زال الأزهر يقنعهم بأن عمرو إنما اصطدم بهم لمصلحتهم وفي محاولة منه لإنقاذهم من الضلال ! .. ثم جئنا نحن أحفاد هؤلاء الضحايا نشكر عمرو العاص لأنه كسّر ضلوع أجدادنا ونهب ثروتهم وانتهك سيادتهم الوطنية على مدار ألف عام !..

١٣٠. إذن الأزهر طالما تبنى وجهة نظر واحدة فهو ليس حكما عدلا وإنما مأمورا أو واقع تحت تأثير قائد السيارة النقل ورهبته وخوفه منه أو إعجابه وانبهاره الشديد ببطولته، وهذا ما دفعه إلى تجاهل شهادة باقي الشهود المكسورة ضلوعهم وسجل فقط شهادة البطل المنتصر الذي كسر ضلوعهم وانتصر عليهم

وحكمهم ستمائة عام كاملة وفرض عليهم الإتاوات والجبايات.. إذن الأزهر هنا لا يمثل شعب مصر ولا تاريخه ولا حضارته ولا إرادته وإنما يمثل شبه الجزيرة العربية في مصر، وحتى وإن كان العاملين فيه مصريين لكن على ما يبدوا أن إرادتهم معيبة بالعيب الذي تحدث عنه عالم الاجتماع ابن خلدون.. فلا بد من إعادة صياغة التاريخ من المنظور الوطني دون اعتبار ذلك مؤامرة على الإسلام، لأن العدالة الإلهية تفرض على القاضي سماع شهادة جميع شهود الحادث وليس مرتكب الحادث وحده، والإسلام هو دين الله الأكمل الذي يمثل عدالة السماء فلا يجوز استبدال عدالة السماء بعدالة العرب لأن العرب نبت أصلهم في تربة مالحة وشديدة الملوحة ولا يؤتمنون على دين كما لا يؤتمن عمرو ومعاوية على مصر.

١٣١. ولو فرضنا أن هذا الحادث المروري وقع بين (أحمس وعمرو العاص)، بطبيعة الحال سنجد الأزهر يصدر فتوى بأن عمرو العاص بطلا وشهيدا وأن أحمس فاسق وعدوا الله.. بينما الوطن يصدر فتوى بأن أحمس شهيد وطني ابن الوطن ودافع عن وطنه بشرف وأن عمرو العاص محتل لأرض الوطن... فأيهما أصح؟ فتوى الأزهر أم فتوى الوطن؟ وهل نسمع الاثنين ونحكم بينهما بعدل الله أم نسمع العرب وننكر الوطن؟ ولا نتهم الأزهر بخيانة الوطن بأي حال، لكن بعيب الإرادة المسلوبة التي تأتي ضد الوطن دون وعي، ولهذا ينبغي إعادة صياغة المفاهيم وفقا لمبادئ الإسلام السمحة لأن الإسلام لا يمكن أن يحكم على أحمس بأنه فاسق وعدوا لمجرد أنه دافع عن وطنه. بينما المنهج الذي تبناه الأزهر حتما سيحكم على أحمس بأنه فاسق ! ... لقد خجلت جدا عندما تحدثت مع طفلتي الصغيرة وسألتها عما إذا كانت تعرف عمرو العاص، فأجابت مسرعة أنه فتح مصر بجيشه ! ولم تدرك أن دخول جيشه كان جرحا في جسد الوطن، ونهبا لاقتصاد الوطن، وتحطيما وتهميشا لمعنى الوطن، وانتهاكا فجا لمفهوم السيادة الوطنية، وأنه لا علاقة بين الجيوش ونشر الدين، وأن الدين ينتشر بالدعوة لا بالجيوش، وأنه لا دين يفرض علينا تسليم وطننا ! .. لكنها قالت: هكذا قالوا لنا في المدرسة..

١٣٢. وذلك، ولأن الأزهر ما زال يمثل رواسب الاحتلال العربي في نفوسنا، لأنه لا يقدم الدين صافيا نظيفا وإنما يقدم معه القومية العربية بلسان العرب والتي تشترط تسليم وطننا للعرب مع شرطية كون الخليفة قرشي، لذلك نجد أن أغلب من يتقدمون للدراسة فيه هم من مسلوبي الإرادة، وأغلبهم من المجتمعات القروية التي تتسم بطبيعتها بالتبعية للغير، وتقديس الماضي والاحترام الشديد للتقاليد والرواسب الاجتماعية القديمة وتوقير كبار السن مهما كانوا على خطأ وإعلاء شأنهن فوق

حق العقل وحرية الإرادة. ولم تستطع إلى الآن تحرير إرادتها من التبعية للعرب ضد وطنها، وكأن الخليفة لو أصبح مصريا لكان ذلك عيبا في الإسلام ! ولم ولن تدرك أن دخول العرب مصر وحكمهم لها بهذه الطريقة كان إساءة للإسلام وإساءة لمصر ذاتها وأهلها، ولم تدرك أن اندماج مصر في العرب كارثة على المصريين لأن العقلية العربية عقلية أدبية بحتة، وأن التربة العربية شديدة الملوحة لهذا نزل القرآن بلسان عربي مبين لعلاج هذه القومية المريضة وليس لنشرها في مصر، بينما العقلية المصرية علمية خالصة.. ولذلك فلا غرابة من أن نجد أن نصف الإخوان أزهريين، ونصف الأزهريين إخوان، وهم أناس محترمون للغاية، مثقفون للغاية، مؤدبون للغاية ومتدينون للغاية، لكنهم ليسو وطنيون للغاية.. ويعانون من شرخ داخلي بينهم وبين الوطن، ويشعرون بأن الوطن عدو للدين، طالما ظلوا على عقيدة تقول بأن عمرو العاص الذي انتصر على مصر هو بطل قومي إسلامي لأنه انتصر باسم الدين على الوطن ! وتسألهم لماذا هو بطل؟ يقولون لك لأنه فتح مصر بقوة الجيش العربي ! وانتصر على أهل مصر وحكمهم عنوة !

١٣٣. فينبغي علينا إعادة النظر في المناهج التاريخية مرة أخرى وصياغتها بلسان الوطن المصري وليس من وجهة نظر المحتل الذي كسر إرادة أجدادنا ووطننا.. لأن مجرد اعتراف الأزهر بأن الجهاد في الإسلام دفاعي فقط وليس هجومي فهذا معناه أن اصطلاح "الفتح العربي" مخالف للدين شرعا، بل هو جريمة في حق الوطن والشعب.. وينبغي كذلك إعادة صياغة مناهج التربية الوطنية في الأزهر وتعليم أطفالنا أن أحمس كان وطنيا حينما طرد الهكسوس من مصر، بينما عمرو العاص لم يكن وطنيا حينما اتفق مع معاوية أبي سفيان على أن يغتصب حكم مصر وتصير له طعمة مدى الحياة.. وأن محمد علي باشا كان أجنبيا لكنه كان أكثر إخلاصا لمصر من عمرو العاص، فمحمد على أنشأ القناطر الخيرية بينما عمرو حفر ترعة لنهب أموال المصريين وتصديرها للسعودية، محمد على حكم مصر حتى وفاته وبعث نهضة علمية وأرسل البعثات للخارج وأسس جيشا مصريا وحفر الترع والقنوات وأسس مدرسة طب قصر العيني بينما عمرو نهب مصر وترك أموالا طائلة رفض أولاده أن يرثوها لأنها أموال حرام فقبلها معاوية أبي سفيان وقال نحن نقبلها بما فيها من سحت.. وأن سعد زغلول كان زعيما وطنيا أما عمرو العاص فكان محتلا للوطن، وأن مصطفى كامل كان زعيما وطنيا بينما عبد الله سعد أبي السرح لم يكن وطنيا وكل إنجازاته في مصر أن زاد حصيلة الخراج من ١٢

مليون إلى ١٤ مليون.. وأن طلعت حرب أبو الاقتصاد المصري أما عمرو العاص فهو ناهب الاقتصاد المصري...

١٣٤. فمن الضروري إعادة صياغة التاريخ بحيادية وميزان عدلٍ وعقل، بداية من أول مراحل الاضمحلال الحضاري لأجدادنا الفراعنة عند تعرضهم للاحتلال اليوناني، أو على الأقل عند توقفهم عن عملية التحنيط في سنة ٤٠٠ ميلاديا، لأن المصري في هذه المرحلة بدأ يفقد ثقته بذاته وإبداعه وفقد حريته كاملة وأصبح خاضعا خضوعا تاما، أو على الأقل لا يتمتع بالحقوق الإنسانية التي تضمن سلامة إرادته، وهو ما يعني استمرار غشاوة على العقل. وكثير من الثقافات دخلت مصر خلال حقبة الألفي عام حتى يومنا هذا بداية من الثقافة اليونانية ثم الرومانية ثم العربية ثم العثمانية ثم الفرنسية ثم الإنجليزية .. ودخلت المسيحية مصر في عهد الرومان، ودخل الإسلام مصر في عهد الرعب، وهذا شيء جيد لكن الطريقة التي دخل بها الإسلام كانت الخطأ تماما وعلى يد شعب ليس من شعوب الحضارات وإنما شعب قبلي، وفي ظل هذه الظروف ترسبت واستقرت كثير من المفاهيم في العقل الجمعي المصري، لم تكن اختياره قرين بحرية الإرادة الكاملة، لأن حرية الإرادة قرينة بحرية الوطن في المقام الأول، مع سعة في الظروف الاقتصادية التي بطبيعتها تؤدي لتفتح العقل، بينما الوطن عاش ٢٠٠٠ سنة متواصلة تحت الاحتلال، وهذا ما يعني أن الإرادة العامة لم تكن حرة خلال الفترة التي دخل فيها العرب مصر، ولذلك يجب علينا إعادة صياغة المفاهيم الدينية والوطنية بشأن الجهاد والفتح الإسلامي والخضوع للخلافة القرشية وغير ذلك من المفاهيم التي نشأت واستقرت خلال حقبة الألفي سنة احتلال.

١٣٥. لأن المفاهيم الصحيحة هي تلك التي أرساها أجدادنا الفراعنة خلال عصور الدولة القديمة والوسطى والحديثة، وحتى عصر احتلال اليونان فقط أو لنقل حتى توقف عملية التحنيط حيث كانت الإرادة الجمعية حرة في ظل وطن حر يملكونه ويتحكمون فيه بإرادة وطنية حرة، وقد بدأ انهيار الإرادة وخضوعها لاحتلالات متوالية عبر ٢٠٠٠ سنة لهذا يجب إعادة النظر في المفاهيم الدينية والسياسية والاجتماعية التي تم صياغتها خلال هذه الحقبة كاملة، لأن سقف الحريات لم يكن ملكا للمصريين... أما اليوم وقد امتلكوا سقف وطنهم إذا أرادوا استنبات جذور الحضارة المصرية من جديد، فالشعوب عادة ما تسعى إلى الاستقلال عن المحتل لوطنها، لكننا بولينا باحتلال عقلي سيطر على عقولنا آلاف السنين ورسب عليها غشاوة حاجبة للرؤية، والشعوب عندما تبدأ النهوض الحضاري

فإنها ترسي مفاهيم الوطنية أولا ومبادئ العمل الجماعي، وتسعى لاستنبات جذورها الأصلية الخاملة، كما سعى الإيرانيون لاستعادة لغتهم الوطنية، وسعى العثمانيون لاستعادة لغتهم الوطنية وطرد الثقافة العربية من بلادهم، أما الإسرائيليين فقد نبشوا القبور وأخرجوا لغتهم وأعادوا استنباتها من جديد... فحركات الاستعمار جميعها تبدأ بالمد الثقافي على حساب قوميات الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وفي المقابل حركات التحرر والنهوض الوطنية جميعها تبدأ بإحياء الثقافات الوطنية واستنبات اللغة الوطنية، والاحتفاء بالتراث الوطني لأنه يمثل عنصر الثقة بالذات.. وليس من المنطقي أن نظل متشبثين بالقومية العربية باعتبارها الأم المرضعة للثقافة والدين والتاريخ، فتاريخهم غير شريف، وثقافتهم أدبية عاجزة عن استنبات حضارة، ودينهم لوثوه بالمرويات، ولذلك لا بد أن نستخلص الدين الإسلامي باعتباره دين عالمي عابر للقوميات أي ننزع عنه ثوبه العربي الملوث بغبار الصحراء.. وكفانا منهم.

١٣٦. بل إن تغليف الدين الإسلامي بثوب القومية العربية هو الحائل الأكبر أمام انتشار الدين الإسلامي، لأننا لا يمكن أن نفرض على شعوب العالم (النرويج والبرتغاليين والأسبان والكنديين والطليان والروس..إلخ) التحدث بلغة العرب وتبني شعرهم وقوميتهم وتاريخهم الأموي والعباسي كي يكونوا مؤمنين حقا.. بل إن ما ساعد الدين المسيحي في الانتشار الواسع هذا هو تحلله من ارتباط بأي قومية، فمن يقرأ الإنجيل بالعربية أو السريانية أو الإنجليزية أو اليونانية أو القبطية سيتمكن من الحصول على ذات القيمة المعرفية كاملة، وليس مطلوبا منه أن يذهب ليتعلم السريانية ويدرس تاريخ وظروف وقومية وثقافة وعادات وشخصيات تاريخية وسياسية وأعراف شعب هو ليس منهم.. فالإنجيل قد تحلل من عنصر الشخصنة أو الشعبوية أو القومية المحددة، ولهذا انتشر بين جميع القوميات، إنما الإسلام ظل مرتبطا بالقومية العربية مما صعّب على الشعوب الأخرى هضمه. فقد كان من جراء عمليات التزوير العربي ودس المرويات ودس القومية العربية في الدين أن أصبحت كتب الدين الإسلامي تحمل مئات الآلاف من شخصيات القومية العربية (صحابة وتابعين وتابعي تابعين وخلفاء وولاة وحكام وفقهاء ومحدثين ورواة أحاديث ومدلسين ومصححين ومذاهب.... وأحداث من التاريخ العربي.. إلخ. كل ذلك أثقل من وطأة الحقيبة وزاد من تقييدها بالقومية العربية حتى صار من الصعب فصل الدين عن القومية العربية لأنه التصق بها التصاق الطفل بالأم، وهذا ما جعل من الصعب على قوميات غير عربية هضم الدين، لأنها بذلك أصبح مطلوبا منها هضم قومية

كاملة وتبنيها وليس فقط اعتناق دين، فالعرب هدموا الدين لصالح بناء قومية عربية. ولا بد أن نعترف بأن الإنجيل يتمتع بطابع التجرد القومي وينعم بطابع العولمة، ونعترف بأن الدين الإسلامي لم يتحلل من القومية العربية ولم يتمتع بالتجرد القومي ولم ينعم بطابع العولمة. فالعولمة تتطلب القدرة على التعامل مع الجميع بمرونة وسهولة وسرعة الوصول إليهم. فالإنسان الذي يتحدث لغات عديدة يمكنه التواصل مع جميع شعوب العالم، أما الشخص الذي يلتزم الجلباب واللغة العربية فلن يمكنه الوصول سوى إلى جاره بالكاد، وهذا ما حدث مع الدين تمسك بثوب القومية العربية ولغتها فانحصرت حركته في حدود الجيران الذين تحدثوا لغة العرب وارتدوا ثوب العرب.

١٣٧. علينا الانتباه وإعادة صياغة التاريخ بما يساهم في التأهيل النفسي للطفل ويعزز احترامه لذاته وتماسكه وتمسكه بوطنه وأصله.. بعيدا عن نعرة نشر الدين والجهاد في سبيل توصيل الدين إلينا نحن المصريين المسلمين، فالكثيرون يقولون لولا جهاد وبطولات عمرو ابن العاص والصحابة الذين جاهدوا معه لدخول مصر ما أصبحنا نحن مسلمين، وهذا خطأ؛ لأن السعودية على بعد خطوات من بلدنا وليست خلف المحيط، والإسلام الذي انتشر في إندونسيا آخر بلاد العالم ودون أي جيوش أو قتال أو نقطة دم واحدة .. كان من السهل جدا أن ينتشر ذات الدين في البلد المجاورة مصر بدون جيش عمرو ابن العاص وبدون فتح ولا فتوحات ولا قتل ولا قتال ولا سبي ولا خراج. بل إن الغريب أن الإسلام انتشر في إندونسيا أبعد البلاد عن مهبط الإسلام، انتشر الإسلام في الشعب الإندونيسي بنسبة ٩٠٪ ، والأغرب أنه في مصر وهي أقرب البلاد المجاورة الملاصقة للسعودية انتشر فيها الإسلام فقط بنسبة ٨٥٪ ... ! بما يؤكد أن بطولات عمرو العاص كانت وبالا على الدين والوطن معا.

١٣٨. إنما الكارثة في قناعتنا نحن بأمر الجهاد والفتح وأن الفتح العربي كان خيرا لنا ولولاه لما عرفنا دين الله الحق، وبرغم أن ذلك خطأ بيّن ومضاد لمبادئ هذا الدين الحنيف وتعليمات ووصايا نبينا الحبيب، وضد مبادئ التربية الوطنية الصحيحة فكريا ونفسيا، لكن أغلبية شعبنا يرفض الاعتراف بأن الفتح الإسلامي لمصر ما إلا كان احتلالا عربيا غرضه النهب والسلب والسبي؛ لسبب واحد، ليس هو الإقناع والاقتناع والصواب والخطأ أو مدى توافر الدليل والحجة والبيّنة، ولكن الرابطة النفسية الروحية داخلنا والتي تعلقت بمقدسات دينية تربينا عليها في طفولتنا وعشقنا حكاياتها وخيالاتها، ومن ضمنها عملية الفتح، فأذكر أحد أساتذتي كنت أتحدث معه حول هذا الأمر وأقنعته بوجهة نظري وأن الفتح ما كان إلا احتلال وعدوان وأن الفتوحات العربية ليست جهاد لأنه

باعتراف الأزهر أن الجهاد دفاعي فقط وأن معارك النبي لم تكن غزوات وإنما معارك دفاعية ولم تتجاوز حدود الدفاع الشرعي عن حق الوجود، وأن خالد ابن الوليد لم يكن مجاهدا في سبيل الله وإنما ارتكب جرائم حرب ضد الإنسانية..

١٣٩. وفي المجمل اقتنع أستاذي بوجهة نظري وبالأدلة القرآنية والعقلية بالمناظرة مع الوقائع التاريخية... لكنه طلب مني عدم تجريح هؤلاء الذين اعترف هو عن قناعة كاملة بأنهم خالفوا الدين وارتكبوا جرائم حرب ! قال لي؛ لقد عشت حياتي كلها أقدس هؤلاء وأجلهم واحترامهم وأقدسهم قدسية دينية، فلا تحاول أن تجرح مشاعري ولا تخدش أيقوناتي المقدسة، فاستغربت أنا من أمره، فقال: إذا افترضنا أن شخصا ارتكب جريمة قتل عمد مقترنة باغتصاب، فهل هناك شك أنه يستحق عقوبة الإعدام؟ قلت : لا ، فقال: حاول أنت أن تقنع والدته بأن تسلمه لك كي تعدمه أمام عينها... فنظرت له باستغراب، فقال: هذه هي الرابطة النفسية التي تربيت أنا عليها وعلى تقديس أيقونات تاريخية بقداسة دينية، هذه القداسة الروحية العاطفية تمنع الكثيرين من قبول الدليل والاعتراف بالحق كما رفضت الأم الاعتراف بشرعية تنفيذ عقوبة الإعدام بحق ابنها... رغم أنه في الواقع مجرم لكنها لن تعترف بذلك حفاظا على مشاعرها... وهكذا نحن نرفض الاعتراف بأن دخول العرب وطننا مصر كان احتلالا غير مشروع رغم قناعتنا بأن الجهاد في الإسلام دفاعي فقط وفي حدود الدفاع الشرعي.

١٤٠.غير أن فكرة التنازل عن الوطن لصالح الدين، هذه فكرة خاطئة (العرب أقنعونا بأننا يجب أن نسلم وطننا لهم من أجل الدين، واستمر الأزهر ممثلا لهم في القاهرة يقنع الشعب المصري بأن دخول عمرو العاص واحتلاله وطننا كان مشروعا من أجل الدين وعلينا تسليم وطننا لكل من يتحدث باسم الدين) وهذا خطأ فادح لأن النبي ص وصحابته عندما تركوا وطنهم مكة وهاجروا من أجل الحفاظ على الدين، لم يتنازلوا عن وطنهم ولم يضحوا بالوطن وإنما هربوا من ظلم سكانه واستعدوا في المدينة وعادوا إلى وطنهم مكة يوم الفتح. فلم تحمل هجرة الرسول أي معنى من معاني التنازل عن الوطن لصالح الدين وإنما الهروب من الموت والإيذاء والاستضعاف ثم العودة بقوة. بينما نحن في مدارسنا نعلم أطفالنا كيف يتنازلون عن وطنهم وكيف كان المصريين مذنبين لأنهم قاموا بثورات ضد الحكم العربي، ولهذا يتجاهل المؤرخون وخبراء التربية والتعليم هذه الثورات، ويهاجمونها بشدة، وينكرون حدوثها، ولا يمكن أن نجد لها أثر في كتب التاريخ المدرسية مع أن المؤرخين العرب

المسلمين أنفسهم ذكروها وتحدثوا فيها كثيرا جدا وتفصيلا، مثل المقريزي والبلاذري وابن عبد الحكم وابن أياس وغيرهم، لكننا نتجاهلها ونعتبرها غير وطنية !

١٤١. ذلك لمجرد أن من قاموا بها كانوا ضد الحكم العربي! وكأننا خلعنا ثوبنا المصري وارتدينا الثوب العربي وتحدثنا بلسانهم ومن وجهة نظرهم عن أجدادنا.. وإذا ذكر خبراء التربية والتعليم تلك الثورات فيعتبرونها طائفية (من مسيحيين ضد مسلمين)، مع أنها في الواقع لم تكن دينية وإلا لكانت بذلك دليل على وقوع إكراه ديني مباشر على المصريين، لكنها لم تكن طائفية ولا لأسباب دينية وإنما جميعها بلا استثناء كانت لأسباب اقتصادية سياسية، هذه الأسباب عانى منها أغلبية المصريين إبان الحكم العربي، والأغلبية هم من يمثلون الوطن ولا بد من اعتبار وجهة نظرهم هي وجهة نظر الوطن.. لكن هذا الكلام الذي نكتبه الآن سيثير عاصفة وجدل وهجوم حاد على اعتبار أنه يتبنى وجهة نظر المسيحيين في المصر الآن، لكن في الواقع هو يتبنى وجهة نظر الوطن المصري أيام دخول العرب، يتبنى وجهة نظر أغلبية الشعب المصري وهم أجدادنا وأسلافنا ونبتت عظامنا من عظامهم، فكيف نتنكر لحقوقهم!، غير أن دخول العرب بلاد الشعوب المجاورة لهم بقوة الجيوش المحاربة كان خطأ وجريمة في حق هذه الشعوب، والغريب أن العرب نسبوا جريمتهم للدين، وأسموها الفتوحات الإسلامية، كما المسيحيين الأوروبيين الذين هاجموا شعوب الشرق مطلع القرن الثاني والثالث عشر لمطامع اقتصادية وتوسعية استعمارية، لكنهم فعلوا مثل العرب، منحوها قداسة دينية فأطلقوا عليها اصطلاح " الحملات الصليبية" بينما هي كانت غارات استعمارية.

١٤٢. وما زلنا نستشعر الحنين والمجد تجاه عصر "الفتح العربي لمصر" مع أنه كان جريمة انتهاك لحدود الوطن وسيادته وكرامته وإرادته، لكن ذلك كله نابع من استمرار انكسار الإرادة المصرية تحت سطوة الحكم العربي، واستمرار نزعة السيادة العربية الممتدة في عقل الأجيال على أثر متلازمة ستوكهولم العربية، ونابع من إيمان المصريين بعقيدة العرب وخضوعهم لسطوة وسلطان العرب، وهو ما تمثل في متلازمة الاحتلال العربي التي أصابت المصريين على مدار ألف وأربعمائة عام وغيرهم من الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية إبان حقبة الغزو.. وما زلنا ندرس تاريخهم باعتباره فتحا ! فهل مجرد أننا استفدنا من الاحتلال العربي أن عرفنا دينهم الجميل، فهل أن ذلك يجعل احتلالهم فتحا؟ فهل مجرد امتلاك السعوديين اليوم للحرمين الشريفين يجعلهم أولياء الله الصالحين؟ لا نعتقد ذلك... فقط أذكر أن أحد السعوديين قال لي يوما ما أنه يتمنى استبدال الحرمين في

السعودية بشارع الهرم في مصر .. كونه مصفوف بملاءِ ليلية ومفتوحٍ للسياحة... وهل لو كان الرومان هم من جلبوا إلينا الدين المسيحي كنا اعتبرنا احتلالهم لوطننا فتحا رومانيا؟ والحملة العلمية المعرفية التي جاء بها الفرنسيون لمصر مع حملة نابليون لا تجعل من دخول الفرنسيين مصر فتحا فرنسيا بأي حال، ولا تجعل من نابليون بطلا قوميا لأن العلم والمعرفة لا يستلزم احتلال الأوطان...

١٤٣. إنما قناعتنا بفكرة مشروعية الدخول العربي عسكريا بحجة نشر الدين، لهي ذاتها مبررات العرب لاحتلال الشعوب بحجة نشر الدين، أي أننا مازلنا رهينة للعرب وما زلنا مقتنعين بمبرراتهم ونؤمن بأفكارهم كما يؤمن الرهينة بأفكار ومبادئ المعتدي عليه الخاطف وفقا لملازمة ستوكهولم، وما زلنا نؤمن داخليا بأننا يجب أن نسلم أوطاننا لمن يتحدث باسم الدين كما تسلمها عمرو ابن العاص لأنه تحدث باسم الدين، وأعطيناه مشروعية احتلال وطننا وأطلقنا عليه "فتحا عربيا أو إسلاميا "، فالمتلازمة النفسية المعرفية لا زالت تولد أفكارا متشعبة مثل مستعمرات البكتيريا تحمل ذات الملامح النفسية وراثيا.. وهي ذاتها القناعة التي دفعت أغلبية الشعب المصري عقب نجاح ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ إلى انتخاب تيارات تتحدث باسم الدين لتحكم الوطن، وهم أصلا لا يؤمنون بفكرة الوطن، لأن الشعب المصري ما زال على قناعة قديمة بمشروعية التضحية بالوطن من أجل الدين، هذه القناعة نابعة من احتفالنا بعمرو ابن العاص واعتباره بطلا قوميا رغم أنه أجنبي احتل وطننا وحكمه عنوة وقتل من أجدادنا وحصل منهم الضرائب عنوة، مع أن الدين لا يستلزم التضحية بالوطن أبدا، لكن آثار المتلازمة النفسية ما زالت مقيدة ومكبلة للعقول، والقناعة ما زالت مترسبة في النفوس بصيغتيها الفكرية والعاطفية حتى صارت قيدا محكما على العقل، وصار كل من يخالفها يعد مهاجما للدين! فالعقول التي تربت في طفولتها على مناهج تربوية خاطئة ولم تستطع هضم محتوياتها المعرفية المسمومة، بل واعتبرتها مسلمات ثابتة ومبادئ فكرية وعقائدية مقدسة، لا يمكنها أن تتحرر بسهولة... هذه المناهج التربوية المسمومة والتي تخلق إشكالية بين الدين والوطن وتجعل أحدهما بديلا عن الآخر وتبرر مشروعية احتلال الوطن باسم الدين، فطالما استحب خبراء التربية والتعليم تسمية الاحتلال العربي لمصر فتحا عربيا، فلا عجب عندما يخرج أغلبية الشعب بعد ثورة ٢٥ يناير، وهي ثورة تحررية سياسية مدنية يخرج الشعب بعدها لاختيار شخصيات الحكم من أولائك الذين لا يؤمنون بفكرة الوطن أصلا، ويعتبرون الوطن زكاة وأضحية من أجل الدين، ويعبثون بمقدرات الشعب لتحقيق مآربهم الأخرى، كما كان العرب عقب الفتح صاروا يعبثون

بمقدرات الوطن ويصدرون الأموال والثروات إلى شبه الجزيرة العربية عبر قناة الخليج بين الفسطاط والسويس، وكله باسم الدين والدين منه براء.

١٤٤. غير أن إقناع الطفل بمشروعية دخول الجيش العربي لمصر من أجل الدين هو إقناع بمشروعية الإكراه على الدين ومشروعية استخدام القوة ضد الوطن، وشرعية انتهاك سيادة الوطن من أجل الدين، والدين لا إكراه فيه ولا مبرر لاستخدام القوة إلا عند الدفاع. بل إن مجرد اقتران دخول العرب بالسيطرة على الحكم لهو دليل على انتهاك السيادة الوطنية وانتهاك الإرادة الشعبية ووقوع إكراه على الإرادة الجمعية، فلا يمكن أن ينعقد عقد بإرادة حرة بينما أحد أطرافه يمارس نوعا من الضغط السياسي أو الاقتصادي على الآخر، ما يجعله يذعن لأوامره وإملاءاته ولو بطريق غير مباشر بأن يضعه فقط في ظرف الإذعان.. ولا يمكن التبرير بأن العرب لم يفرضوا على المصريين دينهم عنوة لأن مجرد احتلال وطنهم هو إكراه للمصرين على سياستهم وسيادتهم وثقافتهم ولغتهم وعاداتهم، لأن أمر الدين لا ينحصر فقط في مسألة ترديد الشهادتين أو الاعتراف بهما تحت نصل السيف، وإنما مسألة الإكراه أوسع من ذلك بكثير، فهي متعلقة بظروف معنوية ومادية واجتماعية وحياتية كاملة منها التحكم في عناصر الأمن والأمان، والتحكم في السياسة والإدارة والتنظيم والحركة والتعبئة والتحكم في السياسة الاقتصادية، والتحكم في عناصر القوة العسكرية، وعنصر استعراض القوة وهو أخطر ما في الأمر لأن أثره يستبق الحدث، وقد كانت القوة العسكرية الوحيدة على أرض مصر متمثلة في الفسطاط وجميع العسكريين بها عرب ليس بينهم مصري واحد...

١٤٥. فإذا كان الجيش الذي يحرس مصر يتشكل من جنس غير مصري ويأتمر بأمر حاكم غير مصري، وفي لحظة غضب سيكون بإمكانه أن يحصد رقاب جميع المصريين، فهو سيف مُسلط ولو كان ساكنا في غمده، فمن الطبيعي أن يفقد المواطن المصري ثقته الذاتية بنفسه وقناعته ويفقد طمأنينته الداخلية وتتفتت إرادته وعزيمته، فكيف نقول أنه تمتع بحرية إرادية كاملة على اختيار الثقافة العربية وهو يعيش حياته كاملة في ظرف سياسي قمعي قهري؟ فالحاكم العربي لم يكن يستطلع رأي المصريين في مقدار الخراج الذي يفرضه عليهم كل عام، ويحرك الجيوش إذا تعثر مصري في الدفع! بل إن عمرو ابن العاص رفض حتى أن يضع الحد الأقصى لهذا الخراج مخافة أن يلزم نفسه بكلمة، وترك الأمر مفتوحا بصلاحيات كاملة له! وأمر عمرو بحفر ترعة من الفسطاط إلى السويس لتنقل خراج مصر إلى السعودية ولم يأمر بحفر ترعة تسهل على الفلاحين المصريين زراعة

وري أرضهم ومحاصيلهم.. هذا إذا تغاضينا عن عدد الثورات التي قام بها المصريون ضد الحكم العربي في مصر، برغم أن هؤلاء المصريين الذين قاموا بثورات وطنية هم أجدادنا ونحن تعلمنا من العرب "البر بالوالدين حتى وإن كانوا مشركين" برغم أجدادنا المصريين الأقباط لم يكونوا مشركين، لكن عندما يأتي برنا ضد مصالح العرب في مصر يصبح أجدادنا وكأنهم أعداء ! أو لا قيمة لصرخاتهم مهما عانوا من الظلم العربي!.. كل ذلك ليس لأننا متنكرون جاحدون لأهلنا وأجدادنا ولكن معذورون لأننا جميعا مصابين بنوبة رُهابٍ عربي طويلة المدى ورثت في نفوسنا متلازمة ستوكهولم العربية، والتي جعلتنا نصف العرب بأنهم أبطال حتى وإن أجرموا في حقنا !.

١٤٦. نعتقد بقوة أنه قد آن الأوان لتأخذ الأمور مسارها الصحيح، ويدرس الطلاب حقبة الوجود العربي في مصر فقط وليس تاريخ الدولة العباسية والأموية التي كانت تتحدث اللغة العربية بينما نحن نتحدث لغتنا الفرعونية، يدرس أطفالنا تاريخ الوجود العربي في مصر فقط باعتبارها حقبة احتلال عربي لأرض الوطن المصري العزيز، وتاريخ الإسلام في مصر لا يبدأ بتاريخ احتلال العرب مصر وإنما يبدأ بعد حملة الخليفة العباسي المأمون الذي جاء على رأس جيشه لقمع ثورة المصريين، وكان معه مستشاره الذي ترجم له حوارا مع المصريين عرف منه أن بعض القبائل العربية الموجودة في مصر متواطئة مع الأمويين ضده، وبعدها قام بفصل العرب من دواوين الحكومة لتواطئهم مع بني أمية ضد حكم العباسيين ووضع مكانهم أتراك وجنسيات أخرى، ما دفع هؤلاء العرب المفصولين من وظائفهم بالفسطاط إلى التشرد في الشوارع التوسل إلى المصريين والاندماج بينهم والانشغال بحرفهم وصنائعهم لكسب قوتهم بعد أن كسر المأمون شوكتهم في مصر وقطع مصادر الدخل عنهم، هذا الاندماج هو الذي يبدأ عنده انتشار اللغة العربية والدين الإسلامي في مصر.

١٤٧. وكما نلاحظ وضع مناهج التاريخ العربي كمرحلة في منتصف التاريخ المصري القديم والحديث، وهذه المرحلة يتم تدريسها فقط باعتبارها توطئة وتمهيدا لمعرفة الثقافة الدينية، باعتبار تاريخ العرب هو تاريخ للإسلام، وأن القومية العربية هي مصدر الدين الإسلامي. لكن ذلك خطأ، لأن الدين الإسلامي جاء من عند الله وليس نتاج القومية العربية، وليس نتاج معرفي للثقافة والحضارة العربية، إنما هو نزل من عند الله علاجا لفسادهم، ولأن تاريخ الإسلام يبدأ ببعثة النبي محمد وينتهي بخطبة الوداع، وينحصر فقط في المواقف والأحداث التي لها صلة مباشرة بشخص الني محمد، وما عدا ذلك فهو محض تاريخ وقومية المجتمع العربي السعودي، وليس فيها من الثقافة ما يخدم الإسلام في

شيء ولا يمهد له ولا يجسد مبادئه، حتى مرحلة التاريخ العربي بعد رحيل النبي ليس فيها من الإسلام شيء، وإنما هي حقب تاريخية تمثل الشعب العربي ذاته وشبه الجزيرة، ولم تتجسد فيها قيم الإسلام ومبادئه على أي حال، لا العباسية ولا الأموية ولا ما قبلها ولا ما بعدها. ومن الضروري عدم تسميته بالتاريخ الإسلامي لأنه يمثل العرب السعوديين وأجدادهم وليس الإسلام، ولأنه حمل من الإساءة إلى الإسلام أكثر مما حمل من فائدة له، بل هو فقط تاريخ شعب عربي مسلم، وهذا التاريخ وحضارته تمثل الشعب لا الدين. ولذلك من الضروري الفصل بين تاريخ المصريين وقوميتهم المتصلة عبر التاريخ وبين تاريخ العرب القميء، وبين الإسلام كمنهج ديني نستورده ونستخلصه نقيا من ثقافة العرب. فعندما نستورد ثقافة يجب أن تكون من شعب أرقي منا، لا أن يكون شعبا بدويا متوحشا، وإذا وجدنا الإسلام في شبه الجزيرة فيجب أن ننتقي منهجه بحذرٍ شديد ونعتصره مما انتقل إليه أو علق به من ثقافة هذا الشعب، نستورده وننتقيه بعقولنا وبإرادتنا نحن لا أن نتركهم ينفسون ثقافتهم في وجوهنا عنوة بفمهم الأبخر.. ولا أن نأخذ منهج الدين مختلطا بمروياتهم وعاداتهم وأعرافهم، ثم نضيف عليه تاريخهم القرشي والأموي والعباسي الدموي، ثم نضيف عليه خلفيتهم الثقافية من الشعر الجاهلي ليصبح دينا جاهليا بدويا.

١٤٨. فلا بد أن نأخذ الإسلام صافيا كما نزل من السماء، ليتعرف الطفل المصري على الإسلام نظيفا كزهرة اللوتس، طاهرا كقلوب المصريين.. بعيدا عن مؤثرات البخر العربي القرشي، حتى لا يخرج الدين بطعم الصحراء العربية في الماضي، فيظل محض نوستالجيا وحنين إلى هذا الماضي. لأن النفوس الهادئة المليئة بالثقة والحب والسلام والخير هي التي تنتج وتبدع وتتقدم، أما النفوس المشحونة بالخوف والغضب والكره لأصحاب الديانات الأخرى، فهذه لن تتقدم بل إنها تتراجع وتنحدر فكريا وأخلاقيا واقتصاديا طول الوقت حتى تتمنى الموت، وغالبا ما يكون هذا الميل إلى الانتحار بمبرر ديني هو الشهادة ولقاء الله. فعلينا أن نتخلص أولا من الآثار الفكرية والثقافية للاحتلال العربي الذي استمر خمسمائة عامٍ على المستوى السياسي واستمر ألف وأربعمائة على المستوى الثقافي والفكري. ولكي نتقدم فلا بد أن ننفض غبار الاحتلال العربي لكي تنهض ثقتنا الذاتية وثقافتنا وقوميتنا التي تحمل ملامحنا وخصوصيتنا المصرية العميقة، لا قومية الشعب القرشي ولا ثقافة الشعوب الغريبة.

١٤٩. والأمر ليس مقارنة بين الفراعنة وقريش باعتبارهم أجداد الشعبين متعاصرين، لكن فقط بحث عما يلائم النسيج الذهني القبطي من الغذاء الثقافي، فالنسيج الذهني المصري يختص بسمات مختلفة

عن النسيج القرشي، وله طريقة وآلية ذهنية مختلفة في التفكير ، وبالتالي فمن غير المجدي تغذية هذا النسيج الفرعوني في الحاضر بمفرزات النسيج القرشي في الماضي، لأن ذلك لن يثمر أي قيمة معرفية، بل فقط تقلصات وتلبك معوي، وسيشكل عقبة كؤد مانعة من التصورات المستقبلية. فيجب علينا أن ننتقي غذاء أطفالنا بعناية لا أن ندعهم يأكلون النفايات الثقافية التي تصيب عقولهم بانفصام فكري أبدي، فصام عقلي بسبب اختلاف المادة الخام الثقافية العربية القديمة عن آلية عمل النسيج الذهني المصري حتى لا يتعسر الهضم ويتعطل الإنتاج المعرفي. خاصة عند الحديث عن ظاهرة النوستالجيا، وهي خاصية نفسية ومكون رئيس من مكونات كل عقل، وتتمثل في ألم الشوق والحنين الذي ينتابنا من حين لآخر إلى الماضي، فعلينا حسن توظيف ثروتنا الثقافية بما يخدم مجتمعنا لا ما يدمره، أي بدراسة التاريخ الفرعوني وهو مكون رئيس من مكونات القومية المصرية فتتفرغ فيه طاقة النوستالجيا، بدلا من أن تكون النوستالجيا في عقول الشباب حنين إلى الماضي العربي القديم المليء بالعنف والحروب والشظف والجهل والفقر، أن تكون النوستالجيا بطعم الماضي الفرعوني فهو أرقى ومليء بالسلام والحب والعلم.

١٥٠. والإشكالية الكبرى أن المفكرين عندما يتناولون موضوع دخول العرب مصر يتوقفون عند حدود واقعة دخول جيش عمرو العاص على اعتبار أن حروب الدخول كانت مع الرومان ووقف أغلبية المصريين متفرجين على الفريقين، لكن في الواقع فإن أثر المجتمع العربي على المجتمع المصري لم ينشأ من مرحلة دخول الجيوش ولا بالحروب التي وقعت بين العرب والروم، أو الوعود البراقة المزيفة بالأمان على (النفس والمال) التي أعطاها عمرو للمصريين، ولكن الأثر الفعلي للوجود العربي في مصر يرتكز على فترة الحكم العربي لمصر التي طالت ٦٠٠ عام تخضع مباشرة لحكم الخليفة العربي وتقمع ثوراتها كل عام في موسم الحصاد تحديدا، وتصب إنتاجها الاقتصادي عنوة في خزانته المالية وتنهل ثقافتها من خزانته المعرفية كي تتساير معه، ويتأقلم المصريون على حياتهم وعاداتهم وأعرافهم في ظل سطوة عوامل "السيادة العربية على المجتمع المصري"..

١٥١. يقول المفكر الفرنسي Étienne de La Boétie في كتابه "العبودية الطوعية": «عندما يتعرض بلد ما لقمع طويل تنشأ أجيال من الناس لا تحتاج إلى الحرية وتتواءم مع الاستبداد، ويظهر فيه ما يمكن أن نسميه المواطن المستقر». وهذا ما يعني أن فترة الحكم العربي التي امتدت ستمائة عام فعلية تحت سيادة الخليفة العربي أتت آثارها على المستوى النفسي والعقلي الجمعي في المدى البعيد

جدا، ما أوصلنا إلى مرحلة " عبودية العرب"، الذي أنتجت مواطنا مصريا مستقرا خاضعا بالوراثة للعقلية العربية والثقافة العربية، مصابا بمتلازمة الاحتلال العربي، يتوارثها جيل بعد الآخر ويدفعون أبناءهم لدراسة هذا في الأزهر، ولم يعد العقل الجمعي قادرا على الإفاقة من هذه الغيبوبة حتى رغم سقوط دولة العرب وزوال الاحتلال العربي، صارت الأجيال تنجب أجيال مصابة بمتلازمة الاحتلال العربي لا تقوى على رفع الغشاوة عن العقل، بعد أن أصبح تاريخ العرب دينا للشعوب، فأصبح التمرد على التاريخ العربي خروجا على الدين يستوجب إقامة الحد ! برغم أنه لم يكفر بالدين ولكنه " كفر بالتاريخ العربي واعتبره مماثلا لتاريخ الهكسوس "

١٥٢. هكذا تكونت رابطة نفسية ذات ديمومة تقوم على " الولاء للعرب" وهي مشتقة من التسمية القديمة " الموالي " أي الذين اعتنقوا الإسلام من أبناء الشعوب التي دخلها العرب ومارسوا سلطاتهم السياسية والعسكرية فيها رغما عن شعوبها الذين لم يكن بيدهم حل سوى خلق نوع من الوفاق مع العرب داخل نفوسهم كي تهدأ ثورتهم ويتلاشى انزعاجهم النفسي ليستطيعوا إكمال حياتهم بسلام. هذه القناعة النفسية الذاتية القائمة على الولاء أو الموالاة للعرب لم يكن ممكنا العيش بسلام تحت الحكم العربي بدونها، ولما استمر الحكم العربي حقب طويلة من الزمن تتابعت خلالها أجيال نشأت منذ ولادتها وعاشت طفولتها على هذا الولاء الإجباري للعرب، هذه الأجيال بالوراثة تكونت لديها عقيدة مرهونة بالعقلية العربية، صار ملازما لها وقرينا بحياتها أن تتقمص الشخصية العربية كي تعيش بسلام، وتؤمن بأفكار العرب وثقافتهم كي تتعايش معهم، ومن هنا غرست متلازمة الاحتلال العربي جذورها وأظافرها في عمق التربة حتى غاصت أكثر من قواعد الهرم الأكبر.

١٥٣. فلماذا يقف الدارسون عند حدود القشرة في شهر أو شهرين هي حروب الفتح ويتغاضون عن ستمائة عام هي موطئ الأثر الفعلي للعربي على المصري؟ ولماذا لا ندرس تاريخ مصر وأحوال الشعب المصري على مدار حقبة الحكم العربي؟ فخبراء التربية والتعليم يطعموننا أفكارهم المسمومة بسهام العرب والمريضة بعيب خلقي هو عيب "الإرادة المسلوبة" فهم ذكروا لنا فقط حقبة الفتح ودخول العرب مصر باعتبارها جهاد مقدس وأن العرب الفاتحين كانوا أبطال وصحابة ومجاهدين من المبشرين بالجنة وأنه علينا أن نسلم وطننا لهؤلاء المبشرين ومن يعترض فيكون هو المذنب بطبيعة الحال.. يطعموننا حقبة الفتح العربي متحدثين عن العرب بصيغة الفاعل وعن الوطن بصيغة المفعول به، وعن العرب بصيغة المنتصر المسيطر وعن المصريين بصيغة الخاضع، عن العرب بصيغة الحاضر وعن

المصريين بصيغة الغائب.. غير أن هؤلاء الخبراء التربويين لا يستمرون في تعليمنا أحوال الشعب المصري تحت الحكم العربي بعد مرحلة الدخول، فقد توالى الحكام العرب على مصر بالتسلسل من قبائل عربية بداية من عمرو العاص وعبد الله سعد أبي السرح والأشتر النخعي وابن الكلبي وابن المهلبي وهكذا إلى أن جاء أحمد ابن طولون واستقل بحكم مصر وجعله وراثيا في أبنائه وقطع خراج مصر عن الخليفة العباسي، ولم يكن المصريون يتحدثون اللغة العربية في هذه الحقبة، ومع أنه لم يكن مصري لكنه استقل بمصر واعتبرها مملكة له، لكن المعلمين اختصروا فترة الحكم العربي لمصر في مرحلة الدخول وبناء مخيم الفسطاط، ثم ينتقلون مباشرة إلى فترة حكم أحمد ابن طولون ويتجاهلون تماما حقبة طويلة من عمر الوطن وأجيال عديدة من أجدادنا، ذلك لأنهم عانوا كثيرا تحت وطأة الحكم العربي لأن العرب لم يكونوا بشرا أسوياء في حكم مصر، ولذلك درسنا تاريخ العباسيين والأمويين في دمشق وبغداد والأندلس ولم ندرس تاريخ وطننا، حتى أسماء الحكام العرب في مصر لم نسمع عنها في كتبنا التعليمية، تجاهلها معلمونا لأنها فعليا وحرفيا تمثل الكاريزما العربية ولا تمثل الدين الإسلامي.

١٥٤. فلا بد هنا أن ندرس طبيعة الحكم العربي الذي كان قمعيا نفعيا استغلاليا بالدرجة الأولى، ولا بد أن نعترف بأن العرب استنزفوا مواردنا الاقتصادية مقابل سقايتنا من ثقافتهم، ويا ليتها كانت ثقافة دينية خالصة، بل إنها كانت دينا ملوثا بثقافتهم المتوحشة، ولا بد أن ندرس ملامح الشخصية العربية وملامح وظروف الشخصية المصرية وأثر اندماج النسيجين العقليين في بيئة واحدة وماذا كانت سطوة أحدهما على الآخر وما النتيجة.

١٥٥. إن الحديث عن القومية العربية في ظل تفتت القومية المصرية لهو نوع من الخبل العقلي، لأننا كي نستفيد من نظرية القومية العربية أو "الوطن العربي الواحد" ذا النسيج الاجتماعي الواحد، واللغة الواحدة والثقافة الواحدة، والتاريخ المشترك..إلخ، لابد أن تثمر أولا أغصان القومية المصرية بالداخل وتزدهر ثم بعد ذلك نبدأ الاستزادة من القومية العربية ونتعاون مع شعوب الجوار، لا أن ننادي بقومية عربية ونحن نعاني شرخ داخلي في جسد الوطن وتفتت وتمزق للنسيج الاجتماعي علي خلفية اختلاف الدين بين مسلمين ينتمون إلى شبه الجزيرة باعتبارها مصدر اللغة والدين والثقافة، ومسيحيين حانقين على اللغة والدين الذي قزم أعدادهم في مصر وتسبب في احتلال بلادهم فترة قربت على الألف عام. فلا بد أن يندمل هذا الشرخ الداخلي أولا ثم نتحدث بعد ذلك عن قومية عربية،

ولا بد أن تتطهر قناعتنا وعقيدتنا من ثقافة العرب، فقط الدين الإسلامي خاليا من آثار الثقافة والتاريخ العربي القميء، كي ننعم بسلام داخلي مع النفس والوطن أولا ثم ننعم بوحدة وطنية مع دول الجوار.

١٥٦. فنتيجة خضوع المصريين للحكم العربي القمعي كانت أن استمر خضوع النفوس المصرية حتى قبلته وشربته وصار طعما وغذاء، ثم التصق العقل وأصبح جزءا من الجسد العربي المترمم، وتبنى ثقافته وفكره وتراثه وفكر بعقله الأدبي وتصرف بسلوكه المتوحش. ومن هنا تكونت متلازمة الاحتلال العربي لدى جميع الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية، الشام والعراق وفارس ومصر وغيرها من الشعوب لم يجرؤ أبناءها على القول بأن دخول العرب بلادهم كان احتلالا وهجوما عدوانيا، وبعيدا عن مصر التي دخلها العرب بالحرب مع الرومان، فإن أبناء الشعوب الأخرى التي دخلها العرب مباشرة بالحرب مع أبنائها وقتلهم وسحلهم وذبحهم بحجة نشر الدين، مثلما حدث في بلاد فارس، ما زال أبناء هذه الشعوب يعانون من متلازمة الاحتلال العربي وسيستمرون مئات أخرى من السنين على هذه الحال. ونتيجة اندماج الثقافة المصرية في الثقافة العربية واضطرار العقل المصري للتفكير بالعقلية العربية بعد أن تغذى على ثقافتها، واستمرار تدريس التاريخ العربي في مدارسنا بصبغة دينية ومسميات ومصطلحات دينية، نشأت لدينا نوستالجيا المجتمع العربي التي تتمثل في الشوق إلى حياة البادية العربية التي ارتسمت في مخيلاتنا بصبغة دينية مثالية، حتى صرنا نشعر وكأن البيئة العربية القديمة أقرب إلى نفوسنا من البيئة المصرية الفرعونية المدنية الحضارية، مع أن أجسادنا نبتت في البيئة المصرية، لكن عقولنا هجرتها وسكنت في البيئة العربية.

١٥٧. فلماذا ندرس تاريخ الأمويين والعباسيين باعتباره تاريخنا في حين أننا لم نكن نتحدث اللغة العربية خلال العصر العباسي حتى أن الخليفة المأمون حينما جاء بجيشه ليقمع ثورة المصريين أتى بمترجم معه كي يستطيع التواصل مع المصريين، وكان أغلب المصريين في هذا الوقت يتعاملون مع العرب باعتبارهم احتلال، فكيف انقلبت الحال ليصبح تاريخ هذا المحتل الأجنبي تاريخنا وندرسه في مدارسنا؟ مع أن التاريخ العربي تاريخ مشوه للعقول ولا يمكن أن يبني عقلية طموحة لأنه ملئ بالمذابح السياسية المناورات والمناوءات والدسائس والفتن ولا شيء آخر سوى مصطلح " خليفة " و أمير مؤمنين "..إلخ، دون أن يكون لذلك جوهر فعلي لأن العرب لا يؤتمنون على دين.. قال قاضي القضاة عبد الجبار : "... أن معاوية وأشباهه من بني أمية قد عادوا أمير المؤمنين وبني هاشم، وغلبوهم، واستولوا

على ملك الدنيا، وعظموا نفوسهم بكل ما قدروا عليه... وتأمل ما كان لمعاوية من احتيالاته في التوصل إلى الملك، في إطعام عمرو بن العاص مصر...إلخ (قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني ـ تثبيت دلائل النبوة، ٣٧٤ـ٢/٣٧٥).

١٥٨. هذه المتلازمة النفسية، متلازمة الاحتلال العربي التي نتجت عن وقائع تاريخية خلال حقبة الفتوحات العربية التي اجتاحت الأمم والشعوب بالعنف والقتل والترهيب باسم الدين، وجاءت وطأتها شديدة على الشعوب نفسيا ما جعلها تضعها في درجة من قدسية الدين ذاته، مع أنها في الأصل وقائع غير إنسانية، وهي جرائم حربٍ ضد الإنسانية، هذه الوقائع هي الآن العقبة الكبرى أمام انتشار الدين، ولكي نكون واقعيين وصرحين مع أنفسنا، فالدين المسيحي هو الأسرع انتشارا في العالم برغم ما به من أخطاء ومغالطات مقارنة بكمال الدين الإسلامي، فنحن نجد حركة الانتقال من الدين المسيحي إلى الإسلام أكثر من الانتقال من الإسلام إلى المسيحية، وهذا بالطبع يؤكد كمال الإسلام من حيث منهجية الرسالة، لكن حركة انتشار الإسلام في العالم أبطأ مقارنة بحركة انتشار المسيحية، إذ أن ثلثي العالم الآن يدين بالمسيحية، بينما يعتنق الإسلام مليار إنسان فقط من سبعة مليار نسمة هم سكان العالم، وذلك فقط بسبب العقبات التي وضعها التاريخ والفقه أمام انتشار الدين وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا، وجميعها مصدرها ومنبعها تاريخ العرب وليس الدين ذاته.

١٥٩. فالبشرية لم تنتفع من الثقافة العربية سوى بالإسلام دينا حنيفا، فهو خير أنواع المعرفة الإنسانية، لكنه جاء في أسوأ أنواع المجتمعات، وهذه حكمة أرادها الله، لكن لا ينبغي أن ننس أن الدين لا يعتبر ثقافة عربية لأنه ليس من نتاج العقلية العربية ولا من تراث الحضارة العربية، وهو يختلف جذريا عن الثقافة العربية لأن الثقافة العربية أدبية، وإنما هو من هدي السماء، يتلاءم مع جميع العقول، وليس مادة معرفية أدبية ولا علمية بحتة، إنما هو نظام معرفي علمي جاء بأسلوب علمي متأدب ليناسب جميع العقول وجميع الشعوب، العلمية منها والأدبية أيضا.

١٦٠. ومن أخطر الآثار النفسية التي رسبتها متلازمة الاحتلال العربي هي الرابطة النفسية المتمثلة في صعوبة التخلص من هذه الآثار، لأنها صارت مثل الإدمان الفعلي وعلى من يفكر في الإقلاع من هذا الإدمان أن يستعد أولا لأعراض انسحاب النيكوتين وأعراض الإقلاع عن الإدمان وليس مجرد اعترافه بأن الإدمان مُضرّ بالصحة؛ لأن مشاعرنا الروحية بأن الفتوحات جهاد وأن خالد ابن الوليد بطل

وصحابي جاهد في سبيل الدين وأن عمرو ابن العاص بطلا قوميا وصل إلينا ديننا على يده، هذه التصورات الروحية أقوى من قدرتنا واستعدادنا على تقييمها بالميزان العقلي، فهناك تصورات تسكون عقولنا بالإدمان وليس بالاقتناع، فالأمر ليس متعلقا بالعقل ولكن بالحب وإدمان هذا الحب.. هذه القناعات ليست علمية قائمة على الدليل والحجة والبرهان وإنما مغروسة في نفوسنا بعمق روحاني، فهم الآباء الروحيين ونحن لا نريد أن نسمع عنهم إلا خيرا، حتى وإن كانت لهم أخطاء فلا نريد معرفتها، فقط لأننا نحبهم وهم آباؤنا الروحيين.. بالضبط كمن يعلم أن الإدمان خطر لكنه لا يقدر على العيش بدونه.

١٦١. لكن هناك إشكالية كارثية في استمرار هذا الإدمان دون النظر إلى نتائجه، فأذكر أستاذنا الدكتور رمضان أبو السعود أستاذ القانون المدني حينما كان يلقي إلينا دروسا في العقود والفقه المالكي، ذكر أن أحد فقهاء المالكية جاء بالكثير جدا من الأحكام القانونية في الفقه المالكي ودونها في كتابه فأصبح هذا الكتاب عمدة الفقه، وكانت الأحكام والآراء غاية في الروعة وقمة التطور في الفقه المالكي، وكنا سعداء جدا بسماع أخبار هذا التطور في الفقه القديم، صار علامة بارزة في الفكر القانوني ما يجاوز الألف عام، ثم بمرور السنين اكتشفت الأجيال الجديدة مخطوطة قديمة أقدم بكثير من تلك التي كتبها العمدة باسمه وقد حوت جميع الأحكام التي نقلها العمدة ولم يذكر اسم صاحبها، ومن هذه اللحظة تحول عمدة القانون الفقيه إلى لص، يذكر كمثال كلما ذكرت اللصوصية، ففي كل محاضرة يذكر الدكتور كتاب العمدة ويقول (الذي سطا فيه على كتاب العلامة فلان).. فقد تحول لقب العمدة فجأة إلى عبارة (الذي سطا فيه على كتاب العلامة فلان).. وأصبح أكثر شهرة في كتب الفقه ليس بصفته عمدة ولكن بصفة "السطو "، استمرت معه صفة "عمدة " ألف عام ولازمته صفة " عمدة السطو " باقي الزمن إلى يوم القيامة.. فلا غرابة أن يتغير التاريخ بعد مرور ألف عام.

١٦٢. وبالتالي مهما رفضنا تمحيص الحقائق حول علاقتنا بالعرب وفترة الفتوحات والبطولات التي قيل أنها جهادية، وتغاضينا عن تحديد موقفنا منها ومن داعش وتحديد موقفها من الشرع، وخشينا على مشاعرنا الروحانية، فإن ذلك معناه استمرار لصفة العمودية لبعض الوقت فقط، فمهما رفضنا الإقلاع عن الإدمان سيأتي يوم ويجبرنا المرض على الإقلاع، لأننا مهما خجلنا من تمحيص كتب التاريخ وتحاشينا عنها، فحتما ستأتي أجيالنا اللاحقة وتتجرأ وتبحث في ماضينا حتى تصل إلى الحقائق،

وتتوارى صفة الجهاد وتتحول إلى صفة السطو ونصبح نحن أيضا من البلهاء الذين تستروا على السطو واقتنعوا بأنه جهاد !.. ستأتي أجيالنا وأحفادنا ليقولوا أن الإسلام عاش فعليا ٢٣ سنة فقط وأصبح يتيما تتقاذفه سهام العرب، وأن الإسلام كدين نفسه خضع للاحتلال العربي، وأن العرب مصوا جوهره واستنزفوا معانيه وانتهكوا قيمه واستعبدوه كما استعبدوا الشعوب التي دخلوها، ونجحوا في إقناع الشعوب بأنهم إنما جاهدوا في توصيل الدين لهم.. سيقف أحفادنا على قبورنا ويقولون بأسفٍ أننا عشنا في وهمٍ وظللنا ندرس في الأزهر على مدار ألف عام دينا مُغتصبا مُنتهكا تحت الاحتلال العربي.. وسيكشفون لنا أن ما درسناه في الأزهر منذ العهد الفاطمي لم يكن هو الدين الذي نزل من السماء، إنما هو ما بقي وما تسرب من عصارة التربة العربية شديدة الملوحة.. سيقول أحفادنا بأننا عشنا في غيبوبة ألف عامٍ من الزمن استمر الأزهر خلالها يدرّس القتل والإرهاب والظلم والعنصرية وكل أنواع الإجرام باعتبارها واجبات وبطولات دينية.. وأننا من ضعفنا وضمور إرادتنا خضعنا للاحتلال العربي العسكري ستمائة عام، وخضعنا للاحتلال العربي المعرفي ألف عامٍ بعدها.. وأننا فشلنا في تحرير أنفسنا وتحرير الدين من قيود الاحتلال العربي.. وأننا فشلنا في تطهير عقولنا وديننا من غبار القومية العربية.. وستظل الأجيال تضحك علينا باقي الزمن إلى يوم القيامة، لأن الحقائق يكفيها أن تتوارى ألف عامٍ من الزمن..

١٦٣. ومهما طال الزمن، ستأتي أجيالنا في عام ٢٥٠٠م لتعيد صياغة تاريخ الوطن وتذكر أن الله خلق البشر شعوبا وقبائل، وأن مصر تعرضت لاحتلال على نوعين؛ احتلال شعوب حضارية واحتلال قبائل همجية، وأما احتلال القبائل فهي عادة تكون أقل علما وتحضرا من المصريين وبرغم ذلك تتغلب عليهم بالقوة والهمجية والوحشية، وقد بدأ هذا النوع من الاحتلال بالهكسوس الذين احتلوا مصر عام ١٧٠٠ ق.م بقيادة هكسو الذي تمكن من فتح مصر من جهة الشمال، وتغير اسم مصر في عهدهم وأصبح " جمهورية مصر الهكسوسية" واستبد الهكسوس بالحكم واتخذوا عاصمتهم في صان الحجر (محافظة الشرقية حاليا) وتنازل الشعب المصري عن هويته وجنسيته وقوميته خلال حكم الهكسوس، وتم حل الجيش المصري وتنكيس العلم وسحق الإرادة الشعبية، ووضع هكسو التاج الملكي الفرعوني على رأسه، وترك الفراعنة لغتهم وتحدثوا لغة الهكسوس وتعلموا في مدارسهم أن هكسو هو بطلٌ قومي فتح مصر.. ثم نهض أحمس وطردهم واستفدنا منهم بالثقافة العسكرية، والعجلات والحصان الهكسوسي الأصيل..

١٦٤. وفي الجولة الثانية احتلت قبائل العرب مصر عام ٦٤٠م بقيادة عمرو الذي تمكن من فتح مصر من جهة الشرق، لكنهم استمروا في مصر ستمائة عام واتخذوا من الفسطاط عاصمة لهم وغيروا جنسية الشعب وهويته وطمسوا قوميته الفرعونية وجعلوه يتقمص العقلية العربية لينسى العلم ويغني الشعر والأدب الجاهلي معهم، فقد وقعوا على شعب ساذج يحتفي بتاريخهم ويعظم قوميتهم ويزيدها قيمة، وكالعادة أصبح اسم الدولة نكرة ألف عام وهجر الفراعنة لغتهم للمرة الثانية وتحدثوا اللغة العربية واستفادوا من العرب بالثقافة الدينية..والحصان العربي الأصيل.. أما النوع الثاني من الاحتلال فهو احتلال شعوب الحضارات مثل اليونان والرومان والإنجليز والفرنسيين، فهذه الشعوب عندما احتلت مصر كانت ثقافتهم الحضارية أعلى وأكثر تقدما علميا منا، عكس احتلال النوع الأول. ولا بد أن نعترف بذلك... ثم بعد مرور الزمن اكتشف خبراء الآثار أن الجنس الهكسوسي يعود إلى أصول كنعانية، وأن الحصان الهكسوسي الأصيل لم يكن إلا جد الحصان العربي الأصيل ! والعجيب أن سلسلة الأجيال المصرية الفرعونية التي عاشت عهد الهكسوس حيث تولى خلالها ٨١ ملكا جلسوا على عرش الحكم في مصر وتقلدوا التاج الملكي ونقشت أسماءهم على المعابد واستمر "التطبيع الوطني"، كان أجدادنا الفراعنة خلال هذه الحقبة –ابتداء من الجيل الثاني- يطلقون على دخول الهكسوس اصطلاح " الفتح الهكسوسي" طالما لم يستطيعوا مقاومة الهكسوس وقرروا التطبيع والتعايش مع الأمر الواقع، ثم بعدما نهض أحمس وطردهم انقلب اصطلاح الفتح وعاد من جديد اصطلاح الغزو الهكسوسي وتم محو آثارهم تماما، فقط بقيت الخيول والعجلات الحربية.

١٦٥. لكن العرب كانوا أشد وطأة من الهكسوس لأنهم كما شخصنا ملامحهم الفسيولوجية؛ هم من مجتمعات القبائل الصحراوية التي تشبه النباتات الزاحفة المتسلقة، وبما أن النباتات الزاحفة تتمتع بميزة التسلق وهي ميزة خطيرة جدا لأن النبات المتسلق يملك كلاليب أو محاليق أو مشابك عبارة عن أسلاك طرفية تتمدد في اتجاهات مختلفة كي تعثر على ساق قائمة وتلتف حولها بعنف فتشكل شبكة من الأسلاك حول الساق القائمة وتعتصرها بعنف وتظل ملتصقة بها حتى بعدما يموت النبات المتسلق، فيظل نبات الساق القائمة مقيدا في نموه وحركته بشبكة الأسلاك التي كبلت حركته وعصرت عوده ومنعته من النمو والحركة لحسابها برغم أن نباتها قد انتهى دوره في موسم الحياة ومات، وذابت كل أنسجته لكن تبقى فقط شبكة الأسلاك.



١٦٦. هكذا انهارت الدولة العربية تماما ولم يبق لها أي أثر في الوجود.. فقط بقيت شبكة أسلاكها مثل شبكة من الغبار التي كبلت العقول المصرية والشامية والعراقية بعقليتها العربية الأدبية ذات الأغصان الزاحفة التي لا تنمو رأسيا أبدا... ولذلك استمر الهكسوس فترة طويلة في مصر حكم خلالها ٨١ ملكا هكسوسيا، وبمجرد رحيلهم انتهى أثرهم في مصر ولم نجد لهم أثر في كتابات المصريين الفراعنة على جدران المقابر والمعابد.. فقط حوالي ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ولم نجد لهم ذكر مرة أخرى في كتابات المصريين.. بينما العرب استمروا حوالي ٦٠٠ سنة في مصر واستمرت قبائلهم تعيش بيننا واستمر ذكرهم في كتبنا التاريخية واستمر اصطلاح الفتح العربي على مدار ٧٠٠ سنة حتى اليوم.

١٦٧. فابن خلدون وضع مقدمته وأسس علم الاجتماع في القرن الثالث عشر، لم يكذب، ولكن لم يكن هناك من أبناء جيله وعصره من يفهم معنى علم الاجتماع والعمران، ولذلك ظلت كتبه طي النسيان سبعمائة عام كاملة، ثم بدأت أجيال القرن العشرين تفحص مخطوطاته وتنهل من علومه ومعارفه، كان قد ألف موسوعة تاريخية وسياسية من سبعة مجلدات، ووضع لها مقدمة طويلة، صارت هذه المقدمة هي علم الاجتماع في عصرنا بعدما لفتت انتباه الباحثين، وتأسس بالقاهرة مركز ابن خلدون للدراسات الإنسانية، بعدما تمكنت العقلية من هضم أفكار ابن خلدون في معظم فروع علم الاجتماع عدا ما يخص نظريته عن العقلية العربية، لأن الشعوب المحتلة قديما من العرب ومن بينها الشعب المصري، هذه الشعوب طالما تحدثت اللغة العربية تسمي نفسها عربا، وبالتالي من غير

المنطقي أن يقبلوا ما قاله ابن خلدون على أنفسهم باعتبارهم عرب، ويحاولون قدر جهدهم تحييد نظرية ابن خلدون وحصرها في نطاق " الأعراب " برغم أنه تحدث عن " الأمة العربية مقارنة بالأمم الأعجمية"

١٦٨. لكنهم أحيانا يقومون بلملمة حجج أخرى وإلقائها على ابن خلدون تبرر له ما قاله عن العرب، أو يقولون بأنه " كان تعبان نفسيا " في آخر أيامه، فإذا كان ابن خلدون تعبان نفسيا حينما وضع موسوعته التاريخية ووضع مقدمته لعمل الاجتماع فلماذا يدرسها العلماء اليوم ويحتفون بها ويلقبونه بـ"مؤسس علم الاجتماع"؟ هل كان ابن خلدون تعبان نفسيا حينما وضع نظريته في العقلية العربية بينما كان عبقريا حينما وضع مقدمته لعلم الاجتماع؟ فإذا كان ذلك كذلك فليعلم الجميع أن نظرية ابن خلدون عن العقلية العربية جاءت فقرات متناثرة في المقدمة وليست فصلا مستقلا... وكل مشكلة ابن خلدون في هذه النظرية أنه لم يدلل تدليلا كافيا ولم يعط أمثلة عديدة وتجارب واقعية ولم يقدم خريطة وافية عن العقلية العربية والقومية العربية إنما هو اكتفى بصياغة نظريته في سطور متناثرة، ربما خشي من زملائه فقهاء الأزهر الذين يجعلون من العرب شركاء في النبوة، خاصة أن عقوبة الزندقة في هذا الوقت كانت هي الإعدام.

١٦٩. برغم أنه ليس من المنطق القول بأن ابن خلدون أسس علم الاجتماع والعمران والاقتصاد بناءً على : "كُره للعرب " أو موقف شخصي أو غير ذلك، برغم أن ابن خلدون كتب مقدمته هنا بالقاهرة أواخر عمره بعدما عمل بالقضاء والمناصب الوزارية، وصب فيها عصارة أفكاره وقراءاته وخبرته في الحياة، وتعرف على الكثير جدا من الشعوب، تعرف على العرب والمصريين والشاميين والأمازيغ والأسبان والمغول وغيرهم قرأ عنهم في كتب التاريخ، وانتهى إلى نظريته التي قرن فيها العرب بالهكسوس والمغول. ولكن العقول ترفض الهضم لأنها إلى الآن لم تصل إلى سقف ما أدركه ابن خلدون في علم الاجتماع، وبمجرد أن تصل هذه الشعوب إلى سقف ابن خلدون سيبدؤون فورا بالاقتناع بنظريته عن العقلية العربية وتدريسها في جامعاتهم. لكن هكذا سُنة الحياة؛ كما يقول جونثان سويفت " عندما يظهر عبقري حقيقي في هذا العالم فإنك تستطيع أن تعرفه بهذه العلامة الفارقة، وهي تحالف البسطاء ضده ". لأن عظمة قلبك تخلق لك الأصدقاء.. بينما عظمة عقلك تخلق لك الحساد ..

١٧٠. غير أنهم لو عادوا إلى أصولهم وقومياتهم ونسيجهم الذهني ذا الخصوصية العلمية الحضارية في مصر والشام وإيران والعراق وفهموا أنهم ليسو عرب، لأدركوا الحقيقة التي سبقهم بها ابن خلدون بسبعة قرون كاملة، فابن خلدون غاص بعمق في التكوين النفسي للإنسان، وحينما تحدث عن العرب لم يكن يخلط بينهم وبين الأعراب ولم يكن يقصر حديثه عن الأعراب وذلك واضح جدا في مقدمته، إنما هو يقصد العرب والعقلية العربية الأصل بوجه عام مقارنة بالأمم الأعجمية بشكل مباشر، وحينما تحدث ابن خلدون عن هدم العمران والحضارات، كان يقصد عصر الغزو والفتوحات الإسلامية التي احتلت وهدمت وشردت باسم الدين وبزعامة قريش، وما أبو بكر البغدادي الداعشي الذي يصف نفسه بالقرشي إلا نسخة مصغرة مجسمة من الحكام الذين سبقوه، ولم يكن ابن خلدون يجهل ذلك بأي حال، ونجد ذلك واضحا جدا في رؤية ابن خلدون في تفسير القرآن تعليقاته على المفسرين الأوائل كونهم تقمصوا العقلية العربية في التفسير ولم يتبعوا قواعد علمية موضوعية، فابن خلدون سبق فقهاء عصرنا في رؤيتهم للقرآن. ولو قرأنا تاريخ هؤلاء الحكام العرب جيدا سنجد البغدادي أرحمهم وأحملهم رغم كل هذه الوحشية، لكننا بعدما تقمصنا عقلياتهم أيدناهم في كل ما فعلوه في شعوبنا وآمنا بأفكارهم وصاروا هم فخرنا وفخر ديننا.. حتى أننا الآن ندرس في جامعاتنا نظرية ابن خلدون في علم الاجتماع، ونظرية ابن خلدون في الاقتصاد ونتجاهل تماما نظرية ابن خلدون في العقلية العربية، برغم أنها هي التي بإمكانها أن تفسر لنا الأزمات العقلية والفكرية التي نعيشها الآن تحت وطأة متلازمة الاحتلال العربي.

١٧١. وهذه دعوة لإعادة محاكمة التاريخ، وعلى البرلمان المصري أن ينعقد ليحدد مصير الشعب والدولة، وما إذا كنا ننتمي إلى أجدادنا المصريين الفراعنة أم ننتمي إلى العباسيين والأمويين العرب الذين كانوا عرب بينما نحن نتحدث لغتنا الفرعونية، وعلى البرلمان أن يحدد مصيرنا من اصطلاح الفتح العربي الذي تبناه الأزهر، وما إذا كان فتحا أم احتلالا عربيا، وذلك بعد تشكيل لجنة من خبراء الاقتصاد لدراسة الوضع الاقتصادي لأجدادنا المصرين تحت حكم العرب من سلالة قريش، ولجنة من خبراء حقوق الإنسان لدراسة وضع أجدادنا المصريين تحت حكم العرب، وتشكيل لجنة من خبراء الهندسة المعمارية لدراسة الفرق بين حجم العمارة والحضارة بمصر عهد الرومان وعهد العرب أبناء قريش، وتشكيل لجنة من خبراء الدين والدعوة لدراسة حقوق الإنسان خلال حقبة الفتوحات في الشام وفارس والعراق والأندلس وتحديد موقفها من تنظيم الدولة الإرهابي المكنى

داعش، ثم إعادة صياغة التاريخ والمناهج التعليمية والتربوية مرة أخرى، لأن تاريخ الوطن أكبر من أن يُترك للأزهر وحده، خاصة أن الأزهر بدأ كمؤسسة أجنبية لتعليم المصريين المعرفة المستوردة من شبه الجزيرة العربية وتعليمهم اللغة العربية، أيام كانت مصر مستعمرة عباسية لا إرادة لها ولا كلمة ولا علم يرفرف على بيوتها إلا الرايات السوداء لبني العباس، وما زال يغرس في الطلاب روح الاستعمار العربي لمصر، ومصطلحات التاريخ الوطني لابد أن يعتمدها مجلس الشعب المصري، لا أن نترك الأزهر يعلم أطفالنا أن احتلال وطننا فتح عربي وعثماني وهكسوسي، وأن احتلال أوطان الشعوب ونهب ثرواتها وسبي نسائها وتشريد أطفالها يسمى فتوحات..وعلى البرلمان المصري أن يصدر قانونا رسميا وطنيا بشأن علاقتنا التاريخية بعرب شبه الجزيرة العربية. لأن المصريين الفراعنة ما كان لهم أن يتحولوا عرب يوما ما، هم كانوا مؤمنين بالبعث والحساب بعد الممات، في الوقت الذي ساد فيه الشرك والنفاق والإلحاد بين العرب، وعلى المصريين الفراعنة أن ينتقلوا من فراعنة يعبدون الله بالفطرة إلى فراعنة يعبدون الله وفق رسالة النبي محمد لا أن ينقلبوا عرب.

****



الخلاصة والتوصيات

إن الإصلاح الديني إذا لم يبدأ من رجال الدين، فسينتصر عليهم الفكر العلماني ويسود إلى ما لا نهاية كما حدث في أوروبا مع بداية عصر النهضة الحديثة وتنعزل الثقافة الدينية إلى ركنٍ بعيدٍ عن المجتمع. فرجال الدين يخشون من التعديل وحركة الحداثة لسببين؛ أن المحدثين هم من خارج المؤسسة، وهذا يعد أبلغ حرجٍ لها حتى قبل النظر في الموضوع، والثاني حفاظا علي المنزلة الاجتماعية، فهم برغم علمهم بما في التراث من ضعف وحولٍ إلا أن العقول لم تجرؤ على المساس به وتنقيحه احتراما للسلف. برغم أن الهواة هم من بنوا سفينة نوح، والمحترفون هم من بنوا سفينة تيتانيك... وهكذا حتى في عالم السياسة، فالتغيير عادة لا يأتي من سياسيين تقليديين احترفوا العمل بالسياسة في عالمٍ ملؤه الفساد وتعايشوا معه، بل إن التغيير الجذري يأتي من غير السياسيين.. وهو ما حدث بالفعل في ثورة الخامس والعشرين من يناير، فالحركات الشبابية لم تمارس العمل السياسي، ومع ذلك هي من دعت لتغيير الحياة السياسية في مصر، ملأت الشوارع بهتافاتها وشعاراتها، ما أدى لحراك سياسي وتغيير في العقلية الجمعية للشعب.

فهناك الكثير جدا من الفقهاء والمفسرين يعتقدون بأن المعارك التي تعرض لها النبي كانت غزوات هجومية، وليس الإقلاب هنا في اللفظ فقط بين دفاع وهجوم وإنما في المعنى الحقيقي للفعل وشرعيته، وبرغم مخالفة ذلك للمصادر التاريخية التي استقوا منها علمهم والتي تؤكد أنها كانت دفاعية وفي حدود الدفاع الشرعي عن حق الوجود، لكن هذا الانقلاب يتسق عقلا ومنطقا مع تاريخ العرب وسلوكهم بينما يتناقض كليا مع مبادئ الدين الإسلامي، وهذا ما يعني خلل قاعدي في الفكر الذي قام عليه فقه العصور الوسطى من شأنه أن يهدم الدين بالكلية، لأن خطأ مثل هذا لا يمكن المرور عليه مرور الكرام؛ لأن من شأنه أن يقلب الحق باطل والباطل حق، وأن يقلب الحرام حلال، والحلال حرام. مع أنهم كانوا في عصرهم هم أساطين الفكر. وكل ذلك جاء نتيجة انقلاب العرب على الدين بعد وفاة الرسول، وتبعهم في ذلك الفقهاء والمفسرين لأنهم جميعا من أبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية وأصيبت أجيالها بمتلازمة ستوكهولم العربية.

أما الاعتماد على نظرية المؤامرة ضد الدين الإسلامي، فهي في الواقع ترتكز محاولة تخويف الناس من كل إبداع باعتباره بدعة ومحاولة لهدم ثوابت الدين، برغم أن حركة التحديث ترتكز تحديدا

علي الفقه والمرويات لا على الدين في أساسه، لكن رجال الدين التقليديين يعتبرون الفقه والمرويات هي ثوابت الدين، ولهذا رفضوا المساس بها مع أنها محض حشوٍ لا يخل الدين بتجديده وتعديله، وكل ما في الأمر أنه حصل على قداسة تفوق عقولهم، ووصل الأمر بالبعض في محاولة للتحصين المسبق ضد نظرية المؤامرة الكونية على الإسلام، فوصل إلى درجة الادعاء بتعديل الغرب لجينات العرب الوراثية كي ينجبوا الإناث دون الذكور، وبذلك يتمكنوا من القضاء على الإسلام !

إنما في الواقع فالقرآن وحده قادر على المواجهة دون أن يحتاج إلى تعزيز من مرويات أو حكايات فقهية، كما كان عهد الخلفاء الراشدين، فلو قرأنا القرآن حتى قراءة علمانية للنص القرآني سيعجز العلماني عن الرد والتعليق.. فلا يشترط أن نقرأ القرآن قراءة روحانية مغلفة بحاجب عقلي روحاني كي نظل مؤمنين به أو لنحافظ على بقائه صامدا، فهذا محض عجز عقلي منا علي استيعاب قدرة الله في صياغة نصوص القرآن، بل إن النص القرآني أعجز العقل الملحد والمشرك والكافر في عهد النبي، فهل لا يُعجز العقل العلماني عن الرد؟ . الوليد ابن المغيرة حينما سمع القرآن من النبي خلسة وهو يقف خلف سور المسجد قال"والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى عليه.".

فعولمة الإسلام قادمة لا محالة، ولا بد من مراعاة الترجمة في تفاسير القرآن وكتب الفقه والحديث والمأثورات أن تتلاءم مع عقلية المتلقي متنوع الثقافة، وتراعي خلفياته الثقافية واحترام منطقه العقلي واحترام حقوق الإنسان. لا أن يقوم الدعاة بنشر الحكايات الخرافية والمرويات والعنف والقتل على المنابر في الوطن العربي، ثم إذا سافروا للدعوة إلى الإسلام في أوروبا يتجاهلون مروياتهم التاريخية وأحداث العنف والقتل والسبي وينتقون بعناية من القرآن الآيات التي تعبر عن حقيقة الإسلام وسماحته!

والأكثر عجبا من ذلك أن هؤلاء أصحاب الفكر السلفي، والذين يهاجمون تنمية الفقه الديني وتنقيته وتحديثه، يدرسون في مناهجهم الدينية أحكام قتل المرتد، ورجم الزاني، وسبي النساء في الحروب، وضرب المرأة، وقتل غير المسلمين حتى يخضعوا للإسلام أو يدفعوا لهم "جزية"، وينتظرون في نفس الوقت أن يكف العالم عن كراهية الإسلام بل ويطالبون العالم بأن يصفه بأنه "دين السلام". وهؤلاء الواهمين لن يتحقق حلمهم أبدا، طالما لم يخرج الإسلام من كهف الثقافة العربية البدوية

الوحشية، وطالما أنهم يدرسون هذا العنف باسم الدين. فعليهم أن يعلموا الحقيقة بأن ما يدرسونه هو السبب الحقيقي في ازدراء الكثير من الناس للإسلام وتعاليمه، وفي تزايد الكراهية ضد المسلمين في العالم (وهي التي يشكون منها!). في الواقع أن من يكرهون الإسلام، لا يكرهون تعاليمه وتكاليفه وسماحته ومبادئه، وإنما يكرهون مرويات العنف والقتل والسبي والفتاوى التي يطلقها المسلمون بحق الآخر تأسيسا على هذا التراث الفقهي البالي، وما هو من الدين إنما من ثقافة العرب وتاريخهم.

فقد تعرض الدكتور ذاكر نايك لسؤال محرج من محامية في مؤتمر في اليابان، إذ سألته عن فكرة الفتوحات وغزو البلاد لنشر الدين فيها، وسألته عن مشروعية الخروج من هذا الدين بعد إعلان اعتناقه وعن المجازر التي وقعت خلال هذه الفتوحات في إيران والشام والعراق والهند وشمال أفريقيا والأندلس وتركيا... هذه السيدة كانت تقيس الدين التي أوشكت على اعتناقه بالمعايير الإنسانية التي نص عليها الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، والميثاق العالمي لحقوق المرأة والميثاق العالمي لحقوق الطفل ونتاج الحضارة المعرفية الأخرى. لكن الدكتور ذاكر تمكن من الرد بكفاءة في كل المسائل العقائدية عدا ما تعلق بالتاريخ الإسلامي والتراث وتاريخ الصحابة، وكأنه ضمنيا اعتبر ذلك محض مادة تاريخية وليست تشريعات دينية.

بالولوج إلى مواقع ومدونات الشباب والملحدين العرب والغوص في أفكارهم سنجد معظمها بسبب أخطاء فقهية ومرويات مكذوبة تبناها الفقهاء وأسسوا اجتهاداتهم عليها، ولا يمكن أن نجد منهم اعتراضا على آية في كتاب الله، حتى هذه يأتي الاعتراض بسبب سوء التفسير، وكانت النتيجة أن هؤلاء الشباب الملحدين في الوطن العربي وعددهم بالملايين لم يقتنعوا بخرافات الفقهاء وشذوذاتهم فقرروا الانقلاب على الدين لأنهم لم يستطيعوا التفرقة بين أصل المنهج الإسلامي وفقه الفقهاء، مع افتقادهم القدرة على الفكر النقدي للأحكام الفقهية والتحليل المنطقي والاستنتاج الطبيعي.. غير أن هؤلاء الشباب لم يقتنعوا بما ورد في كتب التراث وكتب التاريخ الإسلامي تحديدا والتي دونها علماء مسلمين بخط يدهم واعتبروها ذات قدسية دينية ونموذج تطبيقي عملي لتعاليم الإسلام، بينما هي في الواقع محض أخطاء سياسية وجرائم حرب شنها عرب شبه الجزيرة على الشعوب المجاورة لهم وبرروا أفعالهم بأنها خدمة للدين، بينما في الواقع والحيثيات يختلف الأمر كثيرا بين ما هو جريمة حرب وما هو خدمة للدين لأن الدين أسمى من أن يستفيد من جرائم الحرب.

إن تاريخ الفتوحات العربية لا صلة له بالدين الإسلامي الحنيف، ونحن على قناعة بأن النبي محمد سيتبرأ من الصحابة يوم القيامة لما فعلوه بعده سواء بقتل بعضهم البعض أو بقتل الشعوب المجاورة لهم ونهب أموالهم وخطف أبنائهم وزوجاتهم، وهذه الفتوحات المسماة باسم الدين ما هي إلا جرائم حربٍ ضد الإنسانية، ولا تختلف كثيرا عن جرائم الحرب في العصور الوسطى، حتى ولو حملوا معهم دينهم إلى الشعوب التي احتلوها، فجميع الإمبراطوريات التي غزت واستعمرت شعوب أخرى حملت معها ثقافاتها، بل إن الفرنسيين في حملتهم على مصر حملوا معهم لجنة علمية مكونة من ١٦٧ عالم في جميع التخصصات، واتخذوا لهم مقرا للمعامل والأبحاث في القاهرة، كان هذا المعهد العلمي صورة مصغرة لمجامع العلوم الأوروبية، ومركزا للطب والصيدلة ومستشفى كبير وخدمة (الحجر الصحي) ومختبرا كيميائيا ومرصدا فلكيا ومعرضا للرسم وحديقة للحيوانات ومتحفا للتاريخ الطبيعي وسلاح الهندسة وورش لإنتاج المواد الاستهلاكية والصناعات والمعامل والطواحين... ونظم المعهد العلمي المصري من علماء مصر وعلماء الحملة، فريقا مشتركا أعدوا الأربعة والعشرين مجلدا الضخام التي مولتها ونشرتها الحكومة الفرنسية بعنوان وصف مصر، واكتشف علماء الحملة حجر رشيد الذي حمل نقوشا بلغتين وثلاثة خطوط (الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية) وقد مكنت هذه الكتابات من وضع أسس ترجمة النصوص الهيروغليفية، ففتحوا بذلك أمام أوربا "الحديثة" أبواب حضارة مصر القديمة، وأنشأوا أول مجلة دورية مطبوعة وأنشأوا أول مطبعة في القاهرة وأشعلوا حركة فكرية ثقافية. ومع ذلك ظلت الحملة الفرنسية احتلالا لمصر، لأنها دخلت حدود مصر بقوة الجيش.

بينما العرب عندما دخلوها أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة ووزعوا كتبها على الحمامات العامة لاستخدامها في تسخين المياه، ولم ينشؤا بدلا منها مكتبة إسلامية، وتفرغوا لجمع الجزية والخراج وخطف البنات والأطفال والسبايا، وقالوا أنهم حملوا دينهم إلى الشعوب التي احتلوها، وكأن الدين لا يحمله إلا جيوش ترتكب جرائم حرب، أو كأن الدين لا ينتشر إلا باحتلال الأوطان وإخضاعها لحكم العرب، ذلك لأن العرب لم يملكوا الوسيلة الإنسانية لنشر دينهم، ولم يفهموا مبادئ الدين كما ينبغي، فهذا الدين أطهر وأرقى من أن يحتاج لجرائم حربٍ كي ينتشر. ولا يختلف الغزو العربي عن الحملات الصليبية على الشرق، والتي جاءت للقتل والنهب باسم الصليب، والفارق بين غزو العرب وغزو الغرب هو أن العرب كانوا يخطفون البنات والنساء والأطفال ويغتصبونهم وما تبقى يصدرونه لأسواق العبيد في بلادهم، وما زالوا إلي اليوم يعتقدون أن أجدادهم حاربوا وقتلوا وسبوا ونهبوا

من أجل الدين، ولا زالت تراودهم الأحلام.. أما الغرب فقد أدركوا مبكرا أن أجدادهم إنما حاربوا الشرق من أجل الثروة.. وكل الجيوش التي حاربت عبر التاريخ ارتكبت جرائم غير إنسانية، وسعوا جاهدين لإخفائها عن أعين العالم، ثم اضطروا في النهاية للاعتذار عنها، أما العرب فقد قدسوا جرائمهم واعتبروها دينا يتقربون به إلى الله، واخترعوا ركنا جديدا في دينهم جعلوه عبادة دائمة. يا لهم من أمة أكل الجهل من أكبادهم حتى اهترأت.. أتكون جرائم الحرب عبادة وجهاد من أجل لله؟.. ذلك لأنهم لم يتعلموا غرس الورود ونشر الحب والسلام.

ولم يبحث أحد من قبل على مدار الزمان في مدى تأثير أعراف العرب وعاداتهم الاجتماعية وأخطائهم على الإسلام، فهذا الجانب من البحث ما زال غامضا جدا، وما زال هو زاوية الرصد المفقودة إلى الآن، فجميعنا يدرس فقط تأثير الإسلام على المجتمع العربي وأنه نقلهم من الجهل والوحشية والوثنية إلى النور، وبطبيعة الحال فهذه الآثار تفاعلت في عصر الرسول عليه السلام وأثناء حياته، لكن بعد وفاته بدأ التأثير العكسي من المجتمع العربي على منهج الإسلام، فعاد العرب إلى عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم الوحشية لتأخذ إطارا دينيا هذه المرة وأكثر قدسية مما مضى لأنها أخذت قدسية الدين، وظهرت بجلاء في تفسير بعض آيات القرآن وحشو الكثير من المرويات ونسبها للرسول كي تحتفظ بمصداقيتها وقدسيتها الدينية.. كل ذلك جاء نتاج النفسية العدوانية التي تفاعلت مع القرآن فأوجدت لعدوانيتها مبررا من نصوصه، ليس لأنهم أردوا تحريف كتاب الله وأحكامه ولكن لأن نفسياتهم اتخذت مسارا مخالفا للفطرة.. الباحثون السلف يرون أن من انقلب من العرب بعد رحيل النبي إنما ابتعد عن المنهج، لكنه في الحقيقة لم يبتعد ولم يهجر المنهج ويتركه سليما معافا بحاله، بل إن المجتمع العربي صب ثقافته على المنهج بتأثيرٍ عكسي تماما، لأن انحراف العرب لم يأت بعيدا عن المنهج وإنما بالمنهج ذاته، وهذا ما ورثناه عنهم.

ومن الصعب على الراصد أن يتلقط بوضوح ما حدث في هذه الحقبة التاريخية طالما وقف هناك واندمج بينهم وعاش فيهم، بل إن الراصد يلتقط الحقيقة بوضوحٍ أكثر عندما يخرج من المكان ليقف في القاهرة ويرى المشهد الكلي، من يتحرك من بعيدٍ ومن قريب، وفي الخفاء وفي العلن، لأن الباحث عندما يدخل مجتمع ما من الطبيعي أن تغلفه حالة من التعاطف المعرفي تجاه الأشخاص الذين يتعامل معهم ويرصد حياتهم، وبذلك تذوب منه خيوط الحقيقة، لكن التجرد العلمي يقتضي الوقوف بالخارج دون أي تعاطفٍ معرفي حتى يتمكن من رؤية شمولية واضحة ومجردة من أي مؤثرات

شخصية أو انحناءاتٍ عاطفية قد تدفع الباحث للتعاطف والتضامن مع شخصٍ ما بسبب مواقفه السابقة مع النبي، وهذا مكمن الخطر، لأن هذا التعاطف المعرفي من شأنه تذويب الحقائق..

ففي مجالات العلوم الطبيعية يتجرد الباحث من مشاعره تماما ومعتقداته وانطباعاته السابقة ومن رؤيته المسبقة للوصول إلى الحقائق، أما عندما يدخل الباحث ميدان البحث المعرفي بشأن الدين وحياة الصحابة، فالواقع أنه يكون متضامنا مفعما بالتعاطف المعرفي تجاه أشخاص الصحابة الذين ضحوا بحياتهم من أجل الدين.. هذه الرؤية المسبقة الجاهزة عن جهادهم حول النبي وإخلاصهم للدين ودفاعهم عنه، وما قاله الله في حقهم، وهذا بالطبع لا ينكره منصف، والنص القرآني ثابت وحقيقة ثابتة لكن شخصية الصحابة هي نفسية إنسانية متغيرة متقلبة وليست ثابتة مع النص القرآني لأنهم بشر ومحل ابتلاء، وهذا ما يجعل النص القرآني حقيقة ثابتة لكنها ظرفية أي مقيدة بحدود الظرف الذي نزلت فيه وبشأنه، ومجرد نزول النص القرآني بمدح أفعالهم لم يمح عنهم الصفة البشرية المتغيرة، ولم ينسخهم وينقلهم إلى درجة العصمة النبوية، ولم يضع خط النهاية لحسابهم يوم القيامة، بل ظلوا محل ابتلاء حتى أن النبي في خطبة الوداع حذرهم من الانقلاب بعده..

فما بعد وفاة النبي يجب النظر إليه بعينٍ مجردة تماما عمّا قبله، لأن الرؤية المسبقة الجاهزة من شأنها تعمية عقل الباحث عن رؤية الحقيقة المجردة والنطق بها، ذلك ببساطة لأننا عقب ذكر اسم كل صحابي نتبعه بعبارة " رضي الله عنه" فمن الطبيعي ألا نقول عنه أنه أخطأ في شيء ما إذا كُنا قد كونا سياجا مسبقا بإطار رضي الله عن أفعاله وسلوكياته وتصرفاته وكأنه نبي.. فالتعاطف المعرفي المسبق هو ما يحجب رؤية الحقائق، وليس معنى تنحية التعاطف المعرفي مع الصحابة أننا نبدله بسوء الظن المسبق إطلاقا، إنما تحييد الرؤية بتجفيف رصيد حسن الظن المسبق وتنحية افتراض سوء الظن المسبق ليبق ذهن الباحث واقعيا إلى أقصى درجة ممكنة..

غير أننا ينبغي مع ذلك أن نعيش عصرنا لا عصرهم، فالله تعالى لهم حكمة في تسلسل الأجيال وتطور الحياة جيلا بعد الآخر، وعلى الجيل الحالي أن ينظر إلى المجتمع العربي بعينه هو لا بعين المجتمع العربي وفي عصره، لأن الله خلقنا لنعيش في عصرنا لا في عصرهم.. وإذا أردنا بناء نهضة مصرية حديثة فعلينا التخلص من غبار القومية العربية الذي ترسب على عقولنا زمانا طويلا، وعلى الباحث والمفكر أن ينظر إلى الإسلام باعتباره ثقافة مستوردة من شبه الجزيرة، لا أن يذهب هو ليعيش في شبه الجزيرة، لأن حياتها لن تبن حضارة، وقد سبق بيان ملامح القومية العربية في كلتا الحلين؛

حال الانهيار الأخلاقي والسلوكي والفكري، وحال الازدهار الحضاري الأموي والعباسي، وفي كافة الأحوال أيقنا بأن القومية العربية غير مؤهلة لبناء حضارة علمية كما الحضارات السابقة عليها واللاحقة لها، لأن القومية العربية كما أوضحنا تستقل بسمات أدبية لا تقوم بها الحضارات.. لكننا للأسف تركنا مبادئ الدين وغصنا في ثنايا القومية العربية وتشبعنا بملامحها وسماتها حتى تعطلت العقول.. علينا أن نأخذ الدين فقط من القومية العربية لا أن نطمس هويتنا المصرية بالقومية العربية، بل إن القومية العربية لم تفسد العقلية المصرية وحدها، بل أعطبت الفقه الديني ذاته وصبغته بملامحها. فقد تحولت العقلية المصرية من العلمية إلى الأدبية، كما تحول الدين من التسامح إلى العنف بفعل متلازمة ستوكهولم العربية وتبعات التطبيع بين العقلية المصرية والعربية.. فللأسف نحن لم ننقلب مسلمين وإنما انقلبنا عرب.

ويظهر ذلك بجلاء في مدى التأثيرات التي تعرض لها فقه الشريعة الإسلامية، فقد تأثر الفقه بأحداث تاريخية وقعت بعد اكتمال الرسالة بوفاة الرسول، هذه العناصر التاريخية قامت على ثلاثة محاور أساسية هي المرويات غير الصحيحة، والتي تجرأ البعض للقول بأنهم إنما يكذبون لرسول الله لا عليه !! والعنصر الثاني هو الأحداث التاريخية التي وقعت في عصر الصحابة الكبار، والتي من المستحيل أن نعترف بأي خطأ وقع خلالها ! فنحن نعتبر كل تصرفاتهم هي تشريعات دينية لا ترقى عقلونا إلى إعادة تقييمها، حتى وإن كانت جرائم حرب اعتبرنا جرائم الحرب تشريعا دينيا مقدسا ! بسبب قدسية الأيقونات الدينية.

وأما العنصر الثالث فهو العامل النفسي للمجتمع العربي، والذي رشح ملامحه في عقول أبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت الجيوش العربية، وقد جاء ذلك الأثر النفسي في محورين، الأول هو الانبهار بكم الانتصارات العسكرية التي حققها العرب خلال فترة وجيزة، هذه الانتصارات عندما نفتح كتب التاريخ لا يمكن لأحد أن يخفي انبهاره وإعجابه الشديد أو يخفي حالة النشوى والفخر بهذه الانتصارات، وهذا ما يدفع العقل إلى احترامها واعتبارها بطولات فعلية ويغض الطرف عن مدى مشروعية هذه الانتصارات من الأساس، لأن نشوة الانتصار تغض الطرف عن التساؤلات حول ما قبل الانتصار، أم حالة الهم والحزن التي تتبع الهزيمة هي التي تجبر العقل على التفكر والتدبر في الأسباب الفعلية الحقيقية لهذه الهزيمة وتحقيق مدى مشروعية هذه الأسباب وإعادة التدقيق في أدق تفاصيلها ودراسة الأخطاء والدروس العسكرية المستفادة منها.. على العكس تماما من حالة النشوى

بالانتصارات التي تجعل من المنتصر بطلا أيا كانت وسيلته في الانتصار، فالجميع يهوى التهليل للمنتصر والقلم مع الظافر دائما ومن الطبيعي أن تسود شريعته ونظامه، حتى ظاهرة السبي التي مارسها العرب صارت شريعة، فقط لأنهم هم المنتصرين، إنما لو كان العرب قد انهزموا في معاركهم لكان الفقهاء والعلماء قد وجهوا إليهم أصابع الاتهام والإدانة والعتاب واللوم وحددوا أسباب الهزيمة ولكان أولها ((ظاهرة السبي وخطف النساء والاعتداء على الأطفال واستعبادهم واسترقاقهم)) على اعتبار أنها أعمال من متع الدنيا وتلهي عن التركيز في العمل الجاد، إنما للأسف العرب انتصروا تقريبا في جميع المعارك التي خاضوها بلا استثناء، وليس ذلك بسبب شدة إيمانهم بالله ولكن لأنهم في الأصل شعب ذا طبيعة حربية من الطراز الأصيل، ولهذا تميزوا بالفروسية والوحشية وليس البطولة والنبل، وعلى كل حال كانوا هم أصحاب الانتصارات دائما، وهذا ما وضعهم في موقف الأبطال القوميين في نظر الفقهاء ولم يلتفت أحد إلى أخطائهم أبدا واعتبروا نهجهم هو الشريعة المثلى.

أما المحور الثاني للأثر النفسي فقد تمثل في متلازمة ستوكهولم العربية، والتي تجعل الضحية يؤمن بأفكار المعتدي عليه المنتصر وتتقمص العقلية والنفسية العربية العدوانية تجاه غير المسلم وتجاه المرأة والتطبيع معها والتطبع بها، غير أنها مصابة بطابع الحربية والنرجسية والعنف المادي وانعدام التعاطف المعرفي مع الآخر، وهذه الملامح النفسية انتقلت إلى الفقه وترجمها الفقهاء عمليا في فتواهم وآرائهم.. هذه الملامح النفسية العربية هي أصل بالنسبة للمجتمع العربي ونتاج حضارته ونشاطه الذهني، بينما هي رشح معرفي بالنسبة لأبناء الشعوب التي انكسرت إرادتها تحت العرب.. وبما أن الفقه هو اجتهاد يعبر عن عقلية الفقيه وخلفيته ورصيده المعرفي وظروفه النفسية أكثر مما يعبر عن الحقيقة، لأن الحقيقة تعبر عنها التجربة فقط، وكان من الطبيعي أن تتغير نفسية البشر من عصرٍ لآخر ومن مجتمع لآخر مع تغير الظروف فتتغير مذوقتهم الأدبية والقيمة المعرفية والأخلاقية والإنسانية، وتتغير معاييرها، ولذلك وجدنا الفقهاء يفتون بأحقية المسلم في "سبي" خطف النساء والأطفال واستعبادهم وبيعهم في أسواق النخاسة ووطء النساء دون زواج أي اغتصابهن عنوة، باعتبار ذلك حق شرعي يتقرر لكل من خرج للجهاد في سبيل الله، هذا الجهاد هو الهجوم على الشعوب والمجتمعات المسالمة لاحتلال أراضيها وأملاكها ونهب وسلب وتخريب بلادها..

فما يبرئ ساحة الفقهاء من الذنب هو أنهم انحرفوا فقط فيما انحرف فيه العرب وبقدر انحرافهم تحديدا وفي ذات زاوية الانحراف التي تجسد ملامح الشخصية والكاريزما العربية متمثلة في (طابع

الحربية – النرجسية – السادية العنصرية) ولذلك نستطيع القول بأن كارثة الانحراف الفقهي انحصرت فقط في الجوانب التي تجسد هذه الملامح، والفقهاء كما قلنا معذورون ولا ينبغي توجيه اللوم لهم لأنهم ضحية العرب هم وشعوبهم التي انكسرت إرادتها تحت سطوة العرب. أما خطيئة التيار التنويري الحديث ودعاة التجديد الفقهي، فإنهم يطرحون أفكارا جيدة وحقيقية في كثير من الأحيان، لكن ما يعيبهم أنهم يقدمونها للجمهور في غلاف من البذاءات والإساءات للفقهاء القدامى... فقبل أن يطرحوا أفكارهم ويوضحون موضع الخطأ التراثي فهم يكيلون بالاتهامات والسب والقذف ومحاولات التقزيم بحق الفقهاء السابقين والتراث، ودون مراعاة لمشاعر الجمهور الذي تربى وعاش طفولته على تقديس هؤلاء الفقهاء واعتبارهم أيقونات عظيمة منزهة عن الخطأ، بل إن الجمهور المتلقي يشعر في الغالب أن الغرض هو السب والقذف للفقهاء وتشويه التراث وليس تجديد الفكر، وهذا ما يجعل الجمهور المتلقي ينفر ويرفض.. لكن الأمر في الواقع بحاجة إلى نظرة بعين الرأفة لهؤلاء الفقهاء والعلماء الذين أبدعوا في جوانب أخرى عظيمة لا يمكن مقارنتها بحجم أخطائهم التي انحصرت في زوايا محددة سبق وأن أوضحناها وأوضحنا أسبابها النفسية والصحية، هذا بالإضافة إلى أنهم أخلوا مسؤوليتهم عن كل خطأ حينما ذيلوا جميع فتاواهم بعبارة " والله أعلى وأعلم "...

غير أن الشعب العربي على مدار تاريخه ـشعب الحجازـ لم يثبت له في حقبة من الأزمان أنه بنا حضارة أو تحضر وارتقى يوما ما سواء علميا أو فكريا أو خلقيا، وليست له تجربة سابقة في هذا الشأن تثبت استعداده النفسي ابتداءً، بل إنهم حتى غير متزنين على طول الخط الزمني، ولا نقصد حصرا حقبة الصحابة أو سلالتهم الحالية، بل على مدار التاريخ نجد دائما اعوجاجا دينيا فجا إما تجاه اليمين وإما تجاه اليسار.. فعقب رحيل النبي عنهم انشقوا على دينهم وانحرفوا وكشروا أنيابهم لشعوب الجوار حتى استجارت من وحشيتهم وهمجيتهم ونهمهم في القتل والذبح، ثم انعطفوا إلى الداخل واشتعلت الحروب الأهلية بين الصحابة أنفسهم فقتلوا بعضهم بعضا، وأصبح النبي بالنسبة لهم مجرد ذكرى كما أوضحت السيدة عائشة، ثم في العصور التالية انحرف دينهم بدرجة خيالية في الضلال والشرك والخزعبلات.. ثم جاء محمد عبد الوهاب لتقويم البوصلة فعقفها بعنف من اليسار إلى اليمين فظهر الدين الوهابي الجديد، الذي أشعل الحركات الإرهابية في كل مكان باسم الدين حتى نفرت منه الشعوب، ثم عاد محمد بن سلمان ليضبط بوصلة الوهابية مرة أخرى فعقفها تجاه اليسار بعنف حتى خرجت عن المسار كليا، وأشاع كل مظاهر الفسق والفجور كما كانت أيام قريش مرتعا للفساد.. وانضوى خلفه أغلبية الشعب وكأنها فرجت عليهم !

وتتجاهل مناهج التاريخ الحقبة المسيحية في مصر قبل الإسلام وكأنها حقبة خطيئة في عمر الشعب، فالمناهج عادة ما تبدأ بالتاريخ الفرعوني، وتنتقل إلى التاريخ العربي، ثم تعود إلى التاريخ الحديث، وتتجاهل حقبة مصر المسيحية، برغم أنها جزء أصيل من تاريخ هذا الوطن، وهي تمهيد لظهور الإسلام بعد ذلك، فخلال هذه الحقبة التاريخية كان المصريون يؤمنون بالله على شريعة عيسى عليه السلام، بينما العرب يعبدون الأوثان ويطوفون حول البيت الحرام عرايا.. لكن مناهج التاريخ تتجاهل تلك الحقبة لسببٍ آخر؛ هذا السبب هو ما يكشف زيف الفتوحات ويثبت أنها ما كانت إلا جرائم حرب وليست فتوحات دينية؛ لأنه بعد عشرين عاما من رحيل عيسى عليه السلام، تحرك رجل من فلسطين حاملا نسخة من الإنجيل إلى مصر، هذا الرجل لم يكن نبيا ولا رسولا، ولا يتمتع بقدسية الصحابة العرب، لكنه استطاع نشر الإيمان في مصر كلها خلال خمسين عاما فقط وبمفرده !

بينما الصحابة العرب دخلوا مصر لينشروا الإسلام كما زعموا.. كانوا بالآلاف وما زالت مقابرهم قائمة في منطقة القرافة بجوار القلعة إلى اليوم.. ظلوا يدعون المصريين إلى الإسلام مائة عام كاملة، ومع ذلك لم يعتنق الإسلام إلا ٢٪ فقط من المصريين خلال المائة سنة الأولى لدخول العرب مصر، برغم أن آلاف من الصحابة الأبرار الذين دخلوا مصر لنشر الإسلام فيها، قالوا أنهم جاؤا هنا لنشر الإسلام!، فلماذا لم ينشروه ؟ هل لأن المصريين لا يحبون الإسلام؟ فلماذا أقبل المصريون على اعتناق الإسلام جملة بعد مرور أربعمائة عام؟ في الواقع فإن هذه الفترة كانت كافية لأن تمحو من ذاكرة المصريين همجية العرب ووحشيتهم من ذهنية الأجيال لينفصل الدين ويتجلى ويستقل بمبادئه عن وحشية العرب وممارساتهم الشيطانية. فقد استطاع رجلٌ بمفرده نشر المسيحية في مصر كلها خلال ٥٠ عاما فقط؟ بالطبع ليس لأن المسيحية أفضل، ولكن لأن الإسلام دخل مصر على أقدام الجيوش العربية خلال سِلسلة من الحملات والمعارك العسكرية التي خاضها العرب.. قالوا أنهم جاؤوا لينشروا الدين!.

بينما دخلت المسيحية مصر على منبر الدعوة، شخص واحد حمل الدعوة إلى الله فنشرها في ربوع مصر كلها، وانتشرت المسيحية في شعوب العالم خلال فترة وجيزة، فلماذا لم ينتشر الإسلام مثلها برغم أنه أشمل وأكمل ؟ وليس من العيب المقارنة حول كيفية وصول الأديان للشعب المصري، فهو شعب طيب ومتدين بطبعه، ويعرف الإيمان منذ فجر تاريخه.. وعلي الإنسان أن يدرك موقعه وجدواه ومساره في الحياة كل فترة علي الأقل بأن ينظر إلي حاله بمسقط رأسي ليعيد إلي الأمور توازنها إذا اختلت جوانبها. لكن المؤرخين تعمدوا طمس الحقبة التي دخلت فيها المسيحية مصر ليتجنبوا تجريح العرب

الذين جاؤا بالسيوف!.. لأن بينهم صحابة !.. بينما هؤلاء الصحابة انتشروا في العالم بالسيوف والقتل والدم والسبي وقالوا أنه جهاد ! برغم أنهم غنموا من وراء هذا الجهاد مغانم كثيرة ونساء وأطفال وسبايا حتى جعلوا الشعوب تنفر من الدين الإسلامي. هؤلاء الصحابة بقدر ما خدموا الدعوة ودافعوا عن النبي وناصروه، بذات القدر هدموا الدعوة عندما قرروا اكتساح العالم بسيوفهم أو بسيف الله المسلول كما قالوا ! وكأن الله أرسل الإسلام رحمة وسلاما للعالمين على نصل سيفه المسلول ! فجعلوا زعيم الدعوة ونشر الدين هو سيف قريش المسلول ! برغم أنه ليس من الدين ولا أي دين، لكنه من طبيعة المجتمع العربي الحربية الوحشية.. فالنبي اضطر فقط لخوض المعارك مدافعا عن نفسه والدين الذي يحمله إلى الناس أجمعين بالبشرى والسلام، حتى أنه حينما ذهب إلى فتح مكة لم يقتل أحدا، وحينما قال سعد بن عبادة «اليوم يوم الملحمة»، عزله الرسول الكريم وولى نجله، وقال «بل اليوم يوم المرحمة»، وبالتالي كل ما قاله الفقهاء فى فقه الجهاد يخالف صحيح الدين، وعبارة "سيف الله المسلول" تخالف مبادئ الدين كلية ، وتلك الألفاظ والأحكام التراثية البشرية ما هي إلا نتاج فلسفة العقلية العربية.

هكذا استخدم العرب دين الله لتحقير الشعوب الأخرى واضطهادها.. استمر العرب يحاربون العالم خمسمائة عام كاملة باسم الدين ومازالت المسيحية هي الديانة الغالبة في العالم إلى اليوم!، إنما ذلك بسبب همجية العرب ووحشيتهم، فقد حملوا ثقافتهم وطبائعهم البدوية الوحشية والعنصرية والنرجسية، ولهذا نفرت الشعوب.. فالشعوب لا تعرف التفرقة بين الدين الإسلامي وتاريخ العرب الصحابة لأنهم دمجوا بين الدين والتاريخ وقالوا أن تاريخهم هو من الدين ! فهم حتى لم يدخل الإسلام بلدا على يدهم بالدعوة، وإنما جميع البلاد التي دخلوها بالجيوش المحاربة، على اعتبار أن الدنيا كلها تحارب الدين!.. إذن فكيف انتشرت المسيحية في العالم كله دون جيوش أصلا ؟ وما زال العرب مقتنعين إلى اليوم بأن الفتوحات هي التي نشرت الدين، وأنه لم يكن هناك سبيل لنشر الدين بدون الحرب، وأنها كانت جهاد في سبيل الله، بينما هم يخطفون الأطفال والنساء ويغتصبون ويستعبدون كما شاءوا، ففي الواقع كانت مرحلة الفتوحات عقبة كؤد أمام انتشار الدين..

ومن أجل الحفاظ علي الدين، لابد من توقيف التاريخ الإسلامي عند خطبة الوداع؛ فالإسلام اكتمل بخطبة الوداع، ويجب فورا حذف سائر الحقب التاريخية من الدراسات الإسلامية بسياستها وفقهها ووقائعها السياسية والعسكرية وحركتها الفكرية؛ لأن الصحابة وهم أشرف الناس خلال حياة النبي تحول بعضهم بأفعاله إلى ما يشبه شياطين الإنس، فقتلوا بعضهم بعضا، وهذه طبيعة المجتمع

العربي، ولا أحد بمنأى عن الفتنة. ولأن الإسلام النبوي النقي الذي نزل بهدي السماء واكتمل بخطبة الوداع، بينما الخلافة وما تلاها فهي نتاج القومية العربية ومهما كانت عبقريتها فهي ليست جزءا من الدين.

ولذلك حتى نتجنب الإساءة للصحابة فلا بد من حذف تاريخهم من بعد خطبة وداع النبي، لأن تاريخهم جميعا مشرق خلال حياته، ويكاد يكون مظلما حالك الظلام بعد وفاته، وليس من العدل طمس تاريخهم كاملاً خلال عهد النبي، بل إن الحق والعدل والمنطق يقتضي ذكر عصر الدعوة بحيادية وموضوعية باعتبارها جزء مهم من تاريخ الإسلام، وحذف الحقب التالية من حياتهم بعد وفاة الرسول وإسدال الستار عليها باعتبارها جزء من تاريخ العرب وشبه الجزيرة العربية لا أكثر، لأن الإسلام كمنهج اكتمل بخطبة الوداع ولم يستفد من تاريخ العرب بعد وفاة الرسول بقدر ما تضرر منه. فليس من شأن التاريخ أن يضيف إلى الإسلام أحكاما بحجة أن هذا ما فعله صحابة الرسول وأنهم عدول ومعصومون ومقدسون، هذا لا يغني ولا يثمن، وحتى وإن كانوا عدول وصالحين فليست أفعالهم ولا أفكارهم ولا آراءهم من منهج الإسلام في شيء، لأن المنهج اكتمل في خطبة الوداع، ونحن أخذنا من العرب دينهم ولغتهم فقط، ولا يخصنا تاريخهم ولا أعرافهم ولا موروثاتهم في شيء، وعلى من أراد الاقتداء أن يقتدي بالرسول وإن لم يجد فيجتهد أفضل من أن يقتدي باجتهاد غيره.

ومن الضروري كذلك عدم تدريس التاريخ الحربي للإسلام والمعارك التي خاضها النبي عليه السلام لأنها غير متعلقة بالإسلام كعقيدة ومنهج، وإنما كانت ظرفا اجتماعيا واجه النبي في حياته، وقد تعامل معه بالطريقة التي تناسب ظرفه، أما نحن فنتعامل مع ظروفنا بطريقة مختلفة يتولاها وزير الدفاع.. فالحروب والغزوات ليست ركنا في الدين الإسلامي وإنما هي محض ظروف مادية حياتية تعرض لها النبي، كما قد يتعرض لها كل مجتمع وأي مجتمع وفي أي عصر، حتى وإن وردت الإشارة إليها في القرآن فلا يعني ذلك استمرارية أوامر الحرب والقتال وإنما هذه الآيات جميعها تتناول ظرفا معاصرا لنزولها حصريا، كما غيرها من الآيات التي تحدثت عن المنافقين والمعادين للإسلام كأبي لهب، وطلاق زيد بن حارثة من السيدة زينب بنت جحش.. وأيضا الخلاف على الأنفال.. والتعليق على المعارك الحربية بالانتصار والهزيمة.. والتعليق على أحوال المنافقين ومن لم يذهب للقتال .. ومنها ما كانت موجهة للرسول بشخصه دون غيره، مثل (قالوا).. (يسألونك).. (ويستفتوك).. و(قل) (جاهد الكفار والمنافقين) ومضمون هذه الآيات لأي عاقل أنها تفاعل ظرفي مع المجتمع وقتها وليست أوامر مستديمة،

وكافة الآيات التي تحدثت عن وقائع معاصرة لنزول القرآن هي قصص محمدي ننظر إليه كباقي القصص القرآني على أنه تاريخ الإسلام نأخذ منه العبر فقط، وليس تشريع؛ ولهذا ينبغي التفريق بين ما هو حكمة وما هو شريعة وما هو أحسن القصص.

إن المذهبية هي سرطان في جسد الدين الإسلامي جاء من باب التفتت والشقاق في الفكر والرأي، وجاء ميلادها بالتزامن مع النزاعات السياسية وانقسام دولة العرب العباسية إلى دويلات منفصلة، وانقسام دولة الأندلس الأموية إلى طوائف متناحرة، جاء ذلك كله تزامنا مع نزاعات وصراعات فقهية ولدت المذهبية والطائفية الدينية في القرن الرابع عباسي مع بداية انهيار دولة العرب. فظهرت المذهبية في الدين كأثر متزامن للتفتت السياسي وليس من باب التنوّع في الرأي والفكر؛ لأن التنوع لا يتطلب قوالب فقهية مثل قضبان القطار ليسير عليها التلاميذ كما القطيع عبر العصور، الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية والسنية والشيعية ...إلخ. نحن في حاجة ماسة إلى تنحية هذه الخلافات المذهبية قبل أن تتحول إلى ملل دينية كما حال المسيحية اليوم.. فالمذهبية كلها شرك بالله وفق قوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }الأنعام١٥٩. {...ولا تكونوا من المشركين ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }الروم٣٢.

وينبغي علينا ضرورة تصفية المناهج الأزهرية ووقفها من التدريس بالإجماع وتحويلها إلى قسم"تاريخ الفقه"، وإلغاء كافة المناهج الخاصة بالتاريخ العربي والمسماة بـ"التاريخ الإسلامي"، وكذلك وقف تدريس نظام المذاهب جميعها لتصفيتها من أسماء الفقهاء وإعادة تنقيحها بتفعيل المعيار الموضوعي، وتخليصها من وطأة متلازمة ستوكهولم التي أصابت عقول الفقهاء خلال تلك العصور، حتى لا تنتقل العدوى إلى الأجيال القادمة، إذ أننا بمجرد انتزاع أسماء الفقهاء والمذاهب ستتجلى الحقائق عارية، ويهبط حجم المادة العلمية إلى الربع، لأن أغلب الآراء الفقهية تكررت وقامت بلا سند ولا دليل موضوعي واعتصمت فقط بأسماء قائليها، لأن العلوم الفقهية خلال الألف وأربعمائة عام السابقة قامت في الغالب على المعيار الشخصي والمذهبي، فالرأي عندهم يستمد قوته وسنده من شخصية قائله ومذهبه ودرجته وليس من دليله العقلي، فعلينا تنقية العلم من كافة ملامح المعيار الشخصي وإلا انعزل عن الحياة، ولأن اسم العالم ليس أهم من العلم ذاته، والضرر من تركيب أسماء الفقهاء والعلماء في النظريات الفقهية أخطر من ضرر حذفها وتنقيتها، فنحن نتفانى من أجل العلم، فلا يجوز أن يفنى العلم وينعزل

عن الحياة احتراما للعلماء والمذاهب. ولا ننس أن فكرة المذاهب ما هي إلا امتداد للصراع السياسي الذي وقع في الدولة العباسية في العراق والأموية في الأندلس والدولة الفقهية العربية بالكامل تفتت وانشطرت وبقيت آثار تفتتها وانشطارها في بلادنا. وإذا نظرنا إلى الفقه القانوني سنجده خاليا تماما من المذاهب وخاليا من الأسماء والألقاب، وكل ذلك لم يخل بحقوق الملكية الفكرية المعتبرة، على أن ترد أسماء الفقهاء والعلماء في هوامش الكتب فقط وليس في متون الكتب.

فنحن في حاجة ماسة لهدم الخلافات والمذهبية وتطهير الأزهر من رواسب الزمن، ولا بد من وقف تدريس المذاهب الفقهية بأنواعها ليعود الفقه حرا دون صناديق مغلقة على نفسها، ولابد للتطهير أن تستأصل الجذور الفاسدة والحشو والثوابت العالقة بدلا من أن تؤدي إلي تعفن الكيان كليا، ومجرد أن هناك موضوعات اعتبرها الأزهر ثوابت الأمة، فهذا غير صحيح، لأن لقب"ثوابت الأمة" ليس قرينة تتخذ حصانة وقدسية لأمور فاسدة، بل هي محض مسلمات تراثية من تاريخ العرب، فلا بد من إعادة تدوير الفكر وتنقيحه للاستفادة منه، وكونها ثوابت اتفق عليها العلماء ألف عام فهذا لا إلا أن العرب تخلفوا ألف عام وما زالوا متمسكين بأسباب تخلفهم، وهذا لا يجعلها حقائق علمية، لأن الكنيسة الأوربية كانت لديها ثوابت استمرت ألفي عام كاملة ثم انهدمت مع بداية عصر النهضة الحديثة عندما ظهر الدليل العلمي. والأزهر كنزٌ عامر بالعلوم، فقط علينا حسن استيعابها وتنقيتها وتنقيحها كما تثقف الشجرة كل عام كي تثمر.

ومن الضرورة إلغاء التعليم الديني المتخصص في مرحلة الطفولة، ودمج المعاهد الدينية الإسلامية والمسيحية في نظام التعليم المدني، كي يتلقى الطفل المادة التربوية كاملة قبل المعرفة التخصصية، فلا نجد نظاما تعليميا في العالم يقوم على شحن الطفل منذ صغره بنوعية تخصصية من العلوم والمعارف دون الإلمام بكافة جوانب المعرفة الأخرى، خاصة ذات الطبيعة التربوية مع بعض المعارف المتنوعة في الحياة الاجتماعية، حتى يتعلم طرق التفكير وآلياته وأدواته، بما يؤهله لعقلية مكتملة تعرف في العلوم المعاصرة بقدر ما تعرف في الأدب المعاصر بقدر ما تعرف في الدين بقدر ما تعرف في التكنولوجيا، بقدر ما تعرف عن علم المستقبليات، ثم في المرحلة الجامعية فقط يبدأ التخصص في العلوم الدينية بالتوازي مع نظام التعليم الجامعي العام، حتى لا يخرج لنا راهب عابد منعزل فكريا وثقافيا عن المجتمع، وإنما يخرج عالم مندمج في المجتمع يخاطبهم بفكرهم وبلغته لا بفكر ولغة العصور الوسطى، حيث تكون قد تكونت عقلية الشاب على رصيد واسع ومتنوع

ومتناغم من المعرفة يمكنه من استيعاب المعرفة الدينية لكي ينسجم عقله مع الحياة ولا ينعزل في صومعة فقهية بعيدة عن المجتمع. فالظاهر أن الطفل الذي يبدأ حفظ القرآن من صغره ويتخصص في علوم الدين حتى تخرجه، الظاهر أنه سيكون أفضل ممن تعلم الدين على كبر، لكن الواقع يثبت حقيقة عكس ذلك تماما، لأن العبرة ليست بالكم ولكن بالكيف، فهذا الطالب لن يكون أكثر إبداعا في الفقه من إبداع أقرانه الذين تخصصوا في الطب أو الفيزياء والهندسة، لأن عقليتهم التربوية تكونت بالشكل السليم، وعقليتهم العلمية تكونت على رصيد معرفي مكنهم من التفكير الصحيح والاحتكاك المتوازن بكافة مجالات المعرفة، وإلا فكيف برع أحمد زويل في اكتشاف الذرة رغم أنه لم يبدأ تخصصه الذري في الكتاتيب حينما كان طفلا صغيرا؟

والمشكلة الكبرى أن الفقهاء يتلقون الدين باعتباره من ثقافة العرب ونتاج حضارتهم المعرفي، بينما هو في الواقع جاء من السماء موجها إلى العرب ذاتهم بسبب انحرافهم، فعلينا إعادة التدقيق في كل ما قالوه وما نقلوه عن هذا الدين لا أن نأخذ منهم بثقة كاملة.. فالفقهاء جردوا الإسلام من كل مصادر التعاطف المعرفي حينما اتبعوا نهج العرب في إقرار ظاهرة السبي واقتحام الأوطان والشعوب المسالمة والسيطرة عليهم باعتبار ذلك فخر وعزة للإسلام، فاستقووا علي الشعوب وكسروا إرادتها ظلما وقهرا.. ومن الضروري إلغاء التاريخ العربي من الكتب والمناهج التعليمية المصرية، حتى خلال الحقب التي كانت مصر فيها خاضعة للحكم العربي، لأنه في الحقيقة سبة كبيرة في حق الوطن، فلا يفرض علينا ذلك دراسة نظم الحكم العربي بأصوله وفروعه في دمشق وبغداد وغرناطة، لأننا لا ندرس سياسة الحكم الإنجليزي في العاصمة لندن وفروعه في الهند والشرق خلال حقبة الاحتلال الإنجليزي، ولا ندرس أنظمة الحكم الروماني في روما خلال حقبة الاحتلال الروماني لمصر لأنها لن تفيدنا في شيء وليست جزء من قوميتنا.

أو لنتساءل؛ لماذا ندرس تاريخ العباسيين والأمويين تحت مسمى الدولة الإسلامية، ولا ندرس تاريخ السعوديين الآن؟ ألم تعد السعودية الآن دولة إسلامية؟ فلماذا لا ندرس تاريخها خلال القرن العشرين وموقف الخليفة السعودي مع الانجليز خلال الحرب العالمية الأولى والثانية باعتباره تاريخ الإسلام؟ أم أن الإسلام توقف وذاب مع تاريخ العباسيين فقط؟ بل إن الأغرب من الخيال أن نجد الفقهاء يدرسون كتاب تاريخ ضمن كتب الفقه، مثل كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، اعتبروه كتاب فقه ديني، رغم أنه مادة تاريخية بحتة وأغلبه مخالف للدين والحق والعدل، بل إننا عند مطالعة هذه العينة من

الكتب سنكتشف صراحة أن عادات المجتمع العربي قد أصبحت دينا للشعوب، ليس فقط جرائمهم، فيتحفنا هذا الكتاب الذي قيل أنه فقهي بباب في الولاية على الأنساب العربية، حيث يبين كيفية إصدار شهادات الميلاد وشهادات الوفاة وإصدار بطاقات قومية لسلالة الأشراف من قريش وتسلسل الأجيال والأنساب ومنع زواج الفتيات بشباب من عامة الناس، وهكذا ! والغريب أكثر في هذا الكتاب أنه ينقل عن الإمام الشافعي قوله بأنه لا تصح صلاة الجمعة في المساجد السلطانية إلا بحضور السلطان ! أو من ينيبه ! .. إذن حتى الأعراف والبروتوكولات السياسية للعرب أصبحت دينيا ملزما للشعوب!

غير أن تاريخ العرب ليس جزء من قوميتنا، وليس جزء من ديننا ولا نجد شعب في العالم يدرس تاريخه وتاريخ جيرانه، فلماذا يدرس أطفال المصريين تاريخ الفراعنة وتاريخ قريش؟ فأبي بكر وعمر وعثمان عفان هم شخصيات قومية عربية، يدرسها التاريخ السعودي مهما كانت عظمتهم أو إنجازاتهم، فهم يمثلون نظام الحكم العربي ويمثلون المجتمع العربي وليس المصري لأن المصريين في عهد الخلفاء الراشدين كانوا يتحدثون اللغة الفرعونية ولا يعرفون شيئا عن الخلفاء، فلماذا نعتبر تاريخهم تاريخ لنا؟ ولماذا نعتبر تاريخهم من الدين؟ مهما كان عبقريا، فالدين نزل من السماء وليس نتاج العبقرية العربية، الدين هدي من السماء وليس نتاج القومية والعقلية العربية، أما نظام الخلافة فهو نتاج الحضارة العربية، ونتاج العقلية العربية، والخلفاء هم جزء من القومية العربية وليسو شركاء في النبوة. فإذا كُنا نحن قد قسمنا صفات النبي محمد وحددنا تصرفاته وأقواله ما بين ما يخص الرسالة (القرآن) وهو كلام الله، وما يخص النبوة (الحديث) وهو معصوم من الخطأ، وأما ما يخص صفاته البشرية العادية التي يكتسب فيها المعرفة بالتجربة والخطأ والخبرة، فهذه صفات بشرية للنبي وليست ملزمة دينيا، فلماذا اعتبرنا تاريخ الصحابة من الدين مع أنهم كلهم على بعضهم صفات بشرية فقط وليسو شركاء في الرسالة ولا النبوة ؟

فلماذا ندرس تاريخ الدولة العربية التي أسسها عمر الخطاب مع أنه اتبع آليات بدائية في تأسيس دولته مقارنة بدول الحضارات السابقة على العرب؟ قام نظامه الاقتصادي على الجبايات من الشعوب المجاورة، لماذا نعتبر دولة عمر الخطاب هي النموذج الأمثل للإسلام بينما هي كانت نموذج عربي بدائي يفتقر إلى الآليات الاقتصادية والنظم القانونية والإدارية التي كانت سائدة في العراق عهد عمر نفسه؟ فهو اقتبس العملة من الفرس واقتبس النظم الإدارية والعسكرية من الفرس أي أن الحضارات المجاورة له كانت أكثر تقدما من العرب، فلماذا نعتبر تاريخهم هو النموذج الإلهي المثالي مع أنه جهد بشري عادي

ضعيف جدا إذا ما قورن بغيره من الحضارات؛ لكن هكذا عادة العرب أن يصنعوا من قِطهم جملاً ثم يقدسونه فيما بعد. فصرنا نحن في مفترق طرق متصارع مع ازدواج في القومية، نفتخر بحضارتنا الفرعونية، ونشتاق لتاريخ دولة العرب، وازدواج في الهوية الدينية والوطنية، وكأننا كي نكون مسلمين حقا فلا بد أن نعتنق الهوية والقومية العربية ونترك القومية المصرية أو نحافظ عليها فقط لغرض السياحة، فلماذا لا يدرس الكوريون والإندونيسيون تاريخ الدولة الأموية والعباسية برغم أنهم مسلمون مثلنا؟ ولماذا لا يتحدث الدكتور ذاكرنايك اللغة العربية برغم أنه مسلم أفضل من آل سعود جميعا وكل العرب؟

إنما ندرس تاريخنا المصري لأنه أقرب إلى الحضارة والعدل الاجتماعي، وهو أصل القومية، وقوميتنا مستقلة ونزيهة عن العرب، وتحول سكانها إلى العربية كان تحولا لسانيا لا جينيا وراثيا، فالعربية لسان وما أسهل أن تتعلمه، وبرغم هذا التحول اللساني إلا أن مصر لم تفقد قوميتها ولم تفقد لغتها الفرعونية، ولم تذب في النسيج العربي، ولن يطمس العرب تاريخها وحضارتها لخمسة آلاف عام، بحضارتهم الهشة لخمسمائة عام والتي كانت أشبه بقلعة من الرمال تعالت ثم تهاوت قبل أن تمسها الرياح.. حتى وإن كان مصدر ديننا هو شبه الجزيرة، فالدين كمنهج وعقيدة يستقل تماما عن تاريخ العرب وحضارتهم وقوميتهم، وليس التاريخ هو مصدر الدين، والدين ليس مشتقا من ثقافتهم وقوميتهم وأعرافهم وإنما هو منهج رباني يعتنقه الكوريون والإندونيسيون والمصريون على حد السواء، ولا يعتبر ذلك محاولة للانسلاخ من الأصل لأن العرب ليسو هم أصل الحضارة وليسو هم أصل القومية، وتاريخهم منفصل عن الإسلام ومضاد له، ولن تفيدنا دراسته سوى بالتعرف على مزيد من الجرائم الأخلاقية والسياسية والعسكرية وبحور من الدم وجميعها باسم الدين.

غير أن حصر تسمية "الدولة الإسلامية" في هذه الحقبة التاريخية يعني أن ما عداها ينتفي عنه الإسلام، ويعني أن تاريخ السعودية اليوم ليس إسلامي، فكيف كان إسلامي أيما تبجح الخليفة في القرآن ويهجوه ساخرا بأبيات الشعر: أتتوعد كل جبارٍ عنيد.. ها أنا ذاك جبارٌ عنيد.. إن قابلت ربك يوم حشرٍ.. فقل يا رب مزقني الوليد..) فالإسلام دين لكل الشعوب وليس للعرب وحدهم أن يستغلوا اسمه في تلميع حضارتهم الفاشلة القاصرة بما يسئ للدين أبلغ إساءة، ويجعله مرتبطا بتاريخ العرب، فالعرب اعتادوا تحصين سياساتهم بالدين على مدار التاريخ، ففي مصر قد تقع أخطاء سياسية من النظام الحاكم فيخرج خدامه من السياسيين والإعلاميين مثل أحمد موسى ومصطفى بكري لتبرير الخطأ

والدفاع عنه، وإذا عجزوا في التبرير والدفاع فيقولون بأن كل نظام سياسي له أخطاء وأن الخطأ وارد. أما العرب وعلى مدار تاريخهم الأموي والعباسي والسعودي، تقع أخطاء، وليس فقط أخطاء سياسية وإنما جرائم سياسية دموية ولا يخرج سياسيين وإعلاميين للتبرير، وإنما يخرج إمام الحرمين لتبرئة خادم الحرمين.

بل إنه على السعوديين حكومة وشعبا أن يقدموا اعتذارا رسميا وقوميا للإسلام عما فعله أجدادهم الصحابة من إساءة للإسلام وغش واحتلال الشعوب باسمه ونهب ثرواتهم وسبي بناتهم ونسائهم وأطفالهم لأن ذلك جريمة حربٍ ضد الإنسانية وليس حقا دينيا مشروعا، وإذا صمم السعوديون أن دينهم يأمرهم بسبي الأطفال والنساء ووطئهن في الحروب فنحن لا نؤمن بدينهم، وإنما نؤمن بالإسلام دينا بريئا من شرورهم، وعليهم أيضا أن يقدموا اعتذارا رسميا وقوميا للمصرين عن الإساءة التي تسببوا فيها لشعب مصر خلال حقبة اغتصابهم لحكم مصر، سواء كان شعب مصر مسلما أو مسيحيا. وعلى السعوديين تخصيص حصة من عوائد النفط لرد الديون المترسبة في ذمتهم بحق النساء والبنات والأطفال الذين أخذوهم أجدادهم الصحابة سبايا من مصر لبيعهم في أسواق النخاسة بمكة والمدينة، بدلا من استمرار مسلسل استعباد المصريين الوافدين للعمل في بلادهم، وعليهم ورد الثروات التي حصلوها من مصر خلال هذه الحقبة والتي صدروها إلى المدينة المنورة أو إلى دمشق أو بغداد عبر قناة خليج السويس التي قال عنها السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن عمر الخطاب أول من حمل الطعام من مصر إلى المدينة، وذلك في الخليج الذي امتد من الفسطاط إلى السويس، ولما ظهر محمد النفس الزكية في الحجاز، أمر واليه على مصر بردم هذه القناة لقطع الميرة عن البلاد الحجازية. وفي الخطط للمقريزي عن سبب حفر هذا الخليج، قال؛ أن الناس في المدينة قحطوا فأعانهم عمرو العاص بعير أولها كان في المدينة، وآخرها في مصر، فأمر عمر بفتح هذا الخليج لتيسير النقل في البحر.

على السعوديين أن يقدموا اعتذارا رسميا وقوميا للعالم لأن حروبهم خلال العصور الوسطى لم تكن دينية مقدسة، وإنما كانت جرائم حربٍ ضد الإنسانية انتهكت كل الحقوق، وعليهم أن يعترفوا بأن معارك الفراعنة كانت أكثر نزاهة من معارك الصحابة، برغم أن الفراعنة لم يكونوا في هذا الوقت مسلمين، لكن حروبهم ومعاركهم كانت أكثر نزاهة وأكثر إنسانية من معارك الصحابة في الفتوحات التي اتسمت بالوحشية وانعدام الإنسانية، وعلى الجميع أن يعلم أن التاريخ منفصلٌ عن الدين، وأن تاريخ العرب ليس دينا للشعوب.. وأن تاريخ المصريين صار علما تطلبه الشعوب

"علم المصريات" وأن الغبار الثقافي العربي لن يستمر كثيرا على عقولنا، وأن الغش التاريخي ما كان له أن يدوم أبدا أمام محاكم التاريخ. فإذا كان العرب قد ظنوا أن مصر انكسرت وسطوا عليها بقوميتهم البدوية، فاعلم أنها ما انحنت إلا لتربط الحذاء.. وعلى السعوديين أن يثبتوا أنهم خير أمة أخرجت للناس طالما هم من سلالة الصحابة؛ لأنهم لو استطاعوا خداع أجيال المصريين على مدار ألفٍ وأربعمائة عام متوالية، فلن يستمر ذلك الخداع أكثر من قرنين آخرين من الزمان حتى ينقشع الغبار وتصفو سماء الفكر المصري وتحرر إرادة المصريين من مغبة تقمص العقلية العربية، ولن يجد القول بأن الأمر ولى أوانه وانتهى لزمنٍ بعيد؛ لأن مناهجهم التاريخية لا زالت تدرس في مدارسنا باعتبارها مادة دينية مقدسة إلى اليوم، ولا زالت مروياتهم الكاذبة التي صدرها أجدادهم للعالم تلقى في خطب الجمعة على المنابر كل يوم، وما زالت أكاذيبهم ومروياتهم تلد أفكارا إرهابية إلى اليوم، ولن يستمر هذا الغش الخداع مهما حاول المنبطحون التبرير والدفاع، فهذا الكتاب يحمل نموذجا من فكر الأجيال القادمة شئنا أم أبينا.. فقد يكون الآن نوعا من الخيال العلمي، لكنه في المستقبل سيصبح حقائق عملية.

وعلينا إعادة ترسيم المناهج التربوية جيدا بحساب نسب ونوعيات المعرفة التي يتلقاها الطفل في المراحل التعليمية، مع الحذر الشديد من خطورة المادة التاريخية كونها تعمل على تنمية وتغذية ملكة النوستالجيا التي تدور أفكارها وتصوراتها في العقل بصيغة الماضي وتحتل مساحة شاسعة من الفكر تحببه دائما في كل ما هو ماضٍ وتجعل منه نموذجا مثاليا للحياة فتزهد الحاضر وتنفر من المستقبل نتيجة التناقض الحاد بين تصورات الماضي الهادئة وسكونه الجميل مقارنة بعنف الحاضر والمستقبل سريع التطور، فتظل عقولنا خجولة من اجتياح المستقبل واختراق آفاقه.. فعشق الماضي حتما يحمل نفورا من الحاضر، ونفور الحاضر يعني ضمنيا اعتراض على مشيئة الله التي أرادت لنا أن نعيش في هذا الجيل وهذا العصر دون غيره، وما يجعل الماضي محببا في نفوسنا أكثر هو ارتباطه بالصبغة الدينية "التاريخ الإسلامي" أو الدين بطعم ولون ورائحة التاريخ. فارتباط الدين بالتاريخ يجعل حبنا لهذا الدين بقدر حبنا للتاريخ، ومن هنا تتسرب مشاعر النوستالجيا إلى عقولنا وهي بمثابة المرآة الخلفية للسيارة، أو كأننا نتحسس طريق المستقبل بالنظر إلى الخلف. وكذلك من الضروري إعادة حساب مقادير المعرفة الأدبية مقارنة بالمعرفة العلمية ومعادلتها بمعدل نشاط قطبي القلب البطين الأيمن والأيسر بما يضمن معدل أداء طبيعي ومنتج لنصفي العقل الفكري والعاطفي كي نستطيع الخطو نحو الحضارة بخطوات أجدادنا الفراعنة، لا أن نظل منبطحين تحت حظائر العرب لأن الثقافة الأدبية والمعرفة السائلة هي مجرد إعادة اجترار للأفكار والمعاني السائدة في المجتمع ولا تمكن العقل

من اتخاذ أي خطوات استباقية نحو الحضارة والرقي لأنها محض دعامة جمالية مكملة وليست قوة دفع.

نحن في حاجة إلى وثباتٍ فكرية تزيل عن عقولنا غبار الاحتلال العربي وتحفظ لمصر شخصيتها واستقلالها الحضاري عن العرب، ونحن في حاجة إلى ثورة وعي لتخليص الإسلام من سياقه الثقافي التاريخي العربي كي يصبح صالحا للحياة، ويجب أن نطهر سيرة النبي من مؤثرات المجتمع العربي القديم والحديث، فلا بد أن يخرج الإسلام من كهف الظلم العربي إلى النور، فالعرب بطبيعتهم وخصائصهم العرقية شعب لا يدمن العمل ولا البناء ولا الإنتاج ولا يجيد الفكر ولا يهوى العلم ولا المعرفة، فقط يدمن السطو والتسلط والكلام، ومصدر رزقه إما سيفه وإما الجباية أو النفط أي ليس من عمل يده، وهذه المؤهلات لا تصلح لبناء الحضارات. فعلينا تنقية عقولنا أولا بأول من سياق الثقافة العربية، وتعليم أطفالنا أن العرب ليسو إلا جيران، وأن الصحابة ليسو شركاء في النبوة، وظهور النبي محمد في بلادهم لا يميزهم لأنه بعث إليهم بسبب فساد أخلاقهم وعقائدهم، ونزول القرآن باللغة العربية ليس تشريفا لها ولكن ليكون دليل الإدانة والحجة على العرب وبلسانهم، فالعرب ليس لديهم ما يصلح أن يكون قدوة للمصريين أو تراثا زاخرا لهم أو لغيرهم، لا من حيث التاريخ والحضارة، ولا من حيث السمات والخصائص العرقية. والإسلام ليس من نتاج ثقافتهم ورقيهم المعرفي والإنساني، بل هو دين الله نزل من السماء هدىً ورحمة للعالمين، ولمن يقطف ثماره أن ينتقيها ويجليها من خصوصية المجتمع والثقافة العربية القديمة. لأن العرب اختزلوا الإسلام في ثقافتهم وقوميتهم، حتى أننا لم نستطع إلى اليوم تمييز ماهية القومية العربية، صار كل ما يأتي من العرب يسمى إسلاميا بينما ذابت القومية العربية في كل ما يحمل اسم الدين، أي لم يعد هناك تاريخ سياسي واجتماعي وعسكري للعرب وإنما كل ذلك صار اسمه تاريخ إسلامي.

وهكذا صرنا نحن رهينة نؤمن بأفكار العرب وسلوكياتهم وتصرفاتهم باعتبارها دينية إسلامية؛ ذلك لأننا جميعا خضعنا لإكراه العرب وشربنا الدين بالإكراه خلال حقبة الاحتلال العربي لمصر، وما زلنا نعيش طور الرهينة المكره على أمره، لكن الإكراه أصبح ذاتيا من داخل نفوسنا بقوة تشبثنا بالتاريخ العربي، فنحن بحاجة ماسة إلى تحرير أنفسنا من رهن العرب وتحرير الإسلام من القومية العربية.. أما نعرة القومية العربية فلا طائل منها طالما وجد شرخ وطني داخلي بين المصريين على خلفية الانتماء مفهوم (الفتح أو الاحتلال العربي) لمصر، أو تناقض وتصارع الهوية الوطنية مع

الهوية الدينية بالنسبة للمسلم المصري من جراء الإيمان بفكرة الفتح العربي لمصر وهو تناقض غير محسوس لكن أثره فعلي يتمثل في حوادث الإرهاب ضد الوطن وأبناء الوطن، فرأب الصدع النفسي الذاتي الداخلي في النسيج المصري أولى من الصراخ بنعرة القومية العربية، لأن العرب عندما اكتشفوا النفط في بلادهم لم يخرجوا زكاته للمصريين مثلا، وإنما استلذوا استعباد المصريين الوافدين للعمل في بلادهم، فالطبيعي أن القومية المصرية لها الأولوية. فلطالما تساءلت مرارا في كافة مراحل حياتي ما هو السر الذي يجعل الغرب متقدما علينا؟ كنت اعتقد أنه التكنولوجيا فقط ولكنني اكتشفت شيئا أعمق أنهم تفوقوا علينا بالمشاعر والتسامح مع الغير والذات والإنسانية التي هي جوهر الدين وهي المراد الحقيقي له كما قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (ما عبد الله بأكثر من جبر الخواطر) فللأسف الشديد نجد نمطية الثقافة الإسلامية المتوارثة جعلتنا نستهزئ بشكل لا إرادي بمشاعر الآخرين معتقدين بأن الدين هو تطبيق الشعائر حتى لو كانت مفزعة للآخر ومفرغة من روحها وجوهرها الحسي الإنساني، وكأن التسامح ضعف وانكسار!، وأننا المفضلين لدى الخالق والمقربين منه بمجرد كوننا مسلمين.

وبعيدا عن التجريح في الشخصيات التاريخية من المسلمين الأوائل، فهم رموز تاريخية تحتفظ بمكانتها، وما البحث إلا في سبيل الوصول إلى الحقائق العلمية لتصويب مسارنا السلوكي والفكري وليس توجيه أصابع الإدانة، فإن كانت قد وقعت أخطاء سياسية أو سلوكية في عصرهم فقد يكون معهم عذرهم، أما نحن فالأمر مطروح للبحث بعقولنا وتحديد مصيرنا. وفي ذات الوقت لا يعتبر حديثنا عن الثقافة واللغة العربية إقصاء لها أو تقزيما من شأنها، ولكن فقط تنقية ما يصلح لتغذية العقول لأن الثقافة العربية هي نتاج العقلية العربية وهي عقلية أدبية بحتة، وليس كل التراث الثقافي نافعا وليس كله ضار، وليست هناك أي إشكالية حول اللغة العربية أو الفرعونية، بل إن اللغة العربية تساعدنا في فهم القرآن على الوجه الأفضل، إنما حديثنا عن اللغة الفرعونية جاء في سياق التأمل في مدى الملاءمة الوظيفية العصبية والتكوين الفسيولوجي للنسيج الذهني المصري ليس أكثر، أي في مجال المقارنة فيما إذا كان اللسان المصري مؤهل عصبيا وفسيولوجيا أكثر للحديث باللغة الفرعونية باعتبارها لغة الجذر العصبي وراثيا أم أنه مؤهل كذلك بذات الكفاءة للحديث باللغة العربية كونها تعتبر لغة أجنبية بالنسبة للسان المصري؛ لأن اللسان واللغة هي من المكونات الفسيولوجية لكل مجتمع، فالعلاقة الحميمية الطبيعية السلمية بين العقل العربي والفكر العربي"الشعر" ربما تختلف

عن علاقة اللغة باللسان والفكر والتكوين الفسيولوجي المصري، ولم يأت الدين لينهي عن التحدث بلغة معينة هو الذي خلقها أو يلزم الإنسان بلغة أجنبية غير تلك التي خلق الله لسانه ناطقا بها.

ونعتذر عن كل خطأٍ سقط سهوا، فجلّ من لا يسهو، ونعتذر لمن نقلنا عنه وسقط منا اسمه سهوا. ونعتذر عما قد يراه الإخوة العرب تجريحا في قوميتهم، ونؤكد على أن الفصل بين العرب والمصريين ليس بدافع العنصرية والعرقية، إنما بدافع تنقية وتطهير الإسلام من مؤثرات القومية العربية الإيجابي منها والسلبي أيضا لأن الإسلام دين لكل الشعوب، ولا يصح أن تتحول قومية العرب وثقافتهم الاجتماعية وتاريخهم إلى دين، ولا يصح من الأساس أن تندمج قوميتهم في الدين. وأما الغرض الثاني فهو التمييز بين الغذاء العقلي، لأن العقلية العربية أدبية الطابع بينما العقلية المصرية علمية عملية الطابع وكل نشاطها وسيرتها الذاتية علمية عملية تطبيقية، وهم في النهاية جميعا خلق الله ولا فضل لشعبٍ على آخر إلا بقدر اجتهاده وما يقدمه من خيرٍ للإنسانية، فكل من سعى لخدمة البشر وتواضع لله والعلم رفعه الله. واحتراما لعقل القارئ وفكره وخصوصيته الثقافية، فقد فضلت طرح مزيدٍ من الأسئلة دون إجابات وتركتها على طاولة الحوار المشترك، لأن الفكر المثمر لا يمكن أن يكون نابعا من قطبٍ واحد هو المؤلف أو المعلم، وإنما من قطبي العقل بالتبادل بينه وبين القارئ، ولم تعد الفكرة والمعلومة من مصدرٍ وحيد هو المؤلف أو المعلم، خاصة في عصر الملاحة الإلكترونية فائقة السرعة، ولم يعد طرح الأسئلة حصرا على حملة العلم من الكهول، بل أصبح من يطرح الأسئلة هم حملة مشاعل الفكر من الشباب.



الفهرس